مطرانية بني مزار
والبهنسا

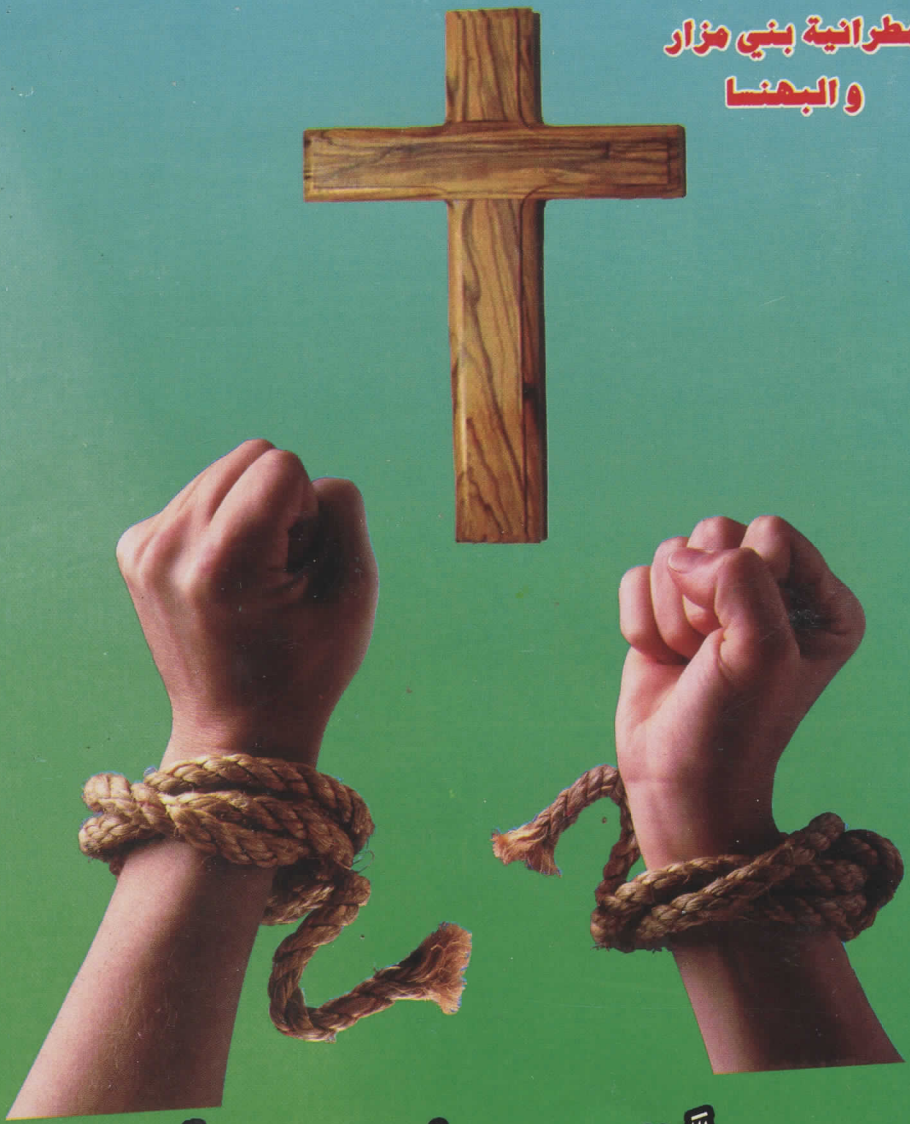

حريّة مجد أولاد اللّه

مراجعة وتقديم
نيافة الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

الأب أنتوني م. كونيارس
نقله إلى العربية : ي.م.

Anthony M. Coniaris

The Glorious Liberty
Of the
Children of God
The Challenge of Free Will

Light and Life Publishing Company.
P. O. Box 26421
Minneapolis, MN 55426-0421
U. S. A.

اسم الكتاب: حرية مجد أولاد الله. تحدّي الإرادة الحُرّة
اسم المؤلف: الأب أنتوني م. كونيارس
اسم المعرب: م.م ترجمة بتصرُّف
مراجعة: ي. م.
الطبعة: الأولى ٢٠١٥م
اسم المطبعة: مدارس الأحد
٧٠ شارع روض الفرج
ت: ٢٢٠٢٩٧٤٤
رقم الإيداع: ٢٠١٥/٨٥٥٧
الترقيم الدولي: 978-977-6439-70-2
الغلاف والصور: الفنان كمال غطاس

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٨)

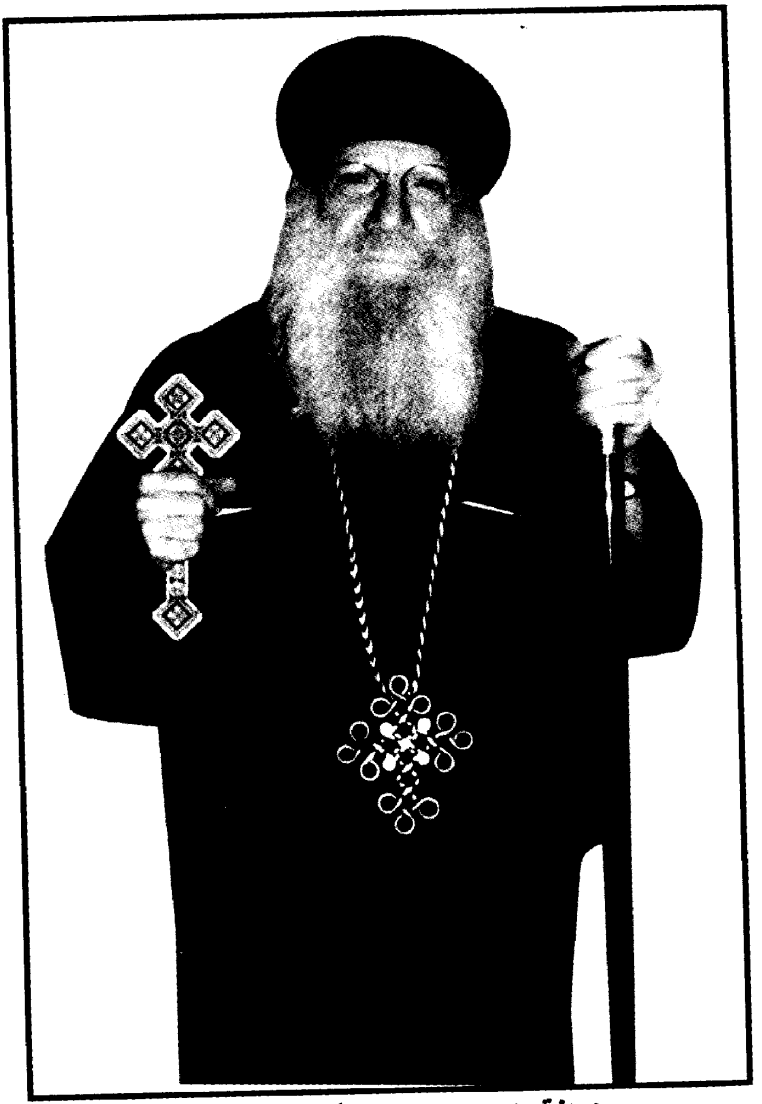

نيافة الحبر الجليل الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

تقديم نيافة الأنبا أثناسيوس

بسم الثالوث القدُّوس

الإله الواحد آمين

عندما تكون حُرًّا مِن الله، ومِن نصائحه ووصاياه؛ ففي الوقت نفسه تكون عبدًا لإبليس وتعاليمه. وإنْ كنتَ تَظُن أنَّك تعيش في النُّور، فأنتَ في الوقت نفسه تحت سُلطان الظُّلمة وضلالها.

ورغم أنَّ الإنسان خُلِق على صورة الله ومِثاله، فعندما رَفَض هذه الصُّورة، وعندما أحبَّ العالَم والسَّيْر في الخطيَّة، أصبح عبدًا للعالَم والخطيَّة والشَّهوة التي نهايتها الهلاك، رغْم أنَّ الله خَلَقَنا على صورته كمثاله في البِر والتَّقوى، إلاَّ أنَّ إرادة الإنسان أوصلته إلى العبوديَّة المُهلِكَة.

فلابدَّ للإنسان أنْ يصير حرًّا في حياته مِن قيود الشَّر، ويجب عليه ألاَّ يمحو الصُّورة المقدَّسة التي خُلِق عليها، التي تجعله حُرًّا فوق كل عبوديَّة مُهلِكَة.

العبوديَّة للمشيئة الإلهيَّة هي الحريَّة التي حرَّرنا بها الله مِن

عبوديَّة العالَم وشهواته المُدَمِّرَة. فيجب أنْ نثبت في هذه الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا نرتبك بنير عبوديَّة (غل٥: ١)، لأنَّه إنْ حرَّرنا الابن، فبالحقيقة نصير أحرارًا (يو٨: ٣٦). أحرارًا مِن شهوات النَّفْس والجسد، ومِن إغراءات العالَم الزَّمني الذي نعيش فيه، ولا نرتبك بنير العبوديَّة. هذه هي الحريَّة التي حرَّرنا بها المسيح حياتنا.

فمِن الواجب ألاَّ نرفض صورة القداسة التي بدونها لن يَرَى أحد الرَّب (عب١٢: ١٤). إنْ صرتَ عبدًا للعالَم وشهواته التي يرغبها الجسد والعَظَمَة والمجد التي ترغبها النَّفس البَشَريَّة، فبذلك تكون فقدتَ حريَّة مجد أولاد الله. وبدلاً مِن أنْ تكون هيكلاً لله في البِرِّ والتَّقوى، تجد نفسك وقد صرتَ وعاءً للشرِّ وللإثم، وأصبحتَ ابنًا لَمَن سِرتَ وراءه، وأصبحتَ بعيدًا عن الله والسَّماء، إذ قد غيَّرتَ صورة القداسة التي خلقك الله عليها، والتي تكون بها حيًّا إلى الأبد.

إنْ خضعتَ للإرادة الجَسديَّة ـ إنسانك الطَّبيعي ـ فسيُحكَم فيك مِن كلِّ أحد، لأنَّك لا تَقْبَل روح الله، لذلك عندك جهالة.

أمَّا الإنسان الرُّوحي ـ الذي للمسيح ـ فقد صَلَب الجسد

مع الأهواء والشَّهوات (غل٥: ٢٤). الإنسان العتيق يجب أنْ نميته بالرُّوح، لأنَّنا بالرُّوح نُميت أعمال الجسد فسنحيا (راجع رو٨: ١٣). فإذا أردنا أنْ نعيش بالرُّوح، فلنسلك أيضًا بحسب الرُّوح (غل٥: ٢٥)، لأنَّنا نحن مخلوقون في المسيح يسوع لأعمالٍ صالحة سَبَق الله فأعدَّها لنسلك فيها (أف٢: ١٠).

فنحن مخلوقون بالمسيح يسوع، أي أنَّنا نلنا روح المسيح، روح القداسة الذي به نصير أُناسًا روحيِّين لإحياء صورة البِر والقداسة التي يجب أنْ نعيش فيها. هذه الحريَّة الحقيقيَّة التي حرَّرنا بها المسيح لنسلك فيها.

غير ذلك هي عبوديَّة للإنسان العتيق الذي دُفن في المعموديَّة: «**أنتُم الذين اعتمدتُم للمسيح، قد لبستُم المسيح**» (غل٣: ٢٧)، الذي به نسلك أحرارًا مِن العالَم والشَّهوة والخطيَّة، فنملك معه. بذلك نحيا في الحريَّة الحقيقيَّة، ونكون: «**رعيَّة مع القدِّيسين وأهل بيت الله، مبنيِّين على أساس الرُّسُل والأنبياء، ويسوع المسيح هو حَجَر الزَّاوية، الذي فيه كل البناء مركَّبًا معًا، ينمو هيكلاً مُقدَّسًا في الرَّب... مسكنًا لله**» (أف٢: ١٩-٢٢).

فالإرادة الحرَّة هي التي خَلَقنا بها الله، وأعطانا مِن روحه، لنسلك بها لنوال حريَّة مجد أولاد الله. هذا الحَق الذي يُحرِّرنا

(يو٨: ٣٢)، فلا ترتبك بنير عبوديَّة وتظن أنَّك حُر، بينما أنتَ عبد لشهوات الإنسان العتيق جسدًا ونفْسًا. فالحريَّة الحقيقيَّة أنْ تحكُم في كلِّ شيء، ولا يُحكَم فيكَ مِن أحد (١كو٢: ١٥).

أُسلك بالرُّوح فلن تُكمِّل شهوة الجسد (غل٥: ١٦)، فأنتَ لستَ تحت ناموس، بل حرٌّ مِن كلِّ شيء، وتكون مالِكًا نفسك أعظم مِن أنْ تأخذ مدينة (أم١٦: ٣٢). فلنتبع البِر والقداسة التي للإنسان الجديد، أي لنخلع مِن جهة التصرُّف السَّابق، الإنسان العتيق الفاسِد بحسب شهوات الغرور، وتتجدَّدوا بروح ذهنكم، وتلبَسوا الإنسان الجديد بحسب الله في البِرِّ وقداسة الحَق (أف٤: ٢٢-٢٤).

هذا هو طريق حريَّة مجد أولاد الله التي بها حرَّرنا، وصورة الله التي خلقنا عليها، وعندما جدَّد طبيعتنا، أعطانا روحه القُدُّوس (١تس٤: ٨)، راجع: (يو١٤: ١٦و١٧)، (١يو٢: ٢٠و ٢٧).

بهذا الرُّوح وبهذه المسحة، نختار الحريَّة، فننال حريَّة مجد أولاد الله التي تحوي مصيرنا الأبدي.

شكرًا لكلِّ مَن له تعب في إخراج هذه الكُتُب الروحيَّة، الأب أنتوني. م. كونيارس المؤلِّف، ولِمُترجِمَة الكتاب ولِمَن راجعه،

فخَرَجَت هذه الكنوز إلى النُّور لنستمتع ونحيا في الحريَّة الـــتي في المسيح يسوع. وشُكرًا لكلِّ مَن تعب في إصدار هذا الكتاب إلى أنْ خرج إلى النُّور لتقديمه وإضافته إلى المكتبة العربيَّة.

شكرًا للربِّ يسوع الذي أعطانا الحريَّة الحقيقيَّة فيه؛

الرب يبارِك في هذا الكتاب، ويُبارِك قارئيه،

بشفاعة أُمِّنا العذراء القدِّيسة مريم والدة الإله، والشهيد مار مرقس الإنجيلي، وجميع الشهداء والقدِّيسين، وبصلوات أبينا البابا القدِّيس البطريرك البابا تواضروس الثاني بابا الإسكندريَّة وبطريرك الكرازة المرقسيَّة. كما أُقدِّم الشُّكر لصاحب النِّيافة الأنبا إبيفانيوس أب ورئيس دير القدِّيس أنبا مقار ببريَّة شيهيت، وكل مَن له تعب في إخراج هذه الكُتُب الروحيَّة، هديَّة الرُّوح القُـــدُس للكنيـــسة القبطيَّة. آمين.

عيد إصعاد جسد السيدة العذراء مريم

١٦ مسرى ١٧٣١ش

٢٢ أغسطس ٢٠١٥م

بنعمة الله

أثـــنـــاســـيـــوس

أسقف بني مزار والبهنسا

تـــصريح الأب أنتـــوني
كونيـــــــــــارس
لأسقفية بني مزار بترجمة
ونشر كتبه باللغة العربية

LIGHT & LIFE PUBLISHING

4808 Park Glen Road, Minneapolis, MN 55416
Telephone: (952)-925-3888 Fax: (888)-925-3918
www.light-n-life.com

Bishop Athanathious of Beni
Mazar and Behnesa
Benimazar
Arab Republic of Egypt

July 29, 2003

Your Grace,

I beseech your Episcopal blessing.

I am most pleased to grant you permission to translate any of my books into Arabic.

I must admit humbly that these books were written not by me but by the Holy Spirit, so we offer all praise to Him together with the Father and the Son, Amen.

Most respectfully,

+Anthony M. Coniaris
Anthony M. Coniaris

تأمُّلات حول الموضوع

* **«فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضاً بنير عبودية»** (غلاطية ٥: ١).

* التحرُّر مِن الخطيئة الأصليَّة يتطلَّب اختيارًا شخصيًّا، ذلك الاختيار الذي يستمر في عمليَّة التَّقديس D. Staniloae.

* الحريَّة هي جوهر الصُّورة البشريَّة لله (القدِّيس غريغوريوس النِّيصي St. Gregory of Nyssa).

* نحن مِلكٌ لله بحُكم الخَلْق والفداء، فلنكن مِلكًا له أيضًا بواسطة الاختيار الحر (A.M.C.).

* **«لأنَّ الخليقة نفسها أيضًا ستُعتق مِن عبوديَّة الفساد إلى حريَّة مجد أولاد الله»** (رومية ٨: ٢١).

* الله يقدر أنْ يفعل كل شيء، ماعدا أنْ يجبرنا على الخلاص (القدِّيس يوحنا ذهبي الفم St. John Chrysostom).

* الإرادة الحرَّة كتبرير مألوف فيما يتعلق بالشرِّ الأخلاقي، تؤكِّد على أنَّ العالَم الذي فيه إمكانيَّة وجود أُناس خطاة، أفضل مِن العالَم الذي يحوي آلات مُبرمجة بإتقان (Dr. John Polkinghorne).

* الله يقف عاجزًا أمام الإرادة البشريَّة، إنَّـــه لا يقـــدر أنْ ينتهكها بما أنَّها تنبع مِن قدرته الكليَّة (فلاديمير لوسكي Vladimir Lossky).

* لقد نَسِيَكَ النَّاس، أنتَ خالقهم، ويبحثون عنْ حريَّتهم، غَيْر مدرِكين أنَّك رحيم وأنَّك تُحب الخاطئ التَّائب، وتعطيـــه نعمـــة روحك القدُّوس (القـــدِّيس ســـلوان الأنطـــوني St. Silouan the Anthonite).

* «**فإنَّكم قد دعيتم للحريَّة أيُّها الإخوة... بل بالمحبَّة اخـــدموا بعضكم بعضًا**» (غلاطية ٥: ١٣-١٥).

* أولئك الذين يعرفون الله أفضل معرفة – أي القدِّيسون – دائمًا يتعرَّفون على حبيبٍ لا طاغية (ريتـــشارد رور Richard Rohr).

* لقد خُلقنا على صورة الله، لكن أنْ نكون شـــبهه، فتلـــك عطيَّة تُمنَح فقط للَّذين مِن خلال حبٍّ عظيم أخـــضعوا حريَّتـــهم الشخصيَّة لله؛ ذلك لأنَّه عندما لا نكون ملكاً لأنفسنا، حينئذ فقـــط نصير شبه ذاك الذي بالحبِّ صالحنا مع نفسه (القدِّيس ديادوخوس St. Diadochus).

فهرس المحتويات

- لقد حرَّرك المسيح، فلا تصِرْ عبدًا ثانية ٢٥
- الحريَّة لها طبيعة مقدَّسة ٢٨
- قُدْرتنا على تقرير المَصير ٢٩
- الصِّفة التي ينفرد بها البَشَر ٣٢
- الخلاص ينطوي على الإرادة الحُرَّة ٣٢
- الحريَّة المُطلَقَة (بلا قيود) تُهَدِّد بتدميرنا ٣٣
- الإرادة الحرَّة كانت قصد الله ٣٤
- الله يحترم الإرادة الحرَّة ٣٥
- والدة الإله كان في إمكانها أنْ تَرفض ٣٧
- الحَبَل بلا دنس وإرادة العذراء مريم الحرَّة ٣٩
- الله لا يفرض سلطانه علينا ٤٠
- المَلك المتنكِّر ٤٢
- مَخاطر الإرادة الحرَّة ٤٤
- التَّقييد الذاتي الإلهي ٤٧
- لماذا القُدرة على الاختيار؟ ٤٨
- الإرادة الحرَّة والجحيم ٤٩
- نحن أحرارٌ بصورة مروِّعة ٥١

- تعرَّف على النَّتائج ٥٣
- شهادة شخْص ٥٤
- الحريَّة الحقيقيَّة: عبوديَّة للمسيح ٥٥
- كل إنسان هو عبد بطريقة أو بأُخرى ٥٨
- الاختيار بين نَوْعَيْن مِن الاستعباد ٦٠
- العبوديَّة للمسيح ٦١
- عبوديَّة الحُب ٦٢
- البحث عن الحريَّة بعيدًا عن المسيح ٦٣
- حُرٌّ في المسيح ٦٤
- طريقتان للحياة ٦٦
- مُسْتَعبدين لأهوائنا لكنَّنا أحرارٌ بطريقة ما ٦٧
- متى يكون المرء حقًّا حُرًّا؟ ٦٨
- الحريَّة الحقيقيَّة تكمن في الطاعة ٦٩
- الحق يحرِّرنا ٧٠
- شهادة زوج ٧٠
- الحريَّة داخل زنزانة السِّجن؟ ٧١
- هل النُّجوم حُرَّة؟ ٧٢
- الحريَّة: نتاج الانضباط ٧٣
- كلامه يُحرِّرنا ٧٥

- قبول الحق يُحرِّرنا ٧٦
- نوعان من الحريَّة ٧٧
- أسطورة الكهف الرمزيَّة لأفلاطون ٧٨
- للحريَّة جانبان ٧٩
- الحريَّة في السَّعي نحو FOR ٨٠
- التحرُّر من الخوف من الموت ٨١
- حُرٌّ أنْ أصير ما خلقني الله لأجله ٨٢
- حريَّة مجد أولاد الله ٨٣
- الحريَّة والحق ٨٥
- التحرُّر من أجل الخدمة ٨٦
- يمكننا أنْ نكون نارًا من أجل الله ٨٧
- لديك الحريَّة أنْ تكون الرَّئيس التنفيذي لحياتك ٨٧
- مخلوقٌ لتَخضع لله ٨٨
- عبد – أجير – حُر ٨٩
- الحُب والحريَّة ٩١
- أوهام اليوتوبيا Utopianism ٩٢
- ثمن الحريَّة ٩٣
- المشاعر تَستعبد ٩٥
- مَن أَخَذ الكلب في نزهة؟ ٩٦
- الشَّهوات تصيبنا بالعمى ٩٧

- حُرٌّ لأوَّل مرَّة ٩٧
- سجن العادة ٩٩
- حُرٌّ! لكن هل تقدر أنْ تكُفَّ عن هذا الأمر؟ ٩٩
- مَثَل النَّسر ١٠٠
- الصَّوْم كوسيلة للحريَّة ١٠١
- الله يريدنا أنْ نختار الملكوت ١٠٣
- الإنسان لم يُخلَق للجحيم؟ ١٠٣
- ماذا يمنعنا من دخول الملكوت؟ ١٠٦
- حُب الأب غَيْر المشروط ١٠٧
- من أقوال الأب سلوانس ١٠٨
- "إراداتنا ملكٌ لنا... اجعلها ملكًا لك" ١١٠
- عطيَّة الله الأكثر رَوْعة للبَشَريَّة ١١١
- الحريَّة في الاتِّكال ١١٢
- الحريَّة: صندوق أدوات مقدَّم من الله ١١٣
  للوصول إلى: "اصنعها بنفسك".
- حُرٌّ أنْ ترفض الشَّيطان ١١٤
- الحريَّة كإمكانيَّة ١١٤
- تَعب الاختيار ١١٦
- المسؤوليَّة (المساءلة) المخفضة ١١٨
- جريمة أَمْ مرض؟ ١١٩
- طاعة عمياء ١٢٠

- طاعة ليست عمياء بل واعية ١٢١
- الإيمان ليس أعمى ١٢٢
- الطائفيَّة في الأرثوذكسيَّة ١٢٣
- هل كان الله "يُجَرِّب" آدم وحواء؟ ١٢٦
- «احمل سريرك وامشِ» ١٣٠
- العب أفضل لعبة ممكنة، ١٣١
بما وُزِّع عليك من أوراق اللّعب.
- وصايا الله تعمل على حماية الحريَّة ١٣٢
- الحياة تحتاج إلى قائمَي المرمى ١٣٣
- الإرادة الحرَّة والحريَّة الفرديَّة ١٣٣
- الله يدعونا للحريَّة ١٣٤
- الكلمة الطنَّانة الجديدة : "الاختيار" ١٣٥
- الخطيَّة مثل العبوديَّة ١٣٩
- لا توجد سُلطة أعلى من سُلطة الذّات ١٣٩
- العبيد الذين يَعدون الآخرين بالحريَّة ١٤٠
- الله ينقذ شعبه من العبوديَّة ١٤٢
- سَبق التَّعيين (القَدَر) ينفي الإرادة الحرَّة ١٤٤
- إله سَبْق التَّعيين (القَدَر) المزاجي ١٤٥
- عقيدة تخلق مُلْحدين ١٤٦
- لوثر وسبق التَّعيين (القَدَر) ١٤٧
- الرأي الأرثوذكسي في سَبْق التَّعيين (القَدَر) ١٤٧

- مجمع أورشليم (١٦٧٢م) حَوْل سَبْق التَّعيين (القَدَر) .. ١٤٨
- الخطيَّة هي الخطيَّة لأنَّها طوعيَّة ١٤٩
- الله يريد أنَّ الجميع يخلصون ١٥١
- رفض الإنسان حضور الوليمة ١٥١
- المجمع الثاني في Orange أورانج (٥٢٩م) ١٥٢
حَوْل سَبْق التَّعيين (القَدَر).
- عِلْم الله السَّابق (معرفة الله المُسْبَقَة) ١٥٣
- كاهنان يناقشان سَبْق التَّعيين (القَدَر) ١٥٤
- سَبْق المعرفة ليست قضاءً مُسْبَقًا ١٥٥
- الله يرانا كما لو كان مِن قمَّة جبل ١٥٥
- أنتَ لديك الصَّوْت الحاسم (الفارق) ١٥٧
- عقيدة سَبق التَّعيين ليست عقيدة كتابيَّة ١٥٨
- أقوال آباء الكنيسة عن سَبْق التَّعيين ١٥٩
- التَّنجيم ينفي الإرادة الحرَّة ١٦١
- رائج بصورة هائلة ١٦٢
- ما هي ادِّعاءات المنجمِّين ١٦٣
- التَّنجيم ليس عِلمًا ١٦٥
- أليس بلا ضرر؟ ١٦٦
- ماذا يصيب إيماننا المسيحي عندما نستشير الأبراج؟ . ١٦٨
- حماقة الأمر بجملته ١٦٨
- هل هو شيطاني؟ ١٦٩

- إخفاقاته ١٧٢
- ماذا عن المجوس؟ ١٧٣
- قوَّة الكَوْن ليست في النُّجوم بل في ابن الله ١٧٤
- أقوال آباء الكنيسة عن التَّنجيم ١٧٥
- استبدال حق الله بالكذب ١٧٥
- كبير المحقّقين يصف يسوع بالمُهَرْطِق، ١٧٧
  لأنَّه منحنا الإرادة الحرَّة.
- دوستويفسكي والإرادة الحرَّة ١٨١
- الخطية كعبوديَّة ١٨٣
- المعموديَّة: "مِن العبوديَّة إلى الحريَّة" ١٨٤
- أحرارٌ في الاستجابة لله ١٨٤
- التحرُّر من القُوَى الشيطانيَّة ١٨٦
- حُرٌّ في أنْ تقول "نَعَم" للمسيح ١٨٧
- "اختياري لكِ يعني أنِّي أقول "لا" لكل الأُخريات" ١٨٩
- الحريَّة تعني المسؤوليَّة ١٩٠
- "فات الأوان بالنِّسبة لجُو Joe! ١٩١
- مِن أجْل إطلاق المسبيِّين ١٩٢
- حريَّة مَصونة لا تُنتهك ١٩٣
- حُرٌّ أنْ تختار نَهَج الفوز ١٩٤
- السَّماح لله بمساعدتنا ١٩٥

- الضَّغط الجوِّي لمحبَّة الله ١٩٦
- قواعد المِلاحة تحرِّرنا ١٩٧
- هل الإلحاد مُحَرِّر؟ ١٩٨
- الحتميِّين (المؤمنين بالحتميَّة) ١٩٩
- الحريَّة في كلِّ شيء ٢٠٢
- أكثر قوَّة مِن الله ٢٠٣
- الابن الضَّال والحريَّة ٢٠٥
- لا أقدر أنْ أمنع نفسي ٢٠٦
- هل الجينات الوراثيَّة تحرمنا مِن الإرادة الحرَّة؟ ٢٠٩
- استعادة عطية الإرادة الحرَّة ٢١٠
- عطيَّة خطيرة ٢١٣
- عطيَّة الله تتطلَّب استجابة حُرَّة ٢١٤
- طريقة صحيحة وطريقة خاطئة ٢١٧
- اطمئن فهو لن يدعك تفلت مِن يده ٢١٧
- الإرادة الحرَّة والشَّهوات ٢١٩
- الاختلاف مع الله حَوْل الإرادة الحُرَّة ٢٢٠
- إنسانٌ حُرٌّ في المسيح، إنسانٌ مليءٌ بالبهجة ٢٢١
- الاختيار الأسمى في الحياة ٢٢٤
- طالِب بالعطايا ٢٢٥
- مسؤوليتنا ٢٢٥

لقد حرَّرك المسيح
لا تصرْ عبداً ثانية

«فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضًا بنير عبوديَّة» (غلا ٥: ١).

لم نسمع مطلقًا أحاديث عن الحريَّة أكثر مِن تلك التي نسمعها اليوم، ولم نَرَ حريَّة حقيقيَّة أقلَّ مِن التي نراها اليوم. مِن الواضح أنَّ سوء استخدام الحريَّة أصبح أحد مشاكلنا الرئيسيَّة. لقد كانت ستينيَّات القرن الماضي هي فترة إعلان أمريكا استقلالها عن الله. كانت فترة تمرُّد شامل ضدَّ الله، ضدَّ الدين، ضدَّ الحكومة، ضدَّ الأخلاقيَّات، وضدَّ أيِّ نوعٍ مِن أنواع السُّلطة.

قرأتُ مؤخَّرًا أنَّه بداية من شهر يونيو ٢٠٠٢م، ولأوَّل مَرَّة على الإطلاق يوجد ٢ مليون أمريكي خلف القضبان. واحد من كل ١٤٢ أمريكي موجود داخل السِّجن، وتلك النِّسبة هي إحدى أعلى معدَّلات المسجونين في العالم! ومِن المتوقَّع أنْ يعود إلى السِّجن أكثر من ٥٠٪ مِن الذين يُطْلَق سراحهم. في السبعينيَّات كان هناك أقل مِن نصف مليون سجين. إحدى النتائج المترتِّبة على ذلك هي أنَّنا أصبحنا مُجبَرين على زيادة الإنفاق على السِّجون مع خفض الإنفاق على المدارس.

إساءة استخدام الحريَّة هي في الواقع مشكلة مكلِّفَة.

إنَّ انتشار الإدمان يُذكِّرنا بشدَّة كم مِن السَّهل أنْ يفقد المرء حريَّته مِن خلال الاستعباد للمخدِّرات ولأشياء أخرى كثيرة.

قال الكاتب المسيحي القديم تاتيان Tatian:

"لقد دمَّرتنا إرادتنا الحرَّة، نحن الذين كنَّا أحرارًا صرنا عبيدًا".

قال أحدهم: "نحن لسنا أحرارًا، نحن أُمَّة مِن المدمنين". الكحول، الكوكايين، والمخدِّرات الأخرى كلّها تحطُّ مِن مكانة المدمنين، ليصِلوا إلى العبوديَّة الشَّديدة المُذِلَّة بدلاً مِن أنْ يكونوا بَشَرًا أحرارًا مخلوقين على صورة الله.

الإنسان يولد حرًّا، ومع ذلك فهو في سلاسل وعبوديَّة في كلِّ مكان. الشعوب في كلِّ مكان يصرخون مطالبين بالحريَّة. في أمريكا لدينا كل شيء؛ بدءًا مِن "حركة تحرير الشَّواذ" الخاصة بالجنس المِثْلي مِن الإناث والذُّكور إلى "حركة تحرير ذوي الشَّعر الشَّايب" الخاصة بالمسنِّين، بالإضافة إلى الحركة الأكثر انتشارًا وهي "حركة تحرير المرأة".

لم يكن هناك قط هذا الكم الهائل مِن الحديث عن الحريَّة، وفي نفس الوقت تكاد الحريَّة أنْ تكون منعدمة. إنَّ تلك الحركات التي نعتبرها حركات تحرير مشروعة، غالبًا ما تكون في الواقع حركات

نضال، بمعرفة أو عن جهل، نحو المزيد مِن العبوديَّة، والمزيد مِن القيود الغادرة. يحتاج البَشَر أنْ يتحرروا مِن "جنون" رغباتهم عن طريق قوَّة الله والحق الذي هو مِن عند الله.

قال الرَّب يسوع: «**تعرفون الحقَّ، والحقُّ يحرِّركم**» (يو٨: ٣٢)، وبالطَّبع، الحقُّ هو يسوع الذي هو: «**الطَّريقُ والحق والحياة**» (يو١٤: ٦).

قالت الممثِّلة السويديَّة ليف أولمان Liv Ullman التي ثارت ضدَّ الشُّعور بالذَّنب الذي طاردها في طفولتها مثل الأشباح:

"في عصرنا هذا تبدَّلت الأمور. كثيرًا ما يُقال لنا أنْ نكون أحرارًا. هناك ضغطٌ يقع علينا. لدينا الكثير مِن الخيارات حتى أنَّه في نهاية الأمر لا نجد أيَّ خيار. نحن نخسر شعورنا بالانتماء. النَّاس أصبحوا لا يؤمنون بأهميَّة الأسرة، ولا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالمستقبل، هذا النَّوْع مِن الحريَّة هو... شَبَح. إنَّه يجعلنا غير آدميين".

وبالتَّالي، دعونا نناقش موضوع الحريَّة. ما هي الحريَّة؟ كيف يمكن أنْ نكون أحرارًا بالحقيقة؟

سوف ترتكز مناقشتنا لموضوع الحريَّة على (غلاطية ٥: ١): «**فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضًا بنير العبوديَّة**».

الحريَّة لها طبيعة مقدَّسة

لماذا نحن أحرارٌ؟ نحن أحرارٌ ليس لأنَّ الدولة أو أي منظَّمة أخرى منحتنا الحريَّة. نحن أحرارٌ لأنَّنا خُلِقنا على صورة الله.

تقول كلمة الله: «**فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم**» (تك١: ٢٧).

الإنسان ليس رجلاً آليًّا، ليس ماكينة، تتحكَّم فيه قوَّة خارجيَّة مثل الدُّمية التي تتحرَّك عند لفِّ مفتاح التَّشغيل. الإنسان ليس وحشًا تقوده غريزة عمياء. الإنسان كائنٌ بشريٌّ آدميٌّ؛ إنَّه صورة الله الحيَّة بما لها مِن سلطة على اتِّخاذ القرار التي منحها له الله نفسه.

كتب نيكولاس برديف Nicholas Berdyaev الفيلسوف واللاهوتي الروسي الأرثوذكسي:

"الله يكون حقًّا موجودًا ومؤثِّرًا فَعَّالاً، فقط، في (وجود) الحريَّة. الحريَّة ينبغي أنْ تُمَيَّز باعتبار أنَّ لها طبيعة مقدَّسة".

أضاف سورين كيركجارد Soren Kierkegaard:

"أروع شيء مُنِحَ للبشر هو الاختيار، الحريَّة".

الحريَّة هي العطيَّة العظيمة مِن الله الذي خلقنا. لكن مجرَّد أنْ ينسى الإنسان الله، على الرغم مِن أنَّه يفعل ذلك باسم الحريَّة، إلاَّ أنَّه

يشرع في بناء عبوديَّته الخاصَّة. عندما يُنكَر وجود الله، لا يكون هناك وجود للحريَّة. عندما يُهدَم أساسها فلابد أنْ تنهار؛ تلك هي الكارثة الكبرى.

قُدْرتنا على تَقرير المَصير

قال اللاَّهوتي راينهولد نايبور Rheinhold Neihbur:

"المَصدر الرئيسي لكرامة الإنسان هو الحريَّة الإنسانيَّة، والقدرة على تقرير المَصير".

يضيف الأب جون ميندورف Fr. John Meyendorff:

"الإنسان خُلِقَ حرًّا ومسؤولاً ولا يقدر أحد أنْ ينزع هذه الحريَّة منه. العديد مِن آباء الكنيسة وعلى سبيل المثال الأب غريغوريوس Saint Gregory Palamas، قد شرحوا بالتَّفصيل فكرة أنَّ الإنسان أخذ صورة الله عندما خُلِقَ؛ هذه الصُّورة تتضمَّن الحريَّة والإبداع. الاختلاف بين الإنسان والحيوان ليس اختلافًا بيولوجيًّا. إنَّه الاختلاف بين كائن لديه حريَّة اتِّخاذ القرار، حريَّة تقرير مصيره، وكائن يتحدَّد وجوده مسبقًا على نحوٍ قاطع بواسطة البيئة المحيطة بوجوده البيولوجي. ما يجعل الإنسان "إنساناً" هو حقيقة أنَّه يقدر أنْ يلتزم إلى أبعد الحدود، بحريَّة كاملة ومسئوليَّة كاملة، بما يؤمِن به. هذه الحريَّة

هي عطيَّة إلهيَّة، على وجه التَّحديد لأنَّها صورة الله فينا. إنها إلهيَّة، ليست بشريَّة، ليست طبيعيَّة، ولا مخلوقة. في مفهوم الكنيسة، هذه الحريَّة الكاملة توجد فقط عندما ينعكس صلاح الله فينا. الإنسان الذي يتخلَّى عن حريَّته أو الإنسان الذي يتخلَّى عن علاقته مع الله لم يعُد حرًّا".

كما كتب الأب ميندورف Fr. Meyendorff في كتاب آخر:

"الفداء ليس هو فقط الغفران السَّلبي للخطايا، بل هو أيضًا وفي المقام الأوَّل، حريَّة جديدة لأولاد الله في شركة آدم الجديد".

الخلاص يحرِّرنا من عبوديَّة الخطيَّة، ويمنحنا حريَّة جديدة في المسيح، حريَّة بها نختبر: «**حرية مجد أولاد الله**» حسب تعبير القدِّيس بولس الرَّسول (رو٨: ٢١).

بالنِّسبة للقدِّيس غريغوريوس النيصي St. Gregory of Nyssa والقدِّيس مكسيموس المعترف St. Maximus the Confessor، الحريَّة هي العنصر الجوهري في تشابه الإنسان بالله.

عصيان الإنسان لله حرمه من الحريَّة، جعله "عبدًا" للـ "جسد"، للفساد، والخطيَّة، والموت. جاء مخلِّصنا يسوع المسيح ليطلق سراحنا من هذه العبوديَّة، ليحرِّرنا ثانية. ومن أجل ذلك، دَفع ثمنًا

باهظًا جدًّا: الموت على الصَّليب. يقول القدِّيس بولس: «**لأنَّكم قد اشتُريتم بثمن، فمجِّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله**» (١كو٦: ٢٠).

قال الرَّب يسوع: «**روح الرب عليَّ... أرسلني... لأنادي للمأسورين بالإطلاق... وأُرسل المنسحِقين في الحريَّة**» (لو٤: ١٨).

مَن هم المأسورون الذين يتحدَّث عنهم يسوع؟ هؤلاء المأسورون والمنسحقون هُم أنتَ وأنا. عندما سُئل ج. ك. شيسترتون G.K. Chesterton "ما هو الخلل الذي حلَّ بالعالم؟ " أجاب " أنا".

كتب كليمنضس Clement of Alexandria الإسكندري:

[الخضوع لرغبات الجسد والاستسلام لها هو أكثر أشكال العبوديَّة تطرُّفًا. إبقاء هذه الرَّغبات تحت السَّيطرة هو الحريَّة الوحيدة الحقيقيَّة].

يضيف يوحنا John of Apamea: مِن أجل أنْ يكون المرء حقًّا حرًّا، ينبغي أنْ يُحرِّر ذاته مِن كل أنواع العبوديَّة المدمِّرة، أنْ يطرح عنه كل ما أسماه بوضوح "نير العالم".

القدرة على تحقيق ذلك التحرُّر تأتي مِن عند مخلِّصنا وفادينا يسوع. الذي أتى: «**لينادي للمأسورين بالإطلاق ويُرسل المنسحقين في الحريَّة**».

الصِّفَة التي ينفرد بها البَشَر

الصِّفَة التي ننفرد بها نحن البَشَر هي أنَّنا على عكس كلّ المخلوقات الأخرى نقدر أنْ نقول "نعم" و"لا" لله. الإنسان لا يعمل بالضَّرورة إرادة خالقة. على عكس النجوم والحيوانات، الإنسان يقدر أنْ يرفض طاعة خالقه. لقد خُلقنا بهذه الطريقة لأنَّ الله لا يريدنا أنْ نكون عبيدًا، بل أولادًا وبنات له. قال دوستويفسكي Dostoevsky: إنَّ رغبة الإنسان أنْ يكون حرًّا هي مِن القوَّة بحيث أنَّه سيفعل الشَّيء الخطأ عمدًا لإثبات ذلك. وكتب:

"مِن منطلق العقوق المطلَق، يدبِّر لك المرء مكيدة دنيئة ليثبت أنَّ البَشَر لا يزالون بَشَرًا وليسوا مفاتيح البيانو".

أضاف نيكولاس بيرديف Nicholas Berdyaev ببصيرة نافذة:

"الطُّغاة والمستبدُّون يرفضون حريَّة الآخرين، لكن يحبُّون الحريَّة لأنفسهم، ودائمًا يتمسَّكون بها لرفاقهم وكل مَن لهم صِلة بهم؛ لكن الذي يحب الحريَّة حقًّا هو ذاك الذي يؤيِّد حريَّة الآخرين".

الخلاص ينطوي على الإرادة الحُرَّة

يبدأ الخلاص بفعل الإرادة، حيث تُسَلِّم الإرادة نفسها للإرادة الإلهيَّة.

«**لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض**»، هـذه هي بداية عملية الخلاص (Soteria). يقول الأب بطرس الدِّمَشقي:

"**الاختيار الحُر هو بداية الخلاص**"، ويكمل "**هذا الاختيار يتمثَّل في تخلِّي الإنسان عن إرادته وأفكاره الخاصَّة ليعمل إرادة وأفكار الله**".

قال الرَّب يسوع:

«**لأنِّي قد نـزلتُ من السَّماء، ليس لأعمل مشيئتي، بـل مشيئة (الآب) الذي أرسلني**» (يو٦: ٣٨).

الله لا يجبرنا أنْ نوجِّه إرادتنا نحوه. هذا يكون فعلاً اختياريًّا تمامًا للإرادة البَشَريَّة. الإنسان يحتاج في حالة سقوطه إلى نعمة الله، لتُقوِّي مَيْل إرادته، واتِّجاهها نحو الله؛ إلاَّ أنَّ الفعل المبدئي للتحوُّل من الخطيئة والذَّات إلى الله، لابدَّ أنْ يأتي من الإنسان.

اتَّخذ خطوة واحدة نحو الله، وسيتَّخذ الله عشر خطوات نحوك. لكن هذه الخطوة الأولى مصيريَّة. الله لن ينتهك حريَّتنا. الله يؤيِّد (حريَّة) الاختيار فهو يقول: «**قد جعلتُ قدَّامك الحياة والموت... فاختر الحياة**». (تث٣٠: ١٩). تأييد الاختيار هو تأييد الحياة.

الحريَّة المطلقة (بلا قيود) تُهَدِّد بتدميرنا

في هذا العصر علَّمتنا العَلمانيَّة أنْ نحتقر الله ونمجِّد "الاختيار"

باعتباره المعيار الأخلاقي الوحيد. معنى "الاختيار" بالنِّسبة لهم هو عدم طاعة الله بل عصيانه، نوطِّد أنفسنا كآلهة لنفعل ما يحلو لنا؛ إلاَّ أنَّ هذا الطَّريق لا يؤدِّي إلى الحريَّة بل إلى العبوديَّة. اليوم نحن نصارع مِن أجل تحقيق الديمقراطيَّة في العالم الإسلامي. نحن نأمل أنْ نجعل الحريَّة جذَّابة بالدَّرجة التي تجعل بلدانًا إسلاميَّة أُخرى تختارها، إلاَّ أنَّ العَلمانيِّين الغربيِّين شوَّهوا الحريَّة البَشَريَّة لدرجة أنَّ المتطرِّفين المسلمين المتعصِّبين (الأصوليِّين)، عندما يَرَوْنَ ما آلت إليه الحريَّة في الغرب، فإنَّهم يصبحون أكثر تطرُّفًا. ما نعرضه عن الحريَّة يبدو لهم ضدَّ إرادة الله Allah بصورة كريهة: عبث في التلفاز، إباحيَّة في الإنترنت، أطفال تُقتل قَبْل الولادة، زواج مِن نفس الجنس في المدن الأمريكيَّة؛ تلك الحريَّة التي بلا قيود تُهَدِّد الآن بتدميرنا.

يؤكِّد صمويل هنتنجتون Samuel Huntington الأستاذ في جامعة هارفارد بأمريكا في كتابه "صراع الحضارات، أو صدام الحضارات The Clash of Civilizations" أنَّ العالَمَ لا ينقسم بالحدود الجغرافية بقدر ما ينقسم بسبب الاختلافات الدينيَّة، كما قال إنَّه يتنبَّأ بوقوع صدام قوي في القرن الواحد والعشرين بين الإسلام والغرب.

الإرادة الحُرَّة كانت قصد الله

الإرادة الحرَّة كانت قصد الله. الله أعطاها لنا حتى نختار إرادته

بحريَّة فنحيا. يسأل فلاديمير لوسكي Vladimir Lossky:

"لماذا... خلق الله الإنسان حرًّا ومسؤولاً؟ على وجه التَّحديد لأنَّه كان يريد أنْ يدعوه إلى دعوة عليا: التألُّه deification".

خدمة الله هي الحريَّة الكاملة، ولا يوجد طريق آخر يؤدِّي لتلك الحريَّة الكاملة سوى مِن خلال خدمة الله.

عندما يعطينا الله إرادة حرَّة، فإنَّه لا يمزح أو يجري علينا تجارب؛ إنَّه يريدنا أنْ نستخدم إرادتنا الحرَّة بشكل صحيح. الله يريدنا أنْ نختار الحياة وليس الموت. إنَّه يريدنا أنْ نُسَلِّم له حياتنا بحريَّة ونتخلَّى عن ذواتنا حتى يكون لنا ملء الحياة وليس الموت. هذه الدَّعوة إلى الحياة توجَّه لنا باستمرار في صلواتنا أنْ: "نسلِّم ذواتنا وبعضنا البعض وحياتنا بالكامل للمسيح إلهنا".

الله يحترم الإرادة الحُرَّة

خلق الله أولادًا وبنات، ليس عبيدًا ولا أناسًا آليِّين robots. على هذا النحو، فإنَّ الله يحترم حريَّة الإنسان بشدَّة. تستخدم الأرثوذكسيَّة تعبير synergy أي التآزر، لوصف العلاقة بين الله والإنسان. هذا التَّعبير مأخوذٌ مِن كلمات بولس الرَّسول: «**فإنَّنا عاملان مع الله**" (١كو٣: ٩).

يقول الرَّب: «**هأنذا واقف على الباب وأقرع. إنْ سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشَّى معه وهو معي**» (رؤ٣: ٢٠). الله يقرع، إنَّه يحترم حريَّتنا. ينتظر حتى نفتح له. فهو لا يقتحم الباب. لابدَّ أنْ نفتح له فيدخل.

كَتَبَ الأب ليف جيليه Fr. Lev Gillet يقول:

"**اندماج الإنسان في المسيح واتِّحاده بالله، يتطلَّبان تعاونًا بين قوَّتين غير متكافئتين، ولكنَّهما ضروريَّتان على حدٍّ سواء: النِّعمة الإلهيَّة والإرادة البَشَرِيَّة**".

النِّعمة الإلهيَّة تَقرع، الإرادة البَشَرِيَّة تفتح. هل يوجد عدم مساواة أكثر مِن تلك التي توجد بين النِّعمة الإلهيَّة والإرادة الحُرَّة؟ إلاَّ أنَّ كلتيهما ضروريَّتان. الخلاص يتكوَّن مِن ٩٩,٩ ٪ عمل الله و٠,١ ٪ المجهود الذي نبذله عندما نفتح الباب لنسمح له بدخول حياتنا.

يشرح الأب جوردان باجيس Fr. Jordan Bajis هذا الأمر كما يلي:

"**التآزر Synergy ليس كما لو كان الله يقوم بنصف العمل الخلاصي ونحن نقوم بالنِّصف الآخر. الله يقوم بالعمل كله. المسيح وحده يُخلِّصنا... الله يُخلِّصنا ١٠٠٪، لكن حتَّى نختبر فداءه ينبغي أن نكون على استعداد للاستجابة له ١٠٠ ٪**".

وبحسب كلمات القدِّيس بولس الرَّسول: «**لأنَّ الله هو العامل فيكم أنْ تريدوا وأنْ تعملوا مِن أجل المسرَّة**» (في٢: ١٣).

والدة الإله كان في إمكانها أنْ تَرفض

أعظم مثال لهذا التآزر Synergy هو والدة الإله. كتب الأب نيكولاس كاباسيلاس Fr. Nicolas Cabasilas في عظته "الثيئوتوكوس The Theotokos" التي كان يتحدَّث فيها عن البشارة:

> **"التجسُّد لم يكن فقط عمل الآب، بقوَّته وبروحه، لكنَّه كان أيضاً عمل إرادة وإيمان السيِّدة العذراء. بدون قبول العذراء الطَّاهرة، وبدون موافقة إيمانها، لكانت الخطَّة غير قابلة للتحقُّق مثلما كانت غير قابلة للتحقُّق بدون تدخُّل الأقانيم الثَّلاثة. لم يتَّخذها أُمًّا له ويقترض منها الجسد الذي سُرَّت جدًّا أنْ تقرضه له، إلاَّ بعد أنْ فسَّر لها وأقنعها. تمامًا مثلما تجسَّد طوعًا، كذلك رغب أنْ تحمله أُمّه بدون إجبار وبرضاها الكامل".**

كان في إمكان والدة الإله أنْ ترفض. الله لا يقتحم الأبواب.

في شخص العذراء، أعطت البَشَريَّة موافقتها للكلمة أنْ يصير جسدًا ويأتي ليسكن بيننا، لأنَّ الله لم يرغب أنْ يُخلِّصنا مِن دون

إرادتنا، وهو لا يقدر أنْ يُخلِّصك مِن دون قبولك الحُر. كما قالت والدة الإله "نعم" لله، كذلك نحن في حاجة أنْ نقول "نعم" له حتى يأتي ويسكن فينا.

"أعلن الملاك جبرائيل هذا الاختيار للعذراء مريم، إلاَّ أنَّ مريم كانت لا تزال حرَّة أنْ تَقبل أو أن ترفض. تاريخ العالم بأسره، تنفيذ الخطَّة الإلهيَّة كلها، كانا متوقِّفَيْن على هذه الاستجابة البَشَرِيَّة الحُرَّة. قبول العذراء المتواضع سمح للكلمة أنْ يصير جسدًا... حريَّتها الشخصيَّة في النّهاية كانت في أنَّها سلَّمت جسدها، طبيعتها البَشَرِيَّة، لعمل الخلاص الضَّروري. الأقنوم الثَّاني في الثَّالوث القدوس استطاع أنْ يدخل التَّاريخ، ليس عن طريق ظهور قاسٍ يظل فيه الإنسان مجرَّد أداة، وليس عن طريق وضع العذراء جانبًا بمعزل عن ذريَّة آدم، لكن عن طريق موافقة، وجدت فيها أخيرًا التَّربية الإلهيَّة divine pedagogy الدَّائمة مكافأتها".

كتب القدِّيس مار إسحق أسقف نينوى St. Isaac of Nineveh يقول:

"بسبب حبّه العظيم لنا، كان مِن دواعي سرور الله ألاَّ يؤذي حريَّتنا، مع أنَّه كان لديه القدرة أنْ يفعل ذلك. لقد تركنا لنأتي

إليه بواسطة محبَّة قلوبنا فقط".

يضيف بول إفدوكيموف Paul Evdokimov ويقول:

"بحسب أقوال الآباء، الله يقدر أنْ يفعل كل شيء ماعدا أنْ يجبرنا على محبَّته... في انتظاره لنا نحن أحباءه، يتنازل الله عن قدرته الكليَّة ويخلي ذاته (kenosis) مثل "الخروف الذي ذُبِح منذ تأسيس العالم". مصيره بيننا يتوقَّف على قرارنا، على إجابتنا بـ "نعم"".

في الواقع، الله جعل نفسه معتمدًا على خيارنا الحُر. هذا هو القَيْد الذَّاتي الذي فرضه الله على نفسه.

الحَبَل بلا دَنَس وإرادة العذراء مريم الحُرَّة

الكنيسة الأرثوذكسية تؤمن أنَّ والدة الإله الثيئوتوكوس طاهرة، لكنَّها لا تؤمن بأنَّ العذراء حُبِل بها بلا دنس (دون وصمة الخطيئة الأصليَّة)، أي أنَّ ذلك حدث بينما كانت لا تزال في رحم أمِّها. هذا الأمر يتعارض مع اختيارها الحُر ويُبطل مبدأ التآزر synergy. لم يحدث أنَّ الله لم يكترث أنْ يسأل مريم عمَّا إذا كانت ترغب في عمل مشيئته، وإلاَّ يكون هذا كأنَّه يفرض نفسه عليها، وهذا سيكون بمثابة شكل من أشكال سبق التَّعيين predestination الذي دائمًا ما ترفضه الكنيسة الأرثوذكسيَّة.

الكنيسة الأرثوذكسيَّة تؤمن أنَّ مريم العذراء صارت بلا دنس، ليست في رحم أمِّها، ولكن عند البشارة بعد أنْ أجابت بـ "نعم" لمطلب الله، وقالت: «**ليكن لي كقولك**»، فصارت قناة أو إناءً نقيًّا، يولَد منه ابن الله الكلِّي النَّقاء.

ولذلك فإنَّ عقيدة الحبل بلا دنس التي تؤمن بها الكنيسة الكاثوليكيَّة تنفي إرادة العذراء مريم الحُرَّة، حيث لن يكون في مقدرتها أنْ تجيب بـ "نعم" أو "لا" لله حين كانت لا تزال في رحم أُمِّها. العقيدة الأرثوذكسيَّة تعترف أنَّ مريم العذراء صارت بلا دنس بعد أنْ وافقت على الانصياع لإرادة الله. هذه العقيدة تدلُّ على احترام الله الكامل والدائم للإرادة الحُرَّة التي أعطانا إياها (لو١: ٢٦-٣٨). هذا يعتبر مثالاً عظيمًا للتآزر.

الله لا يفرض سلطانه علينا

الله يحترم إرادتنا الحُرَّة جدًّا لدرجة أنَّه لا يفرض سلطانه علينا بأيِّ طريقة مِن شأنها أنْ تعيق أو تسلب حريَّة استجابتنا له. الله حُرٌّ أنْ يفعل كل شيء ماعدا أنْ يجبرنا على حبِّه. لو كان قد جاء إلى العالم في صورة الإله الكلِّي السُّلطة الكلِّي القدرة لكان مِن المستحيل رفضه. لماذا؟ لأنَّه كان سيفرض سلطانه علينا. لذلك

أتى كطفل لا حول له ولا قوَّة مولود في مذود. هل كان سيخطر على بالِ أحد أنَّ هذا الطفل الضَّعيف يتجسَّد فيه الأقنوم الثَّاني في الثَّالوث القدُّوس!

يكتب القدِّيس بولس الرَّسول عن الرَّب يسوع:

«الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب»

(في٢: ٦-٨).

الله هو سيِّد الكون، لكن طريقته في دخول العالم وفي اقترابه منَّا ليست طريقة سيِّد مِن الأسياد. اللَّحظة التي ينزل فيها إلى الأرض يصبح ضعيفًا وغير محصَّن ضدَّ تجارب العالم. يبدو الأمر كأنَّه أخلى نفسه مِن قدرته الكليَّة. إنَّه لا يريد أنْ يفعل أي شيء مِن شأنه إهارنا فنؤمن به نتيجة لهذا الانبهار، ولهذا السَّبب كان كثيرًا ما يطلب مِن تلاميذه ألاَّ يخبروا الآخرين عن معجزة صنعها وهم كانوا شهودًا عليها. إنَّه يريد استجابتنا بكامل حريَّتنا. الله لا يستخدم أيَّ إلزام سوى إلزام الحُب، ولا يتوق إلى أيِّ خضوع سِوَى خضوع القلب المُحِب.

يقول جون بولكينجهورن John Polkinghorne:

"إله المحبَّة ليس سيِّد الكون الذي يجذب خيوط العرائس المتحرِّكة في عالم خاضع له بالتَّمام"

المَلِك المُتنكِّر

يحكي لنا الفيلسوف واللاَّهوتي الدانمركي سورين كيركجارد Soren Kierkgaard قصَّة المَلِك الشَّاب الذي كان قد اكتشف بين سكَّان مدينته مِن الفلاحين امرأة جميلة تمنَّى أنْ يتزوَّجها. نَصَح المستشارون الملك أنْ يبدأ في التودُّد للعروس المرتَقَبة بأنْ يرتدي أجمل رداء عنده ويذهب في موكب فخم لزيارة الحي المتواضع الذي تقطنه. رَفَض المِلك. بدلاً مِن ذلك اقترب مِن الفتاة الشابَّة متنكِّرًا في زيِّ عامل بسيط مِن عامَّة الشَّعب. لقد أراد أنْ يترك لها الحريَّة في أنْ تقبله أو ترفضه، وعندئذ فقط يكون حبُّها له حقيقيًّا.

هذا يبرهن على احترام الله الشَّديد للإرادة الحُرَّة التي منحها لنا. لقد أتى إلى العالم كابن لنجار. الأمر يحتاج للإيمان والاختيار الحُر لنؤمن أنَّ ابن النجار هذا هو الله، الأقنوم الثَّاني في الثَّالوث القدُّوس. وهو مازال يأتي إلينا في الإفخارستيَّا المقدَّسة في صورة الخبز والخمر المتواضعة.

الله يأتي إلينا، ليس كإله كلّي القدرة يَسحق إرادتنا الحُـرَّة بل كخادم أو عبد، غير محصَّن بالمَرَّة، باحثًا عن استجابة حُرَّة من مخلوقاته. إنَّه لن يفرض نفسه على أيِّ شخص. إذا كنتَ تحـاول الهروب من الله، سوف يتركك ولن يمنعك من الهرب. إذا كنتَ لا تذهب إلى الكنيسة ولا تقرأ الكتاب المقدَّس، فإنَّك بذلك تجعـل الوصول إليك صعبًا بالنِّسبة له، لكنه سيستخدم وسائل أخـرى. من الممكن أنْ يستخدم تجاربك في الحياة ليصل بها إليك؛ مثـل المرض أو الإخفاقات. وقد يستخدم أصدقاءك أيضًا ليصل إليك. يجب علينا ألاَّ ننسى أنَّ الله خبير استراتيجي بارع كما قال عنـه C.S. Lewis، لكن سيحترم الله حقك إلى المنتهى في أنْ تجـري بعيدًا عنه أو تجري معه.

كتب الأب جورج فلوروفسكي Fr. George Florovsky:

"الله لا يقتحم مستخدمًا العنف. الله يحترم، حسب تعبير القديس إيريناؤس St. Iranaeus of Lyons: "القانون القديم للحريَّة البَشَرِيَّة، الذي أجازه هو ذاته". مَّما لا شكَّ فيه، بدون الله، بدون المسيح، لا يقدر الإنسان أنْ يفعل شيئًا. ومع ذلك، يوجد شيءٌ واحدٌ لا يقدر أنْ يقوم به أحد سِوى الإنسان – وهو الاستجابة للنِّداء الإلهي وقبول المسيح. وهذا ما يفشل فيه الكثيرون".

ومع ذلك، أليس هذا تحديدًا هو السَّبب الذي منحنا الله مِن أجله الإرادة الحُرَّة: أنْ نختاره بدون إجبار فنحيا.

مخاطر الإرادة الحُرَّة

بالطَّبع، كان هناك مخاطر مرتبطة باختيار الله أنْ يمنحنا الإرادة الحُرَّة. لأنَّ الإرادة الحُرَّة هي التي تجعل في الإمكان الوقوع في الخطيئة والشَّر. أسوأ شيء في الوجود — الخطيئة — ينتج عن أعظم عطيَّة منحها الله لنا: الإرادة الحُرَّة. لِمَ تحمَّل الله هذه المخاطر؟ لماذا نتحمَّل نحن نفس هذه المخاطر؟ أَلاَ يواجه الوالدان نفس الخطورة عندما ينجبان طفلاً في هذا العالم؟ لنفترض أنَّ هذا الطِّفل انحرف في طريق خاطئ، لنفترض أنَّه عندما يكبر يصبح مثل هتلر أو ستالين أو صدَّام حسين، سوف يكسر قلب والديه.

إذن لماذا ينجب الآباء؟ لأنَّ الحُب يحتاج إلى وجود كيان يغمره بهذا الحُب ويحبُّه في المقابل، يبادله الحُب، والله محبَّة . عبَّر سي. إس. لويس C.S. Lewis عن هذا الأمر كما يلي:

"بعض النَّاس يمكنهم أنْ يتخيَّلوا وجود مخلوق حُر، لكنَّه ليس لديه إمكانيَّة الوقوع في الخطأ؛ أمَّا أنا فلا أقدر أنْ أتخيَّل ذلك. إذا كان الإنسان حرًّا في أنْ يكون صالحًا، فهو أيضًا حُرٌّ في أنْ يكون شريرًا، والإرادة الحُرَّة هي التي جعلت الشرَّ ممكنًا. لماذا

إذن منحهم الله إرادة حُرَّة؟ لأنَّ الإرادة الحُرَّة على الرغم مِن أنَّها تجعل الشرَّ ممكنًا إلاَّ أنَّها أيضًا هي الشيء الوحيد الـذي يجعل أيَّ حُب أو صلاح أو فرح يستحق الاقتناء. إنَّ عالمًـا تعيش فيه مخلوقات آليَّة (تعمل مثل الماكينات) بالكاد يستحق الخلق".

على الرَّغم مِن أنَّ الإرادة الحُرَّة هي التي تجعل الشرَّ ممكنًا، إلاَّ أنَّها أيضًا هي الشيء الوحيد الذي يجعل أي حب وأي خـير وأي فرح يستحق الاقتناء. عالم يعيش فيه أناس آليُّون – أو دُمًى تعمل مِن خلال لفِّ المفتاح والزَّمبلك – بالكاد يستحق الخَلـق، لأنَّهم لا يمكنهم أنْ يُحِبُّوا ولا أنْ يختاروا أنْ يُتمِّمـوا إرادة الله بحُرِّيَّة.

وبالتالي فقد كتب C.S. Lewis:

"السَّعادة التي يقصدها الله لمخلوقاته الأسمى هي السَّعادة الكائنة في الاتِّحاد بالله وبالآخَرين، طوعًا بدون إجبـار وسط نشوة الحُب والبهجة التي إذا قورن بهـا الحُـب الأكثر إثارة على هذه الأرض، يكون هزيلاً ومُملاً".

لهذا ينبغي أنْ نكون أحرارًا. ومع ذلك فإنَّ إساءة اسـتخدام هذه الحريَّة جعل الجنس البَشَري مُفزعًا لله ولنفسه بسبب الحـروب، العبوديَّة، الفقر، الدِّعارة... الخ. هذا ما يسميه C.S. Lewis: "القصَّة

الطَّويلة الرَّهيبة التي تدور حول محاولة الإنسان العثور على شيء يجعله سعيدًا غير الله".

يستخدم جون م. بشانان John M.Buchanan، رئيس تحرير وناشر مجلَّة Christian Century، المثال التالي ليشرح كيف يعطينا حُب الله العجيب الإرادة الحُرَّة بالرَّغم من المخاطرة المرتبطة بذلك:

"كنتُ أراقب ابنتي وزوجها وهما يقومان بترتيبات دخول ابنتهما الكليَّة. كانت أحداثًا دراميَّة مؤثِّرة. هذان الوالدان يُحبَّان مولودتهما الأولى حبًّا شديدًا حتى إنَّهما سيفعلان أمرًا شديد الغرابة؛ سيسمحان لها بالرَّحيل، سيأخذانها إلى الكليَّة في ولاية أخرى، سيساعدانها في إيجاد مسكن هناك، بل ربَّما سيرتِّبان لها سريرها الجديد، ثم بعد ذلك سيستقلاَّن السيارة ويغادران تاركَيْن ابنتهما وحدها، لكنَّها لن تكون في الواقع وحدها، سيبقى حبُّهما معها، وفي يوم من الأيام سوف تفهم أنَّ تركهما لها لم يكن تركًا بل كان تعبيرًا عميقًا عن حبِّهما لها.

إنَّهما يواجهان حقيقة لاهوتيَّة عميقة على الرَّغم من عدم إدراكهما لذلك. أفضل شيء يمكن أنْ يُقَدِّمه الحُب هو عطيَّة الحريَّة. إنَّها لا تخلو من الألم ولا من المخاطر. لكنَّ الحُب الحقيقي لا يقيِّد، يبتعد، يستقل السَّيارة ويغادر، ويتيح لطفلته

الحبيبة الحُرِيَّة اللاَّزمة لشخصيَّتها الأصيلة مع كل مـا يحملـه ذلك مِن مخاطر".

التَّقييد الذَّاتي الإلهي

عندما منحنا الله الإرادة الحُرَّة، اختار أنْ يضع لذاتـه قَيْـدًا. الأسقف كاليستوس وير Bishop Kallistos Ware يـصف المعـنى الأعمق للتَّقييد الذاتي الإلهي كما يلي:

"خَلَق الله في العالم أشخاصًا لديهم القدرة على الاستجابة لـه بدافع الحُب دون إجبار، بذلك يكون الله قد قَبِل أنْ يُقَيِّد، إلى حدٍّ ما، ممارسة قدرته الكليَّة. لقد "انسحب"، إنْ جاز التَّعـبير مِن وسط خليقته، حتى "ينأى" بنفسه، ويفسح المجال لخليقتـه لتُحِب...

حتمًا، تحمَّل الله المخاطرة، لكن لولا أنَّه تحمَّل هذه المخـاطرة لكان الكون خاليًا مِن الحُب، كما يذكر فلاديمـير لوسـكي Vladimir Lossky عندما يقول: "هذه المخـاطرة الإلهيَّـة، المتأصِّلة في قرار خَلق كائنات على صورة الله ومثاله، هي قمَّة السُّلطة الإلهيَّة غير المحدودة، أو بالحري تفوَّقت وتجاوزت تلك القمَّة مِن خلال القبول الطَّوعي للضّعف... الذي لا يتحمَّـل المخاطر لا يُحِب".

تحمُّل المخاطر من جانب الله، بدأ في الخَلق وظهر في أكمل تعبير له في التجسُّد...

الله أراد أنْ يتمِّم خلاصنا، ليس من خلال ممارسة قوَّة عُليا، لكن من خلال ضعفه التَّام في حالة التجسُّد: «قوَّتي في الضعف تُكْمَل» (٢كو ١٢: ٩). تلك هي تحديدًا المفارقة العليا في الـ Christology: الله يكون أشدَّ قوَّة عندما يكون في منتهى الضّعف، تكون ألوهيَّته أكثر صدقًا عندما يخلي ذاته. رأى ذلك القدِّيس غريغوريوس النِّيصي بوضوح فقال:

[حقيقة أنَّ الطَّبيعة كليَّة القدرة تصير قادرة على النزول إلى حالة البَشَريَّة الذليلة، هذا يُقدِّم دليلاً على قوَّته أوضح من المعجزات العظيمة الخارقة (التي هي فوق الطَّبيعة). نزوله إلى حالتنا الحقيرة هو أسمى تعبير عن قوَّته]".

وبالتَّالي، في هذا العالم، فإنَّ معرفة الله وقوَّته محدودتان، ليس لأنَّ الله محدودٌ في جوهره، لكن على الأصح لأنَّ الله اختار أنْ يُقيِّد ذاته.

لماذا القُدرة على الاختيار؟

سأل طالب أستاذه: "إذا كان الله على دراية مُسْبَقَة أنَّ البَشَر سيخطئون، لماذا أعطانا القدرة على الاختيار؟" نظر الأستاذ في عينيه وأجاب: "من الواضح أنَّ الله كان يعتقد أنَّك تستحق المخاطرة".

هكذا اختار الله أنْ يخلق عالَمًا تكون فيه الفضيلة قائمة على الحُريَّة.

الرَّجُل في إمكانه أنْ يكون بطلاً فقط في ساحة المعركة، حيث يمكن أنْ يكون أيضًا جبانًا. في إمكانه أنْ يكون قدِّيسًا فقط في عالم مِن الممكن أنْ يكون فيه شيطانًا أيضًا. في إمكانه أنْ يكون تلميذًا ليسوع فقط في الموقف الذي يمكنه أنْ يكون فيه يهوذا. حيث لا حُريَّة لا فضيلة. حيث لا حُريَّة لا يوجد هناك حبٌّ حقيقيٌّ.

هناك مَن يتساءلون: "لماذا لا يمحو الله الطُّغاة مِن على وجه الأرض؟" الله يقدر أنْ يبيد الطُّغاة مِن العالَم، وكل الخطاة الآخرين أيضًا، بما في ذلك كل واحد منَّا لأنَّنا كلَّنا خطاة. ألسنا نحن جميعًا طغاة مستكبرين كلٌّ بطريقته الخاصَّة؟ الله يقدر أنْ يُدمِّر هؤلاء الطُّغاة، لكن بشرط أنْ يُدمِّر الحريَّة التي منحها لنا. لكن إذا دمَّر الله الحريَّة، سيكون لدينا طاغية واحد كبير في السماء بدلاً مِن كلِّ الطغاة الآخرين الموجودين على الأرض؛ والله ليس بطاغية. حالما يمنح الله الحُريَّة فهو لا يستردُّها أبدًا، هذا هو السَّبب في أنَّ الجحيم لا نهاية له (أبدي).

الإرادة الحُرَّة والجحيم

الجحيم هو توكيد على الحريَّة البشريَّة، المكان الذي سيظل

الإنسان يتحدَّى فيه الله إلى الأبد قائلاً له: "لن أخدمك، لن أطيعك، لن أحبَّك".

كتب توماس ميرتون Thomas Merton:

"هؤلاء الذين يذهبون إلى الجحيم إنَّما يفعلون ذلك باختيارهم، وضدَّ إرادة الله. إنَّها إرادتهم التي تقودهم إلى هناك، وليست إرادة الله. الله يُصدِّق فقط على قرارهم- القرار الذي كان متروكًا تمامًا لاختيارهم".

الإرادة الحرَّة هي السَّبب المقنِع الوحيد لوجود الجحيم. يقول بيتر كريفت Peter Kreeft:

"فتِّش في الحريَّة ستجد الجحيم... أودُّ أنْ أدفع أي ثمن مقابل أنْ أكون قادرًا أنْ أقول بصدق "الجميع سيخلصون". لكن عقلي سيردُّ بحسم: "دون إرادتهم أم بإرادتهم؟""

صحيح أنَّ الله يغفر الذُّنوب كلّها لو قدَّمنا توبة صادقة، والله سيغفر. أنْ يرفض الإنسان الغفران، فهذا هو الجحيم . يقول ج. ك. شسترتون G.K. Chesterton:

"الجحيم هو نتيجة حقيقيَّة للحريَّة البَشريَّة وكرامة الاختيار البَشَري".

يضيف الأسقف كاليستوس وير Bishop Kallistos Ware:

"لو أزلتَ الجحيم فإنَّك تُنكر الحريَّة. لا يمكن أنْ يُجبَر أحد على دخول الملكوت ضدَّ إرادته. كما يُعَبِّر اللاَّهوتي الرُّوسي بول إفدوكيموف Paul Evdokimov: "الله يقدر أنْ يفعل أي شيء ماعدا أنْ يُجبرنا على حبِّه، لأنَّ الحُب يكون بدون إكراه، وبالتالي حيث لا توجد حريَّة الاختيار لا يوجد حُب"".

كما يحذِّرنا أيضًا من نقطة اللاَّعودة:

"الله لا يحرم المدانين (المحكوم عليهم بالهلاك) من حريَّتهم، إلاَّ أنَّ سوء استخدامهم للحريَّة في نهاية المطاف يصبح له جذور عميقة في نفوسهم، حتى إنَّهم لا يقدرون فيما بعد أنْ يتغيَّروا، وبالتَّالي فإنَّهم يظلُّون إلى الأبد ثابتين على موقفهم الرَّافض. الله لم يكُف عن حبِّهم، لكنهم جعلوا أنفسهم عاجزين عن الاستجابة لهذا الحُب إلى الأبد".

نحن أحرار بصورة مروِّعة

سارتر كان مخطئًا إلى أبعد الحدود عندما قال: "الجحيم هو الآخَرون". الجحيم ليس الآخرين. الجحيم هو أنْ تكون بمفردك تمامًا وإلى الأبد. الجحيم هو عندما تقول النَّفس التي اعتادت على حياة الأنانيَّة المُطلقة، أو بالحري على عبادة الذَّات عندما تقول لله: "أنا لا أريدك. أنا لا أريد أنْ أُحِب. أنا لا أريد أن أُحَب، دعني وشأني، اتركني مع نفسي".

الله الذي أعطانا حريَّة الإرادة يحترم اختيارنا الحُر إلى الدَّرجة التي تجعله يتركنا وشأننا إلى الأبد. وبالتَّالي نحن أحرار بصورة مفزعة حتى إنَّه في إمكاننا أنْ نقف أمام الله ونعلن: "لتكن لا مشيئتك بل مشيئتي" حسب تعبير سي. إس. لويس C.S. Lewis. عندما تخلو النَّفس مِن الله، فإنَّها تختار أنْ تعيش بمفردها في فراغ داخلي، أفضل ما يوصف به أنَّه يشبه الجحيم.

كَتَب بول أفدوكيموف Paul Evdokimov:

"الجحيم ينتج عن الحريَّة البَشَرِيَّة، في مواجهة مع الله الذي لا يجبر أحدًا على حبِّه، يشهد الجحيم على حريَّتنا في أنَّنا لم نُحِب الله. هذه الحريَّة بعينها تُوَلِّد الجحيم، لأنَّنا دائمًا نقدر أنْ نقول: "لا تكن مشيئتك"، وحتى الله ذاته لا يملك السَّيطرة على هذا القرار".

مع ذلك، فالأمر لا يجب أنْ يجري على هذا النَّحو، فكما عبَّر القدِّيس ذهبي الفم St. John Chrysostom بكلمات رائعة:

[تقابل مع يسوع عند باب قلبك، وسوف تكتشف الفردوس].

يسوع ليس في مكان ما في الفضاء الخارجي، إنَّه يقف

بالضَّبط خارج باب قلبك، وهو يقرع، في انتظار قبول وصلاة منك: «**هأنذا واقف على الباب وأقرع. إنْ سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشَّى معه وهو معي**» (رؤ٣: ٢٠).

الرَّب على استعداد لتأسيس الفردوس في داخل قلوبنا، لو فتحنا الباب وأفسحنا له مكانًا بإنكار ذواتنا الخاطئة، وبنزع الذَّات مِن نفوسنا وباختيارنا أنْ نتبعه دون إجبار. النَّاس أحرار في فعل أي شيء يريدونه، لكنَّهم ليسوا أحرارًا في اختيار عواقب ما اختاروه. أنتَ تحصد ما زرعته. يقول القدِّيس بولس: «**لأنَّ مَن يزرع لجسده، فمِن الجسد يحصد فسادًا، ومَن يزرع للرُّوح فمن الرُّوح يحصد حياة أبديَّة**" (غلا ٦: ٨).

يقول جوته Goethe:

"اختر بعناية؛ اختيارك وجيز، ومع ذلك لا نهاية له".

تعرَّف على النَّتائج

كتب شاب رسالة إلى الصَّحيفة التي تُصْدِرها جامعة دوك Duke موجِّهًا حديثه إلى الجيل الأكبر سنًّا: "أودُّ أنْ يتعرَّف الجيل القديم على مشاعر المتعة والإثارة القويَّة ويختبروا معنى البهجة الحقيقيَّة (في إشارة إلى الإثارة المرتبطة بالمخدِّرات والكحول)".

فردَّ عليه أحدهم: "أيُّها الشَّاب، اقترح عليك أنْ تتعرَّف على نتائج تلك المتعة والإثارة. إنها تأتي دائمًا لاحقة وراء تلك المشاعر، لكنَّها تضرب الضَّربة القاضية المُدمِّرة. مِن الأفضل لك أنْ تتعرَّف على هذه النَّتائج، فالكل سيتعرَّف عليها إنْ عاجلاً أو آجلاً". مِن الواضح أنَّنا أحرارٌ في اختيارنا، لكنَّنا لسنا أحرارًا في اختيار نتائج اختيارنا.

شهادة شخص

أودُّ أنْ أشارككم شهادة شخص في هذا الصَّدد:

"لقد اكتشفتُ حقيقة غيَّرت حياتي تمامًا: إنَّ الحريَّة (أو ما اعتقدتُ أنَّها الحريَّة) لا تستحق أنْ تكون أعلى قيمة بالنِّسبة للإنسان. سعيي المستمر لأنْ أكون "متحرِّرًا" مِن القيود، غيرُ واقعٍ تحت أي ضوابط، كان مصدر الكثير مِن تعاستي، فمنذ الطفولة كنتُ أظنُّ دائمًا أنَّني أريد "أنْ أفعل ما يحلو لي"...

إلاَّ أنَّني فيما بعد أدركتُ أنَّ السعي وراء الأوهام والمشاعر الخياليَّة التي كانت تتملَّكني في وقت سابق في حياتي، لم تكن أبدًا قادرة أنْ تمنحني سعادة حقيقيَّة. في الماضي كنتُ حرًّا فقط في جني حصاد الوحدة المريرة، الحياة بلا هدف، والشُّعور باليأس الذي نتج عن سعيي المتهوِّر وراء المتعة الحسيَّة الشخصيَّة. لكنَّني الآن فقط أتذوَّق البهجة التي تجاوَزَت أعلى توقُّعاتي على الرَّغم مِن أنَّ وقتي غالبًا ليس

مِلكي، وعلى الرَّغم مِن أنّي فقدتُ الشهيَّة تجاه المُتع التي كنتُ أتلذَّذ بها سابقًا. الحياة صارت لها حلاوة خاصَّة. الآن أصبحتْ زوجتي ليندا تسمع منِّي كلمات مثل "أشكرك يا رب"، بدلاً من "الحياة ليس لها أي معنى".

لقد اكتشف ذلك الشَّخص أنَّ لكل مُتعة نتيجة مرتبطة بها، إلى أنْ عرف أنَّ الحياة في المسيح ليست مثل تلك المُتَع بل هي الحريَّة الحقيقيَّة، البهجة الحقيقيَّة، والشِّبَع الكامل. قال الرَّب يسوع: «**إنَّكم إنْ ثبتُّم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحقَّ والحقُّ يحرِّركم**» (يو٨: ٣١-٣٢). وهنا حدَّد الرَّب يسوع الشَّرطَيْن الأساسيَّيْن للوصول إلى الحريَّة الحقيقيَّة: أ- الثَّبات في كلامه... ب- معرفة الحق الذي هو المسيح.

الحريَّة الحقيقيَّة: عبوديَّة للمسيح

يتحدَّث بولس الرَّسول عن "العبيد"، فهو يقول للمسيحيِّين في روما إنَّهم كانوا: «**عبيدًا للخطيَّة**»، إلاَّ أنَّهم عندما صاروا مسيحيِّين أصبحوا: «**عبيدًا للبر**» و «**عبيدًا لله**». العبوديَّة للخطيَّة كما يذكُر الرَّسول بولس، تؤدِّي في النِّهاية إلى الموت: (رو٦: ١٦-١٨). أمَّا العبوديَّة لله فنهايتها حياة أبديَّة: «**أُجرة الخطيَّة هي موت، وأمَّا هِبَة الله فهي حياة أبديَّة بالمسيح يسوع ربِّنا**» (رو٦: ٢٣).

قد يتصوَّر المرء أنَّ ما يقوله بولس الرَّسول لا علاقة له بالموضوع، وذلك لأنَّنا نحن بالتَّأكيد ليس عندنا عبيد في عصرنا هذا كما كان في روما في زمن بولس الرَّسول. ولكن دعونا نلقي نظرة أخرى. في عصرنا هذا قد لا نستخدم كلمة "عبيد"، لكنَّنا نستخدم كلمات أخرى تحمل نفس المعنى. نحن نستخدم كلمة "مُدْمِن" على سبيل المثال. فنحن نصف النَّاس أنَّهم تحوَّلوا إلى مُدمنين للعمل، مُدمنين للمخدِّرات والكحول، مُدمنين لنزواتهم. نتحدَّث عن النَّاس ونَصِفهم بأنَّهم أصبحوا متعلِّقين بأمور ما. نتحدَّث عن السُّلوك "القهري". ما هذا إلاَّ العبوديَّة التي يتحدَّث عنها بولس الرَّسول. هؤلاء هم النَّاس الذين يخطرون على بالي في القدَّاس الإلهي عندما نطلب مِن أجل "الذين هم في السَّبي والذين في عبوديَّة مُرَّة، ومِن أجل خلاصهم". إنَّهم "مسبيُّو" الكحول، والمخدِّرات... إلخ.

يقدم د. جيرالد ماي Dr. Gerald G. May, M.D. تعريفًا للإدمان كما يلي:

"يحدث الإدمان حينما يكون الأشخاص مُرغَمين داخليًّا على تسليم طاقتهم لأشياء ليست هي رغباتهم الحقيقيَّة. أيْ أنَّ التَّعريف المباشر للإدمان هو حالة مِن الهَوَس أو الوسواس أو الهاجس الذي يستعبد إرادة الشَّخص ورغباته. الإدمان يُهَمِّش ويحجب الطَّاقة المرتبطة برغبتنا في الحُب والصَّلاح. نحن

نستسلم لأنَّ رغباتنا تصبح مربوطة أو مثبَّتة بمسامير في سلوكيَّات معيَّنة، أشياء معيَّنة، أو أناس معيَّنين. إذن، هذا التعلُّق والارتباط هو عمليَّة استعباد للرَّغبات تؤدِّي إلى خلق حالة الإدمان".

أنْ تكون مدمنًا هو أنْ تصبح متعلِّقًا بأيِّ شيءٍ بصورة خانعة وذليلة.

الأمريكيُّون فخورون بأنَّهم يعيشون في بلد يتمتَّعون فيه بالحريَّة السياسيَّة. أمريكا توصف بأنَّها: "أرض الأحرار"، ولكن المفارقة هي أنَّ معظم الأمريكيِّين ليسوا أحرارًا. هم في عبوديَّة من نوعٍ آخَر، مستعبدون للجشع، لشهوات جنسيَّة، لشهوة الطَّعام، للمخدِّرات، وللكحول. قال روسو Rousseau:

"يولَد الإنسان حُرًّا، إلاَّ أنَّه في كلِّ مكان مُكبَّل بسلاسل الاستعباد!"

الشَّخص الذي يُحَدِّد طموحاته الجنسيَّة من خلال تعاليم المستهترين ذوي العلاقات النسائيَّة المتعدِّدة يَظنُّ أنَّه وجد الحريَّة مع أنَّه بعيدٌ عنها كل البُعد. إنَّها عبوديَّة يُستَغلُّ فيها شخصٌ آخَر بصورة تنزع آدميَّته وشخصيَّته. حياة الاستهتار والمجون لا تَمُت للحريَّة بِصِلَة، فالشَّخص يكون في حقيقة الأمر مستعبَدًا لأعمق شهواته القهريَّة.

النَّاس يقولون إنَّهم يرغبون في الحريَّة. لماذا؟ معظمهم يريدون الحريَّة ليصبحوا عبيدًا لأهوائهم الخاصَّة. يقول مار إسحق السرياني:

[لا تُكَبِّل حريَّتك بالأمور التي تُقَدِّم المُتعة، لئلاَّ تصبح عبدًا مِن العبيد].

القدِّيس يوحنا الدَّرجي وَصَف ما يفعله بعض النَّاس عن طريق استخدامهم عطيَّة الإرادة الحرَّة التي يمنحها الله لهم فقال:

[بَيْن كل الكائنات المخلوقة العقلانيَّة التي وُهِبَت كرامة الإرادة الحرَّة، البعض يكونون أصدقاء لله، البعض يكونون عبيده الأُمناء، البعض يكونون عبيدًا بطَّالين (راجع لوقا ١٧: ١٠)، **البعض يكونون بعيدين تمامًا، كما يوجد البعض الذين على الرغم من كل ضعفهم، يتَّخذون موقفًا معاديًا لله].**

البعض يستخدمون إرادتهم الحرَّة ليكونوا "أصدقاء الله"، والبعض ليكونوا "عبيدًا أُمناء"، والبعض ليكونوا "عبيدًا بطَّالين"، والبعض ليكونوا "بعيدين"، والبعض يختار أنْ يحارِب الله. السُّؤال المهم هو: "إلى أيٍّ منهم أنتمي أنا؟"

كلّ إنسان هو عبدٌ بطريقة أو بأخرى

الحقيقة هي أنَّ كلَّ إنسان عبدٌ لشيء ما. قال سينيكا Seneca ذات مرَّة:

"أَرِني إنسانًا غير مستعبد لشيء. هناك إنسان عبد للرَّغبات الجنسيَّة، إنسان آخر عبد للماديَّات ويتميَّز بالجشع، إنسان ثالث عبد للطموح، وكلُّنا عبيد للخوف".

كان سينيكا محقًّا، فهناك عبيد مِنْ كل حَدْبٍ وصَوْبٍ حولنا: عبيد للخمر، للرَّغبات الجنسيَّة، للجشع، للتَّنجيم، للقمار، للخوف، للتعصُّب، للماديَّات، للمقتنيات، لشهوة الطعام... إلخ. كم كان الأب ستانيلو Fr. Staniloae محقًّا عندما قال:

"لقد خلقنا الله لنكون أحرارًا، لكنَّنا استخدمنا حريَّتنا لنتنازل عن حريَّتنا".

الحقيقة العظيمة التي يشاركنا فيها بولس الرَّسول هي ما يُعرَف بالتَّضاد paradox، فهو يقول لنا إنَّ الحريَّة الحقيقيَّة هي التي يمكن العثور عليها في العبوديَّة: طبعًا ليست العبوديَّة للخطيَّة التي تؤدِّي إلى الموت بل العبوديَّة للمسيح التي تؤدِّي إلى: «**حريَّة مجد أولاد الله**». نحن نكون أحرارًا فقط عندما نختار أنْ نصبح عبيدًا للمسيح.

لم يكن بولس الرَّسول يتكلَّم كلامًا نظريًّا غير واقعي؛ لقد كان يتحدَّث مِن واقع تجربته الخاصَّة. هو ذاته كان عبدًا قَبْلَ أنْ يتقابل مع المسيح، وهو يخبرنا عن ذلك الأمر في (رومية ٧: ١٥-٢٥) عندما قال:

«لأنّي لستُ أعرف ما أنا أفعله، إذ لستُ أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فإيّاه أفعل... إذًا أجد النّاموس لي حينما أريد أنْ أفعل الحُسنى أنَّ الشرَّ حاضر عندي. فإنّي أُسَرُّ بناموس الله بحسب الإنسان الباطن، ولكنّي أرى ناموسًا آخَر في أعضائي يحارب ناموس ذهني، ويسبيني إلى ناموس الخطيَّة الكائن في أعضائي... ».

شبَّه بولس الرَّسول هذه العبوديَّة الداخليَّة لدوافعه، بالجُثَّة المربوطة على ظهره وصرخ قائلاً: «**ويحي أنا الإنسان الشَّقي! مَن ينقذني مِن جسد هذا الموت؟**» لقد اكتشف بولس الرَّسول أنَّ المسيح وحده هو القادر أنْ ينقذه مِن هذه العبوديَّة، وصرخ قائلاً: «**شكرًا لله الذي يعطينا الغلبة بربِّنا يسوع المسيح**» (١كو١٥: ٥٧).

الاختيار بيْن نوعَيْن مِن الاستعباد

ومِن ثمَّ، يجب علينا أنْ نختار بيْن نوعَيْن مِن الاستعباد، أحدهما هو الاستعباد الطَّوعي ليسوع كربٍّ وإله. هذا هو الاستعباد الذي يُحرِّرنا، مثل بولس الرَّسول عندما قال: «**أنا بولس أسير المسيح يسوع**» (أف٣: ١). لقد كان أسير الحُب الذي سلَّم إرادته للمسيح مِن أجل أنْ يجد الحريَّة الحقيقيَّة.

الاستعباد الثاني يجعلنا عبيدًا لأهوائنا.

لماذا قال ألكسندر سولز هينيتسين Alexander Solzhenitsyn إنَّه لم يشعر بالحريَّة مطلقًا مثلما شعر بها وهو داخل السِّجن؟ هل مِن الممكن أنْ يكون السِّجن قد ساعده في تركيز اهتمامه على ما يجعلنا بالفعل أحرارًا؟ هل مِن الممكن أنْ تكون إحدى المتطلَّبات الغامضة للحريَّة في اختيار مكان العيش، واختيار الأفعال واختيار ما نؤمن به وما نأكله وما نلبسه. كل هذه الحريَّات مِن الممكن أنْ تتحوَّل إلى خِدَع تسود علينا، وتُحَوِّل انتباهنا عن الأشياء المهمَّة في الحياة التي تجعلنا حقًّا أحرارًا.

العبوديَّة للمسيح

مفتاح الحريَّة هو العبوديَّة للمسيح. أنا أعترف أنَّ كلمة عبوديَّة هي كلمة قويَّة، لكن العبوديَّة لله هي بالفعل أمر قوي للغاية. لا يوجد كلمة أقل قوَّة تقدر أنْ تصف الولاء الكامل الذي يطلبه المسيح. لا يوجد كلمة أقل قوَّة تقدر أنْ تصف أين تكمن الحريَّة الحقيقيَّة. بالضَّبط مثل الطيَّار الذي هو عبدٌ لأجهزته، لكنَّه حُرٌّ أنْ يسافر ويَصل إلى وجهته. كذلك الشَّخص الذي يصير عبدًا للمسيح ولوصاياه، هو وحده الذي لديه الحريَّة أنْ يعيش الحياة السَّعيدة. كان الابن الضَّال يظُن أنَّه سيتمتع بالحريَّة عندما يعيش لذاته، ويفعل ما يحلو له في بلد الإثم بعيدًا عن أبيه، لكنَّه كان مخطئًا. في تلك الكورة

البعيدة تحوَّل إلى عبد، عبد للخطيَّة، عبد للمعصية، عبد للجـــوع. لم يكن هذا الشاب حُرًّا في أي وقت مضى أكثر ممَّا كان عندما اعترف بخطئه. لم يكن حُرًّا في أيِّ وقتٍ مضى أكثر ممَّا كان عندما وقـــف أمام أبيه وقال: «**أخطأتُ إلى السماء وقُدَّامك**». لم يكن حُرًّا في أيِّ وقتٍ مضى أكثر ممَّا كان عندما توسَّل إلى أبيه أنْ يَقْبَله ويجعله أحد "عبيده"، لأن في عبوديَّته لأبيه وجد الحريَّة.

عبوديَّة الحُب

العبوديَّة للمسيح ليست عبوديَّة بالإكراه، بل هي عبوديَّة الحُب. الابن الذي يُحب أباه يصير عبدًا لإرادة أبيه، سوف يفعـــل أي شـــيء ليرضيه. إنَّه الحُب الذي يجعل هذا الابن عبدًا، عبدًا بإرادته، عبدًا حُـــرًّا، عبدًا سعيدًا. وهذا النَّوْع مِن العبوديَّة – عبوديَّـــة الحُـــب – لا يُعتَبَـــر عبوديَّة على الإطلاق؛ إنَّه الحريَّة المثاليَّة. إنَّها ليست مسألة "أكون أو لا أكون" عبدًا. نحن عبيد سواء كُنَّا على عِلمٍ بذلك أم لا، لكنَّنا نختار نَوْع عبوديَّتنا. يمكننا أنْ نكون عبيدًا للأفضل أو عبيدًا للأســـوأ. يمكننـــا أنْ نكون عبيدًا للخطيَّة أو عبيدًا للمسيح. عبَّر الرَّب يسوع عن هذا الأمـــر عندما قال: «**كلُّ مَن يعمل الخطيَّة هو عبدٌ للخطيَّة**... **(لكن) إنْ حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارًا**» (يوحنا ٨: ٣٤، ٣٦).

بولس الرَّسول دعا نفسه "عبدٌ للمسيح"، مع أنَّ بولس الرَّســـول

كان يعيش في زمنٍ كان معروف فيه معنى العبوديَّة حيث كان العبد ملكًا لسيِّده بكل معنى الكلمة، إلاَّ أنَّ الرَّسول بولس استخدم هذه الكلمة عمدًا ليُظْهِر كيف سلَّم نفسه تمامًا لخدمة المسيح، وكيف وجد الحريَّة المثاليَّة في هذه العبوديَّة. كَتَب القدِّيس ذهبي الفم:

[في يوم الخمسين أُزيلت العبوديَّة، وحلَّت الحريَّة محلَّها].

يضيف القديس أنطونيوس St. Anthony:

[إذا شئتَ، يمكنك أنْ تكون عبدًا للأهواء (الشَّهوات)، وإذا شئتَ، يمكنك أنْ تبقى حُرًّا ولا تستسلم لنيرها، لأنَّ الله خلقك تمتلك هذه القُدرة].

البحث عن الحريَّة بعيداً عن الله

لو قرأتَ قصَّة حياة بيكاسو Picasso سوف ينتابك شعور بالاكتئاب بشكل رهيب. إنَّها قصَّة رَجُل عقد العَزْم على أنْ يعيش بحريَّة كاملة. كان قد قرَّر ألاَّ يكون مقيَّدًا بأيِّ شخص ولا بأيِّ شيء. لم يؤمن بأيِّ قوانين في الحياة، وبالأخصِّ قوانين الله. عاش حياة الهيبيز Hippies (حركة شبابيَّة نشأت في الولايات المتَّحدة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن العشرين، وانتشرت في باقي الدُّوَل الغربيَّة. كانت حركة تمرُّد على القِيَم والدَّعوة إلى عالَم تسوده

الحريَّة. ميَّزوا أنفسهم بإطالة الشَّعر ولِبس الملابس المهلهلة. وَجَدَت هذه المجموعة في المخدِّرات والجنس وموسيقى الروك طريقة للتَّعبير عن تمرُّدهم). في سلوكه لهذه الحياة لم يُصبح حُرًّا بل صار عبدًا للشَّهوات الجسديَّة وحُب السُّلطة. حرفيًّا حطَّم بيكاسو حياة كل مَن عاش معهم وبالأخصِّ النِّساء وفي وقت لاحق أولاده. كانت حياته جحيمًا حقيقيًّا. قبل موته، أنذر أنَّه، مثل السَّفينة الغارقة، سوف يصطحب كثيرين معه عند موته. وقد تمَّ ذلك بالفعل. لقد نجح في تدمير حياة المقرَّبين منه حتى أنَّ بعد موته بوقتٍ قصير، مات العديد منهم منتحرين.

بيكاسو سعى وراء الحريَّة بعيدًا عن الله. في ارتكابه كل هذا لم يجد سوى عبوديَّة المذلَّة والجحيم.

حُرٌّ في المسيح

قارن حياة بيكاسو بحياة جون نيوتن John Newton الذي كان عبدًا للخطية طوال حياته إلى أن أستسلم للمسيح وغيَّر سيِّده. انتقل من العبوديَّة للخطيَّة للعبوديَّة للمسيح الذي وجد فيه الحريَّة الحقيقيَّة. فيما يلي شهادته:

"ما أنا عليه ليس ما ينبغي أنْ أكون عليه. ما أنا عليه ليس ما أرغب أنْ أكون عليه. ما أنا عليه ليس ما أرجو أنْ أكون

عليه. وعلى الرَّغم من ذلك أستطيع أنْ أقول بالحقيقة إنَّ ما أنا عليه مُغَاير لما كنتُ عليه فيما مضى، عبدًا للخطيَّة ولإبليس. أنا الآن حُرٌّ في المسيح".

الحريَّة المثاليَّة توجَد في الطاعة الكاملة لله. لقد أعطتنا مريم العذراء، والدة الإله، المَثَل الأعلى في كيف نكون حقًّا أحرارًا عندما قبلت باتِّضاع إرادة الله وأجابت الملاك: «**ليكن لي كقولك**».

بعد تحوُّله، نظر بولس الرَّسول إلى حريَّته نظرة مختلفة. لقد نظر إليها أنَّها: «**أموات عن الخطية وأحياء لله بالمسيح يسوع**» (رو٦: ١٠-١١). كان يحيا حياته «**في المسيح**»، تلك العبارة التي يستخدمها أكثر من ١٦٤ مرة ليعبِّر عن اتِّحاده الشَّخصي الحميم بالمسيح. كونه: «**في المسيح**» يعني أنَّه لم يَعُد عبدًا للخطيَّة، بل ابنًا حقيقيًّا لله (غلا٤: ٦-٧)، فيقول: «**إذًا لستَ بعد عبدًا بل ابنًا، وإنْ كنتَ ابنًا فوارث لله بالمسيح**».

بتسليم ذواتنا للمسيح، ننتقل من الحريَّة إلى مزيد من الحريَّة، وتتغيَّر هيئتنا ببطء نحو صورة وشبه يسوع في مسيرتنا نحو الاتِّحاد بالمسيح. النُّمو الذي نحقِّقه في الحريَّة الحقيقيَّة يقاس بمدى إعطائنا الأولويَّة لإرادة المسيح بالتَّمام في حياتنا.

طريقتان للحياة

هناك فرق شاسع بين كليَّة تعليم اللاَّهـــوت (الإكليريكيَّـــة) في بروكلين (حسب خبرتي فيها) والجامعة الإنجليزيَّة. في كليَّتنـــا، كـــان الطلاَّب يعيشون طبقًا لنظام صارم. كنَّا لا نقدر أنْ نتغيَّب عن حضور المحاضرات أبدًا، كما كنَّا ملزَمين بقضاء عدد مُعَيَّن من ساعات الدِّراسة كل يوم تحت الإشراف. كنَّا مطالَبين بالصَّلاة مرَّتَيْن يوميًّا في الكنيسة. لم يكن مصرَّحًا لنا بمغادرة المقاطعة إلاَّ في أوقات معيَّنة وبعد الحـــصول على تصريح.

على الجانب الآخر، فإنَّ الحياة في الجامعة الإنجليزيَّة هي عكـــس ذلك تمامًا. لا يوجد أي تفتيش على تواجد الطَّلبـــة في المحاضـــرات. لا توجد ساعات محدَّدة للدِّراسة. الطَّلبة يأتون ويذهبون كما يحلو لهم، ولا توجد أي قيود على مواعيد خروجهم... إلخ. بالطَّبع، يأتي الوقت الذي يكشف فيه الامتحان المجهود الذي بذله كل طالب، لكن حـــتى ذلـــك الحين، فهم أحرار في فِعل ما يشاءون.

الله خلقنا لدينا القُدرة على الاختيار الحُر، فحسب ترتيبه، ينبغي أنْ تكون الحياة مشابهة للحياة في الجامعة الإنجليزيَّة أكثر من الحيـــاة في الكليَّة الإكليريكيَّة، فالله قد أعطانا قدرًا كبيرًا من الحريَّـــة. يمكننـــا أنْ نؤجِّل أو حتى نرفض القيام بواجباتنا في الحياة، يمكننا أنْ نختار أنْ ننساق

وراء دوافعنا وغرائزنا، لكن الله عيَّن وقتًا للاختبار، وقتًا للدَّينونة. أحد مقاصد الدَّينونة هو إظهار كيف استخدمنا الحريَّة، الوقت، الوزنات، والعطايا الأخرى التي أغدق بها الله علينا. وبناء على نتائج هذا الاختبار سوف يتحدَّد مصيرنا الأبدي.

مُستَعبَدين لأهوائنا، لكنَّنا أحرارٌ بطريقة ما

مِن الممكن أنْ نكون مستعبَدين لأهوائنا، إلاَّ أنَّنا على الرَّغم مِن ذلك مازلنا أحرارًا بمقدار كاف لأن ندعو الله في الصَّلاة ليحرِّرنا. لماذا؟ لأنَّنا تحرَّرنا مِن فساد الخطيَّة والمَوْت. لقد انتقلنا مِن سُلطان الظُّلمة إلى مملكة النُّور. لا ينبغي أنْ نحيا فيما بعد في الجسد بل في روح الله. المسيح أعطانا الغلبة على الخطيَّة والمَوْت، لكنَّه لن يفرض هذه الغلبة علينا، ينبغي أنْ نقبلها أو نرفضها.

حتى وإنْ كنَّا تحت سيطرة الشَّهوات، إلاَّ أنَّه لا يزال في وسعنا أنْ ندعو الله أنْ يساعدنا في محاربة هذه الشَّهوات وبنعمة الله نستعيد صحَّتنا الروحيَّة: «**ارجعوا إليَّ أرجع إليكم يقول الرب**» (ملا ٣: ٧). إنَّها إرادتنا الحُرَّة التي تفتح الباب لنعمة الله المخلِّصة، وحسب كلمات القدِّيس يوحنا ذهبي الفم:

[لأنَّنا يجب أولاً أنْ نختار ما هو صالح، حينئذ يشارك الله بما يأتي مِن عنده. إنَّه لا يستبق رغباتنا لئلاَّ تصير إرادتنا الحُرَّة

مُعاقة؛ لكن متى قُمنا بالاختيار، حينئذ عظيمة هي تلك المعونة التي يمنحها لنا.

الله زوَّد إرادتنا الحُرَّة بقوة هائلة حتى إنَّه لو هاجمت الإنسان كل حواسه والعالم بأسره وكل الشياطين، لو كل هؤلاء قاموا عليه ليقاتلوه، فإنَّهم لن يقدروا أنْ يُخضعوا إرادته الحرَّة، فالإرادة دائمًا حُرَّة في أنْ تشتهي ما يعرضونه عليها أو ما يطلبونه منها إذا رغبت في ذلك، أو لا تشتهي إذا لم ترغب في ذلك].

متى يكون المرء حقًّا حُرًّا؟

نحن أحرار في أنْ نقول "لا" لله، إلاَّ أنَّنا عندما نفعل ذلك فإنَّنا نفقد حريَّتنا. نحن يمكننا أنْ نستخدم حريَّتنا في استعباد أنفسنا، ونحن غالبًا ما نفعل ذلك. قال الرَّب يسوع: «**كل مَن يعمل الخطيَّة هو عبدٌ للخطيَّة**» (يو٨: ٣٤). عندما نرجع ونقول "نعم" لله، حينئذ نسترد حريَّتنا الحقيقيَّة. ونحن نرى ذلك في مثل الابن الضال. عندما قال "لا" لأبيه، انتهى به المطاف في حظيرة الخنازير كعبد، وعندما رجع لأبيه، استردَّ حريَّته السَّابقة وغيَّر اتِّجاه حياته بالكامل. قال القدِّيس باسيليوس :St. Basil

[**الرُّوح القُدُس لا يحرم أي شخص مِن قدرته العقليَّة وحريَّته، الاستحواذ الشَّيطاني فقط هو الذي يفعل**

ذلك].

في واقع الأمر، الرُّوح القُدُس يُعَزِّز ويُنمي قـــدرتنا العقليَّـــة وحريتَّنا. صلَّى القدِّيس أوغسطينوس قائلاً:

[ربِّي اجعلني أسيرًا لك فأكون حرًّا].

كما صلَّى ألفريد لورد Alfred Lord Teninyson ذات مرَّة:

"إرادتنا هي مِلْكٌ لنا، لا ندري كيف؛ إرادتنا هي مِلْكٌ لنا لنجعلها مِلكًا لك".

الحريَّة الحقيقيَّة تكمُن في الطَّاعة

في طاعة إرادة الله نجد الحريَّة الحقيقيَّة. الأكثر حريَّة هو الأكثـــر خضوعًا لله في المسيح. لا توجد حريَّة حقيقة دون أنْ يكون المسيح هو مَصدرها. كان المسيح حرًّا بالتَّمام لأنَّه جعل إرادة أبيه هي الأعلى: «**لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني**» (يوحنـــا ٥: ٣٠). قـــال المسيح: «**طعامي أنْ أعمل مشيئة الذي أرسلني**» (يو٤: ٣٤).

يسوع يقدِّم لنا مثالاً رائعًا للحريَّة من خلال طاعته للآب. إنَّـــه يطيع الله، أباه، بمنتهى الحُب والإخلاص. إنَّه يقول "نعـــم" لإرادة الآب في كل ظَرف مِن الظُّروف، حتى عندما يسأل الآب أنْ يَعْبُر عنه كأس الألم فهو يضيف: «**لتكن لا إرادتي بل إرادتك**» (لو٢٢: ٤٢). يكتـــب

بولس الرَّسول ويقول: «**حريَّتنا التي لنا في المسيح**».

وهكذا في الحياة، فنحن أحرارٌ فيما نختاره لأنفسنا؛ إمَّا أنْ يكون لنا شكلٌ مُشَوَّهٌ شبه الشَّياطين، أو شكلٌ مضيءٌ شبه الله الذي هو نور العالم. نحن نختار ما سوف ينبعث مِن حياتنا، إمَّا نور أو ظلام.

الحقُّ يحرِّرنا

قال الرَّب يسوع: «**وتعرفون الحقَّ، والحقُّ يحرِّركم**» (يو٨: ٣١). نحن لا نقدر أنْ نُحَلِّق بالطَّائرة إلاَّ عندما نتعلَّم قوانين علم الطَّيران ونتبعها. وهذا هو بالضَّبط الهدف مِن وصايا الله، ليس تقييد حريَّتنا، بل تحريرنا لنتمتَّع بالحياة التي منحها الله لنا. يقول القدِّيس أوغسطينوس St. Augustine:

[حِب الله وافعل ما شئت].

إذا كنت تحب الله حقًّا، ستكون رغبتك الوحيدة هي أنْ تفعل مشيئته. نحن نصير بالحقيقة أحرارًا عندما نطيع إرادة الله المقدَّسة مِن خلال الحب.

شهادة زَوْج

فيما يلي يشرح لنا إنسان أطاع شريعة الله فيما يتعلَّق بالممارسات الجنسيَّة، وكيف تمتَّع بالعلاقة الجسديَّة التي هي عطيَّة الله، بحريَّة كاملة مِن

خلال الزَّواج فيقول:

"أنا شخصيًّا لم أذهب مطلقًا إلى "فراش الزوجيَّة" وأنا يساورني أدنى قلق أو خوف. لم أترقَّب نتيجة تحليل الدَّم حتى أعرف إذا ما كنتُ مصاب بمرضٍ مِن الأمراض التي تُنقل عن طريق العلاقات الجنسيَّة، فأنا أتمتَّع براحة البال فيما يتعلَّق بالممارسة الجنسيَّة. لماذا؟ لأنَّني اخترتُ أنْ أتبع قوانين الله فيما يخص الحُب والنَّقاء والإخلاص قَبْل الزَّواج وأثناء الزَّواج. أنا مطمئنٌ تمامًا أنَّ علاقتي بزوجتي خالية مِن الأمراض، خالية مِن "أشباح" الرُّفقاء السَّابقين، خالية مِن الآثار العاطفيَّة النَّاتجة عن علاقات غير أخلاقيَّة سابقة".

"في إرادته حريَّتنا".

الحريَّة داخل زنزانة السِّجن؟

ومع ذلك سوف يقول لك الشَّيطان إنَّك لن تكون حُرًّا ما لم تتمكَّن مِن الذِّهاب حيثما تريد، وبالتَّحديد حيث يقول لك الله ألاَّ تذهب.

"أريد أنْ أكون حرًّا، وأنا لا يمكنني أنْ أكون حُرًّا ما لم أقدر أنْ أفعل أي شيء أريده. أنا لا يمكنني أنْ أكون حرًّا ما لم أكن حُرًّا في دخول السِّجن وحُرًّا في اختيار الحياة داخل زنزانة".

هذا هو نوع الحريَّة الذي يعرضه الشَّيطان علينا: دخول السِّجن والحياة داخل زنزانة. لهذا السبب، هؤلاء الذين يتباهون بالعلاقات الجنسيَّة المتعدِّدة ينتهي بهم المطاف أنْ يصيروا سجناء داخل زنزانة هرموناتهم وشهواتهم؛ وأولئك الذين يتحدَّثون عن الحريَّة في تعاطي المخدِّرات ينتهي بهم المطاف أنْ يصيروا سجناء في قَبْو إدمانهم الرَّهيب.

الكثير مِن الناس يخشون مِن أنَّ الله سوف يكبت حريَّتهم. إنَّهم لا يدركون أنَّهم بالفعل سجناء ومستعبَدون للشَّيطان، وأنَّ يسوع هو فقط الذي يملك مفتاح حريَّتهم: «**فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها**» (غل ٥: ١)، «**حيث روح الرَّب هناك حريَّة**» (٢كو٣: ١٧).

هل النجوم حُرَّة؟

هل النجوم التي في السماء حُرَّة؟ النجوم التي في السماء ليست حُرَّة لأنَّها يجب أنْ تطيع مسار مدارها لئلاَّ يتحطَّم الكَوْن في حالة انحرافها عن هذا المسار. لابدَّ أنَّكم رأيتم النيازك (الشُّهُب) في سماء الصَّيْف. إنَّها تبدو جميلة في حريَّتها، انفجار ضوئي رائع في سماء الليل، لكن نهايتها هي الدَّمار والظَّلام؛ أمَّا النجوم التي تتحرَّك بثبات في مداراتها المحدَّدة فتلك هي النجوم الحرَّة.

مثل النجوم، نحن نصير أحرارًا عندما نبقى داخل المدارات التي حدَّدها الله. نحن نصير أحرارًا مِن خلال طاعة إرادة الله، مثل القطار الذي

يكون حرًّا طالما ظلَّ ثابتًا فوق القضبان. لو اختار أنْ يترك القضبان، لم يعُد حرًّا. إنَّها كارثة. وكلمة كارثة في الإنجليزية Disaster تتكوَّن مِن جزئَيْن Dis ومعناها يَضِل أو ينحرف، و Aster وهي كلمة يونانيَّة معناها نجم. عندما ينحرف نجم عن مساره، فالنَّتيجة تكون كارثة. الحريَّة تتحقَّق عندما نسير في المدار الذي حدَّده الله لنا ونثبت في هذا المسار.

الحريَّة: نِتاج الانضباط

بالإضافة إلى طاعة إرادة الله، نحن نصبح أحرارًا مِن خلال الانضباط والتَّدريب. لو أنا درستُ فنَّ الخطابة فسأكون قادرًا على إلقاء خطاب مؤثِّر عندما تتاح لي الفرصة، مثلما فعل مارتن لوثر كنج Martin Luther King في خطابه الشهير: "لديَّ حُلم" I have a dream.

ديموسثينيس Demosthenes صار قادرًا على إلقاء الخُطب بعد أنْ أخضع نفسه لتدريبات قاسية، تغلَّب بها على مشاكل النُّطق التي كان يعاني منها في طفولته.

جورج فريدريك George Frederick استطاع أنْ يؤلِّف مقطوعة Messiah الرَّائعة بعد أنْ تعلَّم التَّأليف الموسيقي بمجهوده الشَّخصي. عن طريق الانضباط الشَّخصي المكثَّف (المعرفة والتَّدريب)،

استطاع فلانرى أوكونر Flannery O'Connor أنْ يرتفع فوق مرضه الموهن، ليصير واحدًا مِن أرقى كتاب الرِّوايات في القرن العشرين. الحريَّة هي نتاج الانضباط والالتزام.

لما تتأمَّل أحد عازفي البيانو الكبار، وتشعر نحوه بالغيرة عندما تنظر أصابعه وهي تتجوَّل بحريَّة فوق مفاتيح البيانو أثناء عزفه الارتجالي، سوف تدرك أنَّ هذه الحريَّة هي نتاج الإذعان للانضباط الذاتي. المُغَنِّي الذي يبدو حرًّا في الوصول إلى النَّغمات العالية القويَّة، لابدَّ أنَّه أمضى ساعات طويلة في تدريبات منضبطة.

لاعب كرة القدم الذي يتمتَّع بالحريَّة في تحرُّكاته، وبالقدرة على التحكُّم في الكرة، وصل إلى ذلك كنتيجة للانضباط الذَّاتي والتَّدريب المكثَّف.

الطَّبيب لن يكون قادرًا على علاج المرضى دون الخضوع لسنوات طويلة مِن الدِّراسة والتَّدريب.

ذات مرَّة سمعتُ طبيبًا حصل على المؤهِّل حديثًا بعد أنْ أمضى سنوات طويلة في التَّدريب وهو يقول: "الآن لديَّ الحريَّة أنْ أكون طبيبًا". ولكن حتى الطَّبيب المؤهَّل، سرعان ما يشعر أنَّه لا يحرز تقدُّمًا إذا تخلَّى عن الالتزام بالدِّراسة المستمرَّة وبذل الجهد لمواكبة الاكتشافات الحديثة. اختياره الحُر أنْ يكون طبيبًا ناجحًا يتوقَّف على

خضوعه للدِّراسة المستمرَّة.

دعا أحدهم عدَّاءً شهيرًا للانضمام إلى حفل للعربدة والسُّكر. أنا لا أتذكَّر التَّفاصيل، لكنِّي أتذكَّر إجابته:

"أنا لستُ حرًّا في أنْ أفعل ما تطلبه منِّي، لأنَّني لو فعلتُ ما تطلبه منِّي، لن أكون حرًّا لأجري (قادرًا على الجري)". من خلال قبوله الطَّوعي للخضوع لضبط النَّفس، احتفظ بحريَّته وقدرته على الجري.

كل هذا يساعدنا أنْ ندرك أنَّ في الحياة المسيحيَّة، الأحرار هم الذين يَقبلون طوعًا بانضباط أنْ يُطيعوا المسيح. إنَّه يقدِّم: «**الإطلاق للمأسورين، والحريَّة للمنسحقين**»، ومع ذلك، فإنَّه عندما يُقدِّم يسوع الحريَّة، فإنَّه يقول لأولئك الذين يعثرون عليها: «**اتبعوني!**»، «**احملوا نيري عليكم**». الحريَّة تتحقَّق من خلال القبول الطَّوعي لنير المسيح والخضوع له. الحريَّة تُكتسب من خلال الانضباط ascesis.

كلامه يحرِّرنا

قال الرَّب يسوع: «**الحقُّ يحرِّركم**» (يو٨: ٣٢). الحق دائمًا يحرِّر بطريقة معيَّنة. الباطل يُقيِّد، الباطل يحصُر، الباطل يستعبد، الحقُّ يحرِّرنا. حقيقة أنَّ الأرض كرويَّة وليست مسطَّحة، فَتَحَتْ آفاقًا جديدة للاستكشافات التي أدَّت إلى اكتشاف قارَّتَيْن كانتا مجهولتَيْن. حقيقة أنَّ الأرض تدور حول الشَّمس، وليس العكس، أتاحت

إمكانيات جديدة للعلم. الحق بالفعل يحرِّرنا.

قال الرَّب يسوع: «**إن ثبتم في كلامي... وتعرفون الحقَّ والحقُّ يحرِّركم**». يسوع عرف الحقَّ الذي يحرِّر الإنسان. إنَّه كلامه. وقال: «**قدسهم في حقِّك. كلامك هو حق**» (يوحنا ١٧: ١٧). كلامه هو الحق الذي يحرِّر.

ماذا تقول عن شخص يؤمن أنَّ الأرض مسطَّحة، وينكر أنَّها كروية؟ هل هو شخص حُر؟ بالقطع لا. إنَّه مستعبَد للباطل. وماذا تقول عن شخص ينكر قانون الجاذبيَّة الأرضيَّة ويقفز مِن أعلى ناطحة سحاب؟ هل هو شخص حُر؟ ألم تصبح حريَّته مرادفة للانتحار؟

عندما يخضع العقل للحقِّ (سواء كان علميًّا أو كتابيًّا)، فإنَّه يتحرَّر مِن الباطل، ومِن الاختبارات الوجوديَّة التي تشبه الرِّمال المتحرِّكة، ومِن الموضة المتغيِّرة باستمرار في هذا العالم.

قبول الحق، يحرِّرنا

علَّمنا الرَّب يسوع ذلك بوضوح عندما قال: «**إنْ ثبتُّم في كلامي، فبالحقيقة تكون تلاميذي. وتعرفون الحقَّ، والحقُّ يحرِّركم**» (يوحنا ٨: ٣١-٣٢). كلامه حق. لو ثبتنا في كلامه سنعرف الحقَّ، والحقُّ يحرِّرنا. هناك نوعان مِن الحريَّة: الحريَّة من from والحرية نحو for. السَّبب الوحيد الذي يجعل الإنسان متحرِّرًا مِن from شيء

ما، هو أنَّه يسعى بحريَّة نحو for شيء آخر. الحريَّة ليست التحرُّر مِن الحق، بل على الأصح هي أنَّ الإنسان يسعى بحريَّة نحو قبـــول الحق.

أنتَ تكون حرًّا إلى أبعد حد، عندما تعرف الحقَّ المتعلِّق بشيء ما. على سبيل المثال، أنتَ تقدر أنْ ترسم مثلَّثًا بـــشرط أنْ ترسمـــه بثلاثة أضلاع وليس ٣٣ ضلعًا. أنتَ تقدر أنْ ترسم زرافـــة طالمـــا سترسمها برقبة طويلة. إذا لم تَقبل الحقَّ فيما يتعلَّق بتكوين الزَّرافـــة، وبدلاً من ذلك رسمتها برقبة قصيرة، سوف تجد أنَّك لـــيس لـــديك الحريَّة أنْ ترسم زرافة.

أنتَ لديك الحريَّة أنْ تقود سيَّارتك على شرط أنْ تحترم قوانين المرور. لن تكون لديك الحريَّة في القيادة لو أنَّك اخترت أنْ تكـــسر إشارات المرور. أنتَ لديك الحريَّة أنْ تقود طائرة، على شـــرط أنْ تحترم قوانين الجاذبيَّة والديناميكا الهوائيَّة. إذن، الحق بالفعل يحرِّرنا.

نوعان مِن الحريَّة

قال شارلز كينجزلي Charles Kingsley ذات مرَّة:

"هناك نوعان مِن الحريَّة: حريَّة مزيَّفة حيث يكون المرء حرًّا أنْ يفعل ما يشاء، وحريَّة حقيقيَّة حيث يكون حرًّا أنْ يفعل مـــا يجب عليه أنْ يفعله".

الحريَّة الزَّائفة تقول: "افعل ما يُسرُّك". الحريَّة الحقيقيَّة تقول: "افعل ما يُسر الله". الحريَّة الزَّائفة تقول: "سأفعل ما أريده". الحريَّة الحقيقيَّة تقول: "سأفعل ما يجب عليَّ أن أفعله". «**فإنَّكم إنَّما دُعيتم للحريَّة أيُّها الإخوة. غير أنَّه لا تُصيِّروا الحريَّة فرصة للجسد، بل بالمحبَّة اخدموا بعضكم بعضًا**» (غل ٥: ١٣). نحن مقيَّدون بعبوديَّة الخطيَّة بإحكام شديد حتى إنَّه عندما يأتي الإله الصَّالح ليحرِّرنا فنحن في كثير من الأحيان لا نقدر أنْ نُصدِّق.

هل جرَّبْتَ من قَبْل أنْ تطلق سراح عصفور كان محبوسًا في داخل قفص؟ إنَّه يرتعش ويهتز من شدَّة الخوف عندما تمسكه في قبضة يدك، فهو لا يثق فيك. إنَّه يرتعب من تلك اليد الحانية التي سوف تُحرِّره. يقول يفتوشينكو Y. Yeftushenko:

"أولئك الذين يُحبَل بهم في قفص، يتوقون للقفص حتى عندما يطلق سراحهم".

أسطورة الكهف الرمزيَّة لأفلاطون

في القرن الرابع قبل الميلاد، وَصَف أفلاطون Plato هذا الحال (المذكور في عبارة يفتوشينكو السابقة) في أسطورة الكهف الرمزيَّة. صَوَّر أفلاطون البَشَر مربوطين ببعضهم البعض، ومجبَرين على العَيْش في كهف تحت الأرض، يحدقون في ظلال متحرِّكة لأجسام خارج

الكهف تنعكس ظلالها على الجدار الدَّاخلي للكهف. ذات يوم نزل شخص مستنير إلى الكهف آتيًا مِن فوق، وأوضح أنَّه في إمكانه أنْ يفكَّ أيديهم ويحرِّرهم إذا تبعوه خارج الكهف، وسوف يقودهم إلى أجمل عالم فوق الكهف، وهناك سيتمتعون بدفء الشَّمس؛ وبدلاً مِن الظِّلال، سوف يشاهدون أنوارًا مُشعَّة وقَوْس قزح بألوانه المتعدِّدة، كما سيرون الأزهار، والعصافير، والأشجار، وشروق الشَّمس وغروبها، وكل أنواع الأشياء الجميلة.

ومع ذلك، خوفًا مِن فقدان الظُّلمة والظِّلال الوهميَّة، رفض أهل الكهف أنْ يُصَدِّقوا الهادي المستنير الآتي مِن فوق، وبدلاً من ذلك اختاروا أنْ يظلُّوا مربوطين ببعضهم البعض في ظلمة الكهف.

مَن كان هذا "المرشِد المستنير الآتي مِن فوق" غير يسوع؟ مَن أتى ليقودنا للخروج مِن ظلمة الخطيَّة والموت، ليحلَّ أيدينا ويحرِّرنا؟ سِوَى المسيح الذي قال: «**فإنْ حرَّركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحرارًا**» (يوحنا ٨: ٣٦)، «**حيث روح الرَّب، هناك حريَّة**» (٢كو ٣: ١٧). المسيح يُحرِّرنا لنختبر: «**حريَّة مجد أولاد الله**» (رو٨: ٢١). مِن المؤسف أنَّ الكثيرين يختارون أنْ يَبقوا مُكبَّلين في ظلمة الكهف.

للحريَّة جانبان

كما ذكرنا سابقًا، للحريَّة جانبان، الجانب الأوَّل: الحريَّة مِن

from (التحرُّر مِن) شيء ما، والجانب الثَّاني: هو الحريَّة في for السَّعي نحو شيء آخر. التحرُّر مِن الأشياء هو الجانب السَّلبي للحريَّة، أمَّا الحريَّة في السَّعي نحو شيء ما، فذلك هو الجانب الإيجابي للحريَّة؛ فهو ينطوي على هدف أو غرض. الأوَّل هو حريَّة الاختيار، الثَّاني هو الحريَّة للنُّمو نحو الكمال. الجانبان معًا يُعتبران وسيلة لتحقيق غاية، كجسر يؤدِّي إلى المدينة.

الرَّجُل الغربي يريد أنْ يكون متحرِّرًا مِن شيء ما، لكن دون السَّعي نحو شيء آخر. هذا هو السبب في أنَّه يصاب بالملل مِن الحريَّة التي ليس لها أي هدف أو غرض بالنِّسبة له. الحريَّة التي لا يَحكمها هدف أو غرض أبعد، فإنَّها تصبح خاوية. عندما تحدَّث ربُّنا عن الحريَّة، فإنَّه كان يقصد كليهما: التحرُّر مِن، والحريَّة في السَّعي نحو. نحن لن نستمتع بثمار الحريَّة إلاَّ إذا تذكَّرنا أنَّ للحريَّة بُعدَيْن.

الحريَّة في السَّعي نحو FOR

أولئك الذين يتوقون إلى: "التحرُّر مِن"، إنَّما يريدون التحرُّر مِن القهر والتحرُّر مِن التعصُّب. ليس مِن الخطأ أنْ ترغب في هذه الحريَّة، وتُصلِّي مِن أجل الحصول عليها، وتعمل مِن أجل تحقيقها، لكن النَّاس يفوتهم بيت القصيد، عندما يفشلون في إدراك أنَّ للحريَّة هدفًا، وإلاَّ ما كانت حريَّة على الإطلاق. المسيح يَعِد "بالحريَّة في

السَّعي نحو". الحريَّة التي تَنبع مِن الثَّبات في كلام الله هي: "حريَّة مِن أجل"؛ حريَّة مِن أجل اختيار يسوع كربِّنا وإلهنا، الحريَّة في السَّعي نحو أنْ تكون شخصًا ذا خُلُق مسؤولاً، حريَّة في السَّعي نحو المساهمة في الصَّالح العام، حريَّة في السَّعي نحو الارتقاء إلى مُستوى توقُّعات إله كلِّي الصَّلاح والرَّأفة، حريَّة في أنْ نقول "لا" للشَّيطان، حتى نقدر أنْ نقول "نعم" للمسيح، حريَّة في خدمة قريبنا بحُب، حريَّة في عمل الصَّواب، في خدمة العدالة، في علاج المرضى، في مساعدة المحتاجين، في النِّضال من أجل السَّلام، في البحث عن الحق، في قبول المسيح لنحيا الحياة الأفضل، والتحرُّر مِن الخوف مِن الموت، لنسعى نحو الحياة الأبديَّة في المسيح يسوع.

التحرُّر مِن الخَوْف مِن المَوْت

كتب ذهبي الفم يقول:

[الذي يخشى المَوْت هو عَبْد].

لا يعيش حرًّا ولا يشعر بالحريَّة سِوى الشَّخص الذي لا يخشى المَوْت، ولكن العديد مِن النَّاس عبيد للخَوْف مِن المَوْت. جاء الرَّب يسوع ليحرِّرنا مِن هذا الخَوْف الرَّهيب فقال: «**أنا أمضي لأُعِدَّ لكم مكانًا، حتى حيث أكون أنا، تكونون أنتم أيضًا**» (يو١٤: ٢و٣). ونحن المؤمنين نُرنِّم ونُنشِد: "**المسيح قام مِن بَيْن الأموات. بموته داس**

المَوْت، والذين في القبور أنعم لهم بالحياة الأبديَّة".

إنَّ قَلَق الإنسان، الذي كان ولا يزال القَلَق الأساسي الـذي يكاد يصيبه بالشَّلل، القَلَق المرتبط بوجوده، هو الخَوْف مِن المَـوْت، إلاَّ أنَّ، مِن خلال قيامته، حرَّرنا الرَّب يسوع مِن عبوديَّـة المَـوْت البائسة (عب٢: ١٤-١٥).

أيقونة القيامة الرَّائعة التي تُصَوِّر: "النـزول إلى الجحيم"، تُعَبِّـر عن هذه الحقيقة بقوَّة، حيث تُظْهِر المسيح القائم وهو يرفع إلى خـارج الجحيم آدم وحواء وكل أبرار العهد القديم، يقيمهم خـارج الهاويـة المظلمة (التي تُذَكِّرنا بكهف أفلاطون)، ويقودهم إلى حيـاة جديـدة يغمرها نور المسيح. إنَّها أيقونة تُعْلِن التحرُّر مِن الخَوْف مِن المَوْت.

حُرٌّ أنْ أصير ما خلقني الله لأجله

المسيح حرَّرنا، الآن نحن أحرار لنكون تلاميذ ليسوع ونـسير خلفه. لقد تحرَّرنا مِن القَلَق. تحرَّرنا مِن الخطيَّة والذَّنب: «**إذًا لا شـيء مِن الدَّينونة الآن، على الذين هم في المسيح يسوع، السَّالكين ليس حسب الجسد بل حسب الرُّوح**» (رومية ٨: ١-٢). نحن أحرارٌ مِـن أغـلال العالم البائس الذي يتمرَّغ في اليأس. نحن أحـرار في أنْ نفـرح بينمـا الآخرون مكتئبون. نحن أحرار لنسير في النُّور بينما الآخَـرون قـانعون

بالبقاء في ظلمة الخطيَّة. نحن أحرار أنْ ننمي إمكانية "التألُّه theosis" التي وضعها الله داخلنا. الله خلقنا لنكون أشخاصًا رائعين شبه الله، نحن أحرار في أنْ نكون هؤلاء الأشخاص. نحن أحرار في أنْ نصبح قدِّيسين كما أنَّ الله قدُّوس. نحن أحرار في أنْ نعيش في وئام مع ذاك الذي خلقنا، الذي يحبنا، والذي أعطانا ابنه ليخلِّصنا. نحن تحرَّرنا مِن أنْ نكون عبيدًا للخطيَّة مِن أجل أنْ نخدم بعضنا البعض بمحبَّة.

ولأنَّ للحريَّة جانبَيْن: جانبًا إيجابيًّا وجانبًا سلبيًّا، الحريَّة مِن والحريَّة في السَّعي نحو، لذلك اقترح د. فيكتور فرانكل Dr. Victor Frankyl أنْ نضع تمثالاً آخَرَ للحريَّة على السَّاحل الغربي. يقول د. فيكتور: "على السَّاحل الشَّرقي، لدينا تمثال الحريَّة (التحرُّر مِن)"؛ ويضيف قائلاً: " نحن بحاجة إلى إقامة تمثال للمسؤوليَّة (الحريَّة في السَّعي نحو) على السَّاحل الغربي".

حريَّة مجد أولاد الله

وما يضمن أنْ تتحقَّق فينا: «**حريَّة مجد أولاد الله**»، هو سُكنى الله، الآب والابن والرُّوح القُدُس في داخلنا. حيث يوجد الله، تكون هناك حريَّة حقيقيَّة. حيث لا يوجد الله، تكون هناك حريَّة مزيَّفة أو عبوديَّة. الكثير مِن الملحدين، مثل ريتشارد داوكنز Richard Dawkins يعتقدون أنَّ الإرادة الحُرَّة هي وَهْم، لكنَّه يقول إنَّ

الاعتقاد في الإرادة الحرَّة منتشر بدرجة كبيرة حتى أنَّه ينبغي أنْ نتعايش مع هذا الاعتقاد.

لو طُلبَ منَّا أن نُعَرِّف ما هي: «**حريَّة مجد أولاد الله**»، كيف يمكننا أنْ نُعَرِّفها؟ بولس الرَّسول عرَّفَها أنَّها التحرُّر من عبوديَّة الجسد الاستحواذيَّة من أجل أنْ نكون عبيدًا لبعضنا البعض في المحبَّة.

«**فإنَّكم إنَّما دُعيتم للحريَّة أيُّها الإخوة، غَيْر أنَّه لا تُصَيِّروا الحريَّة فُرصة للجسد، بل بالمحبَّة اخدموا بعضكم بعضًا**» (غلا ٥: ١٣)، «**لأنَّ كلَّ النَّاموس في كلمة واحدة يُكمَل، تُحِب قريبك كنفسك**» (غل ٥: ١٤). والملاحظة الجديرة بالاهتمام هي وجود كلمة "اخدموا" وكلمة "حريَّة" في نفس السِّياق.

يخبرنا بولس الرَّسول أنَّ الحريَّة تُمارَس بشكل صحيح عندما نُخضِع ذواتنا بإرادتنا ليسوع ليسود عليها، عندما نُسَلِّم ذواتنا بإرادتنا لخدمته، وعندما نَقبل بإرادتنا أنْ نقوم بدور تلميذ وتابع ليسوع؛ عندما نقوم بذلك، سنُدرِك حقيقة كلمات الرَّب يسوع: «**تعرفون الحقَّ... والحقُّ يحرِّركم**» (يو٨: ٣٢) في الأساس، المسيحيَّة تدور حول الحريَّة، الحريَّة الحقيقيَّة، التي تنبع من معرفة الحق في المسيح، والخضوع لذلك الحق: «**تعرفون الحقَّ... والحقُّ يحرِّركم**».

الحريَّة والحق

الحريَّة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالحق. بالنِّسبة لنا نحن المسيحيِّين، فإنَّ الحق هو أقنوم (شخص)، الرَّب يسوع. إذا كانت حريَّتنا ترتكز على يسوع، فإنَّها تفكُّ قيودنا، إنَّها تحرِّرنا. الحريَّة التي تؤسَّس على المسيح الذي هو الحق، هي الحريَّة الحقيقيَّة. الحريَّة التي لا تؤسَّس على المسيح، الحق، هي حريَّة زائفة أو ترخيص للانحلال. تلك الحريَّة الزائفة تجعلنا عبيدًا لإرادتنا، عبيدًا للسَّعي وراء الملذَّات، عبيدًا للسُّلطة وللمقتنيات. عندما يحدث ذلك، فإنَّنا نستبدل الحريَّة الحقيقيَّة بالحريَّة الزَّائفة، وتلك الحريَّة الزَّائفة تجعلنا عبيدًا لأهوائنا.

كَتَب سي. لويس C.S. Lewis يقول:

"أنا لم أولد لأكون حرًّا، لقد ولدتُ لأعبُد ولأطيع".

يقول لنا إنَّه في العبادة والطاعة نجد الحريَّة الحقيقيَّة.

يشرح جورج ويجل George Weigel كيف يؤدِّي انفصال الحريَّة عن الحق إلى الفوضى فيقول:

"الحريَّة غير المربوطة بالحق هي أسوأ عدو للحريَّة، لأنَّه إذا لم يكن هناك سوى الحق الخاص بك والحق الخاص بي، ولا أحد منَّا يعترف بوجود معيار أخلاقي متعالٍ (أي الحق) الذي نرجع إليه للفصل في خلافاتنا، إذن فالسَّبيل الوحيد لتسوية النزاع هو إمَّا أنْ تفرض أنت قوَّتك عليَّ أو أنا

أفرض قوَّتي عليك. الحريَّة غير المربوطة بالحق تؤدِّي إلى الشَّغب، والشَّغب يؤدِّي إلى الفوضى. وبما أنَّ البَشَر لا يتساهلون مع الفوضى، فالطُّغيان كحل لحاجة البشر الملحَّة للنظام يصبح قاب قوسَيْن أو أدنى".

التحرُّر مِن أجل الخدمة

ابن الله أخذ جسدنا ليحرِّرنا مِن كلِّ شكلٍ مِن أشكال الاستعباد، ليحرِّرنا مِن كلِّ ما يعطِّلنا عن أنْ نكون بَشَرًا على نحو أصيل وحقيقي، ليحرِّرنا مِن كل ما يعوقنا عن الاتِّحاد بالله وشعبه، ليحررنا من كل ما يجعلنا إما مستعبَدين أو مستعبِدين.

توقَّف للحظة وفكِّر فيما يلي: أولاً: هل يوجد في حياتك أشخاص أنت تستعبدهم مِن خلال عدم السَّماح لهم أنْ يُحقِّقوا ما خلقهم الله لأجله عن طريق إنكارك أو قمعك لشخصيَّتهم، أو مواهبهم التي منحها الله لهم. وثانيًا: تأمَّل في العدد الهائل مِن الأشياء التي نستعبد أنفسنا لها. فنحن مِن الممكن ليس فقط أنْ نكون مستعَبدين بل أيضًا مستعبِدين.

التحرُّر مِن العبودية هو مجرَّد البداية. التحرُّر "مِن from" ليست النِّهاية بل هي البداية، فنحن نتحرَّر مِن أجل أنْ نسعى نحو for شيء. لقد تحرَّرنا مِن الخطيَّة مِن أجل أنْ نصير شركاء مجد الله.

إذا كنتَ تريد أنْ تعرف إلى أي مدى أنت حُـر، فاسـأل نفسك سؤالاً بسيطًا: ما هو مقدار الخدمة في حياتك: خدمـة الله؟ خدمة الآخرين؟ وما هو مقدار خدمتك لنفسك؟

يمكننا أنْ نكون ناراً مِن أجل الله

قصَّة:

هناك قصَّة رائعة مِن قصص آباء البريَّة توضِّح الإمكانيات الهائلة التي تكمن في عبارة «**حريَّة مجد أولاد الله**». ذات يوم سأل أنبا لوط Lot الأنبا يوسف قائلاً: "يا أبي، أنا أصوم قليلاً، أُصلِّي وأتأمَّـل وأحيـا في سلام بقدر ما أستطيع، أُنقِّي أفكاري. فبالإضافة إلى ما سبق ماذا يمكنني أن أفعل؟"

وقف أنبا يوسف ورفع يديه نحو السَّماء، وتوهَّجـت أصـابعه العشرة مثل شعلة النار وقال: "إنْ شئت، تقدر أنْ تصير بجملتك نارًا".

إنْ شئتَ! إنَّها مسألة اختيار. تلك هي الإمكانيات الهائلة التي تتدفَّق مِن«**حريَّة مجد أولاد الله**». إذا شئنا، نقدر أنْ نصير بجملتنا نارًا مِن أجل الله.

لديك الحريَّة أنْ تكون الرَّئيس التَّنفيذي لحياتك

في المسيح، أنا الرَّئيس التنفيذي لحياتي، بمعنى أنَّـني حُـر في

اختياراتي، أنا لديَّ حريَّة التحكُّم في مملكة ذاتي؛ لذلك، عندما أتبع المسيح ونعمته فأنا أُفضِّل أنْ أختار الخدمة على الأنانيَّة، الإيمان على الخوف، أفضِّل الحب على الكراهيَّة، السَّلام على القلق، التَّسامح على العداوة، أنْ أخدِم على أنْ أُخدَم، الانسجام على الخصام، الخَيْر على الشَّر، الفضيلة على الخطيَّة. عندما أُفضِّل كل هذه الاختيارات، أكون بالفعل إنسانًا حرًّا، وأصير بالفعل الرَّئيس التنفيذي لحياتي.

على حد تعبير بيتر كريفت Peter Kreeft:

"الخطيَّة هي الزَّيْف، الحريَّة هي الأصالة. الخطيَّة هي ذاتنا الزَّائفة، الحريَّة هي ذاتنا الحقيقيَّة. الخطيَّة هي جزءٌ مِن الجحيم، الحريَّة جزءٌ مِن الملكوت".

مخلوقٌ لتَخضع لله

ذات يوم قابل شخص مدمن للمخدِّرات يدعى جون صديقًا مسيحيًّا، وقال له: "أنا كاره لمشكلة الإدمان التي تسلَّطَت عليَّ. أنا أعلم أنِّي بحاجة إلى أنْ أصبح شخصًا حرًّا حقًّا؛ إلاَّ أنَّني لا أستطيع أنْ أتصوَّر أنْ أكون غير خاضع لشيء". أجابه صديقه المسيحي قائلاً: "ولا أنا أستطيع ذلك. هل خطر ببالك في أي وقت مضى أنَّ الله خلقنا لنخضع لشيءٍ صالح، وبالتَّحديد لنخضع له؟"

بنعمة الله، استطاع جون أنْ ينقل خضوعه مِن المخدِّرات إلى

خضوعٍ للرَّب يسوع، فقد وجد في خضوعه ليسوع، التحرُّر مِن المخدِّرات الذي كان يتوق بشدَّة إليه. عندما نقل خضوعه مِن المخدِّرات إلى الرَّب يسوع، نال جون حريَّته.

«فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضًا بنير عبوديَّة» (غل ٥: ١).

عبْد - أجير - حُر

وفقًا للتَّعاليم المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة، هناك ثلاثة أنواع مِن المسيحيِّين.

أوَّل نَوْع هو المسيحي الذي يعمل إرادة الله لأنَّه يخشى الذِّهاب إلى الجحيم. حبُّه ليس الحُب النَّقي لأنَّه مهتمٌّ بما في صالحه، فهو لا يريد أنْ يعاقَب بذهابه إلى الجحيم، لذا فهو يعمل إرادة الله مِن منطَلَق الخَوْف. مثل ذلك الشَّخص يُدعى عبدًا لأنه يعمل كالعبد. أخلاقيَّاته تتَّصف بالخنوع. علاقته بالله ليست علاقة ابن بأبيه أو ابنة بأبيها، بل هي علاقة عبد بسيِّده. إنَّها علاقة خوف، والكنيسة تؤمن أنَّه حتى العبد مِن الممكن أنْ يخلُص، لأنَّ الله يحب حتى العبيد على الرغم مِن عيوبهم؛ والعبد في طريقه إلى أن يصبح مسيحيًّا صالحًا على الرغم مِن أنَّ دوافعه ليست دوافع نقيَّة. إذا، أوَّلاً، يوجد العبْد الذي يعمل إرادة الله مِن منطَلَق الخَوْف ولأجل الهروب مِن الجحيم.

النَّوْع الثَّاني مِن المسيحيِّين هو الأجير، وهو الشَّخص الذي يعمل بالأجرة مثل العمَّال الذين يعملون مقابل أجر. بعبارة أخرى، الأجير يفعل الصَّلاح لأنَّه ينتظر مكافأة مِن الله مقابل أعماله، فهو يريد أنْ ينال الأجرة مقابل أعماله. ولكن، الله يُحِب أيضًا الأجير على الرغم مِن عيوبه مثلما يُحِب العبد؛ فالله يريد أنَّ الجميع يخلصون ويأتون إلى معرفة الحق. إذًا، النَّوْع الثاني هو الأجير.

مِن وجهة النَّظر المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة، **النَّوْع الثَّالث** مِن المسيحيِّين هو الأعلى، ليس هو العبْد ولا الأجير بل هو الشَّخص الذي يُحِب الله وإخوانه مِن البَشَر حُبًّا عفويًّا وليس لأجل أغراض أنانيَّة. ذلك الشخص لا يفكر في الذِّهاب إلى الجحيم، ولا يبالي بالحصول على مكافأة مقابل أي شيء. لقد اكتسب الحريَّة الحقيقيَّة، لأنَّه تحرَّر مِن الخَوْف مِن الجحيم، وتحرَّر مِن انتظار المكافأة على أعماله. لأنَّه عندما يعيش الإنسان في حالة مِن النِّعمة، وعندما يسلم حياته لله كل يوم في الصلاة، وعندما يَقبل المسيح بالإيمان في الإفخارستيا، وعندما يطلب يوميًّا وجود الرُّوح القُدُس في حياته، حينئذ تقوى إرادته بنعمة الله ليصل إلى هذا النَّوْع من الكمال: أنْ لا يكون عبدًا ولا أجيرًا، بل يُحب الله والناس بصورة عفويَّة، يحبُّهم بإرادته بعيدًا عن التَّفكير في العقوبة أو المكافأة.

إنَّ كلمة الله في الكتاب المقدَّس تدعونا باستمرار إلى استخدام إرادتنا الحرَّة مِن أجل أنْ نقوم بأسمى اختيار في الحياة، الاختيار الأسمى مِن كل اختيار آخر، الاختيار الذي تتوقَّف عليه أبديَّة كل واحد منَّا، الاختيار الذي لأجله أعطانا الله الإرادة الحرَّة في المقام الأول، وهو أنْ: «**تُحب الرَّب إلهك مِن كل قلبك، ومِن كل نفسك، ومِن كل قدرتك، ومِن كل فكرك؛ وقريبك مثل نفسك**» (انظر مر١٢: ٣٠-٣١).

عندما نختار أنْ نحبَّ الله والقريب بكل كياننا، فإنَّنا سنجد الحياة والحريَّة.

الحُب والحريَّة

حُب الله والحريَّة يتماشيان معًا، تمامًا مثلما يتماشى الحق والحريَّة معًا. الجهاد في حفظ وصيَّة المحبَّة هو جهاد مِن أجل تعزيز الحريَّة، تمامًا كما يتشابه اختبار (تذوُّق) الحُب الحقيقي واختبار الحريَّة. نقرأ في كتاب "الاقتداء بالمسيح imitation of Christ" عن العلاقة بين الحُب والحريَّة:

"**حُب الله يُحَلِّق ويجري ويفرح، فهو حُر ولا يقيِّده شيء**".

لو كان الحُب غير حُر، لو كان بالإكراه، لا يكون حُبًّا. هنا لابد أن نسأل أنفسنا بضعة أسئلة شخصيَّة:

هل حُبِّي للنَّاس الموجودين في حياتي يُحرِّرهم أم يستعبدهم مِن

خلال فرض قيود كثيرة على هذا الحُب؟ هل حُبِّي للنَّاس يحـرِّرهم ليكتشفوا هويَّتهم الفريدة ومواهبهم الخاصَّة التي منحها الله لهـم؟ أم هل أنا أحاول الضَّغط على النَّاس ليطابقوا ولو بالعنف الفكـرة أو القالب الذي أعددته مسبقًا للصُّورة التي ينبغي أنْ يكونوا عليها؟

الحُب يُحَسِّن الطَّبيعة ولا يدمِّر حريَّة إرادتنا. بالأحرى، الحُب الحقيقي يُغذِّي، ويوسِّع ويعزِّز الحريَّة.

عبَّر الأب لوك فيرونيس Fr. Luke Veronis عـن العلاقـة الحميمة بَيْن الحريَّة والحُب عندما قال في إحدى المقابلات:

"الحُب الحقيقي لا ينبع إلاَّ من الحريَّة، وهذا الحُب الحقيقي هو الذي بسببه خلق الله العالم. خلق الله آدم وحـواء واحتـرم حريَّتهما في التمرُّد. لم يحتقرهما بسبب ذلك ولم ينه حبَّه لهمـا. وعلى الرغم من أنَّهما أساءا استخدام حريَّتهما، إلاَّ أنَّه ظـلَّ يحبُّهما. نحن في حاجة إلى أنْ نقلِّد هـذا الحُـب الإلهـي وأنْ نُحاكيه في حياتنا".

أوهام اليوتوبيا Utopianism

كتب أيرفينج كريستول Irving Kristol أنَّ التطوُّر السِّياسي الأكثر أهميَّة في القرن التَّاسع عشر كان ضياع الإيمان الدِّيني . عنـدما يفقد الإنسان الإيمان بالله، فإنَّ الألم الموجِع المرتبط بـالفراغ الـدَّاخلي

يبحث بإلحاح عن شيء يملأ به هذا الفراغ. في كثير مِن الأحيان تنخرط النفس الفارغة في أوهام اليوتوبيا (المثاليَّة الوهميَّة) التي تتسبَّب في موت الحريَّة. يمكنني أنْ أُعرِّف الـ (يوتوبيا) أنَّها نظامٌ سياسيٌّ يَعِد بكلِّ شيء ولا يفي بشيء ممَّا وعد به، يعد بالنَّعيم ويفي بالجحيم.

عندما بزغ فجر القرن العشرين، اتَّخذت اليوتوبيا شكل الثُّلاثي الشُّمولي العظيم (هتلر Hitler، ستالين Stalin، ماو Mao). جميعهم وعدوا بالنَّعيم وخلقوا جحيمًا حقيقيًّا على الأرض. استندت كل أنظمة اليوتوبيا على الإلحاد، وحرموا الشُّعوب مِن إرادتهم الحرَّة وحوَّلوهم إلى عبيد؛ أمَّا اليوتوبيا الأخرى التي تدخَّلت لتملأ الفراغ فقد كانت هي المخدِّرات، التي خلقت طبقة جديدة مِن العبيد أسرى المخدِّرات.

مِن دون الله لا توجد حريَّة أصليَّة، لا يوجد سوى العبوديَّة، الجحيم والمَوْت.

«فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضًا بنير عبوديَّة» (غل ٥: ١).

ثمن الحريَّة

يوجد لافتة عند النَّصب التِّذكاري للحرْب الكوريَّة في واشنطن مكتوب فيها: "الحريَّة ليست بالمجَّان". نحن نَعلم أنَّ اليقظة المستمرَّة eternal vigilance هي ثمن الحريَّة. حقًّا الحريَّة ليست

مجانيَّة. ثمن حريَّتنا الذي كان لابد أنْ يُدفَع هو صليب يسوع المسيح.

ولا حتَّى الله نفسه استطاع أنْ يجعل ثمن الحريَّة "أقل تكلفة"، لذلك، يقول القدِّيس بولس الرَّسول: «**قد اشتُريتم بثمن؛ ولا ترتبكوا أيضًا بنير عبوديَّة**» (١كو٦: ٢٠- غل ٥: ١). بعيدًا عن المسيح، لا يتمتَّع الإنسان بالحريَّة الحقيقيَّة.

الله خلقنا لنحيا أحرارًا وليس عبيدًا، ومع ذلك فإنَّنا على الدَّوام ندير ظهورنا لله، ونسعى وراء الحريَّة من خلال الاستقلال عن الله والانفصال عنه. إلاَّ أنَّه، عوضًا عن تحقيق الحريَّة، فإنَّ هذا العصيان يجعلنا عبيدًا لإرادتنا، ولشهواتنا، ولرغباتنا. تلك هي القيود التي وصفها بولس الرَّسول حين قال: «**لأنَّ الإرادة حاضرة عندي، وأمَّا أنْ أفعل الحُسنى فلستُ أجد. لأنِّي لستُ أفعل الصَّالح الذي أريده بل الشَّر الذي لستُ أريده إيَّاه أفعل**» (رو٧: ١٨-١٩).

قال إبكتيتوس Epictetus:

"ليس حرًّا مَن لا يكون سيِّد نفسه".

في المسيح فقط نجد القوَّة التي بها نحكُم ذواتنا. التحكُّم في الذَّات أو ضبط النَّفس هو أحد مواهب الرُّوح القُدُس. عندما تسود الشَّهوات نتحوَّل إلى عبيد لها. ولا نكون بعد أحرارًا في فعل الصَّالح الذي نريده

كما قال الرَّسول بولس، أي أنَّنا نصبح سلبيِّين (مذعنين) ونفقد القدرة على العمل الإيجابي، لأنَّنا في الواقع نكون فاقدين لزمام الأمور، ونكون مسلوبي الإرادة كأنَّنا رهائن للشَّيطان. تلك هي العبوديَّة القبيحة التي لا يقدر أنْ ينقذنا منها سوى المخلِّص.

المشاعر تَستعبِد

يضيف لنا الأخ Aidan من جبل آثوس كيف تجعلنا المشاعر عبيدًا لطبيعتنا الأدنى فيقول:

"مأساة السُّقوط هي أنَّ الإنسان سمح لاتِّجاه الحركة (إلى فوق) المحدَّد من قِبَل الله أنْ ينعكس: و بدلاً من قيادة الأوركسترا الكَوْني، سمح الإنسان السَّاقط للكَوْن الأدنى أنْ يقوده. وهكذا تمَّ تدمير القصد الأصلي من الخليقة. هذا هو السَّبب الذي جعل الآباء يستخدمون لفظ الهَوَى (الشَّهوة) لوصف الخطايا التي تُسيطِر علينا، فنحن نعاني من طبيعتنا الأدنى ونصير عبيدًا سلبيِّين لها، ونتوقَّف عن العمل (المُضي قُدُمًا) ونصير مسلوبي الإرادة، وبحماقة نتنازل عن قدرتنا على السِّيادة ونخضع لسيادة أسيادٍ قساة".

وَصَف القدِّيس أوغسطينوس العبوديَّة الهيوليَّة (الفوضويَّة) للمشاعر بتعبيرات تصويريَّة فقال:

[الأحاسيس تَهيج مثل الطُّغاة، فتصيب نفس الإنسان وحياته بالكامل بالارتباك بما تُحدثه من عواصف من كل صَوْب، الخوف من جانب، الرَّغبات من الجانب الآخر، والقلق من جانب آخر، أو البهجة الفارغة الزَّائفة، هنا ألم من أجل خسارة شيء محبوب، هناك لهفة للحصول على ما ينقص من المقتنيات، هناك حزن بسبب ما حلَّ من أذى، وهنا رغبة حارقة للانتقام من الذين كانوا سبب هذا الأذى. أينما يتلفَّت الإنسان، الطَّمع يُقيِّده، وانغماس النَّفس في الملذَّات تستنزفه، الطُّموح يُسَيْطِر عليه، الكبرياء تنفخه، الغَيْرَة تُعذِّبه، الكسل يُخدِّره، العناد يُحرِّضه، القَمْع يُغضبه، وكل المشاعر الأخرى التي لا تُعد ولا تُحصى والتي تحتشد وتستغل قوة الهَوَى (الشهوات)].

مَن أخذ الكلب في نزهة؟

عندما تأخذ سيِّدة عجوز ضئيلة الجسد كلبها الضخم Great Dane في نزهة، فإنَّ الكلب سيجرُّها طوال الطَّريق من شجرة إلى شجرة. وبينما هي تظن أنَّها أخذت الكلب في نزهة، فإنَّ حقيقة الأمر هي أنَّ الكلب هو الذي يجرُّها خلفه في تلك النُّزهة. وهذا ما يحدث معنا عندما تسود علينا الشَّهوات فهي تصيبنا بالعَمَى، وهي تجرُّنا في كلِّ مكان دون أنْ ندرك أنَّنا لم نَعد أحرارًا: لقد أصبحنا مسلوبي الإرادة.

الشَّهوات تصيبُنا بالعَمَى

الشَّهوات بكل تأكيد تصيب الذين تتملَّكهم بالعمى، وهو ما عبَّر عنه يفتوشينكو Yevgeny Yeftushenko عندما قال إنَّ الشَّخص الواقع تمامًا تحت العبوديَّة، حتى لو أُطلق سراحه في أي وقت، فإنَّه يتوق إلى العودة إلى القفص. ذلك القفص الذي يُمَثِّل العبوديَّة يصبح هو الحقيقة الوحيدة بالنِّسبة له.

اسمح لي أن أُوَجِّه لك أسئلة شخصيَّة إلى حدٍّ ما: بالنِّسبة لك ما هي العبوديَّة التي أنت واقع تحتها، ما هي الدَّوافع التي لا تقاوَم وما هو الإدمان الخاص بك؟ ما هي المعطِّلات التي تمنعك مِن الوصول إلى ما تقدر أنْ تصل إليه، والتي تمنعك مِن الوصول إلى ما يريدك الله أنْ تصل إليه؟ لو أنتَ على دراية ما هي الدَّوافع القهريَّة الخاصَّة بك، فعليك أنْ تلجأ إلى الله طالبًا المعونة؛ فأنت في حاجة إلى أنْ تُسَلِّم هذه الدَّوافع القهريَّة لله وتصارعها كلَّ يوم حتى تتحرَّر منها بنعمة الله وتختبر: «**حريَّة مجد أولاد الله**».

حُرٌّ لأوَّل مرَّة

عندما يسافر شاب تاركًا قريته الصغيرة متوجِّهًا إلى المدينة، فإنَّه يظن أنَّه سيكون حرًّا لأوَّل مرَّة في حياته. حاوِل أنْ تتخيَّل نفسك لبرهة أنَّك تركتَ قريتك الصَّغيرة وسافرتَ إلى مدينة كبيرة، وأنَّ هناك أشياء

أنتَ لا تحلم بالقيام بها في قريتك، ربَّما مِن منطلق احترام لوالديك، ربَّما بسبب الخَوْف مِن توبيخ الآخرين الذين يراقبون كل تصرفاتك في تلك القرية الصَّغيرة، ثم، ذات يوم تخاطب نفسك قائلاً لها: "أنا الآن حُر، أنا الآن في مدينة كبيرة، لا يدري بي أحدٌ، لن يعرف والدَاي أيَّ شيء عن تصرُّفاتي، لن أتعرض للنَّقد أو التوبيخ مِن أيِّ شخص". وبخروجك عن المعايير الأخلاقيَّة الخاصَّة بك، تتحوَّل إلى ابن ضال/ ابنة ضالة. ثمَّ إذا بك تجد نفسك ذات ليلة غير قادر على النَّوْم وتدخل في جدال مع ذاتك في منتصف اللَّيْل وأنت تحاول جاهدًا أنْ تنام. ففي السَّاعة الثَّانية تخاطب نفسك قائلاً لها: "أنا لا أعتقد أنَّني ارتكبتُ خطأً جسيمًا". بعد نصف ساعة تكمل النِّقاش قائلاً: "على أيِّ حال لن يعرف والداي أي شيء عن هذا الأمر". في الثَّالثة مِن منتصف الليل تقول لذاتك: "لن ينكشف أمري لأيِّ شخص". بعد ساعة تكمل: "كل الناس يفعلون ذلك". ثم بعد نصف ساعة أخرى تقول لذاتك: "أنا لن أقدر أنْ أتعافى مِن هذا الأمر. كيف يمكنني أنْ أواصل حياتي وأنا على هذا الحال؟"

هل هذا ما تسمِّيه الحريَّة؟ وأنتَ مُطارَدٌ بالإحساس بالذَّنب؟ غير قادر على النَوْم؟ فاقد لاحترامك لذَاتك؟ لقد كنتَ تظن أنَّك ستكون حرًّا، لكن انتهى بك المطاف إلى أنْ تكون سجينًا، سجينًا، سجينًا لضميرك، ومصابًا بالإحساس بعدم القدرة على مواصلة الحياة مع ذاتك.

سجن العادة

قد ينتهي بك المطاف أنْ تكون سجينًا في سجنٍ آخر – غَيْر سجن الضَّمير– وهو سجن العادة. عندما سافرتَ من بلدتك إلى المدينة الكبيرة وأنتَ غير مرتبط بعادات معيَّنة تتنافى مع ما تعلَّمته من والديك، ثمَّ قلتَ لنفسك: "الآن أنا حُر. أنا لستُ مضطرًّا أنْ أخضع لرغباتهم بعد الآن، أستطيع أنْ أفعل ما يحلو لي". بعد ذلك فعلت شيئًا ما لأوَّل مرَّة في سريَّة تامَّة، مع أنَّك كنت كارهًا لهذا الفِعْل لإحساسك أنَّه غير طاهر وحقير، كما كنتَ تشعر بشيء من الخجل تجاهه. في المرَّة التَّالية، كان الأمر أسهل، ومرَّة تلو الأخرى كان الأمر يزداد سهولة، وصَوْت الضَّمير يضعف شيئًا فشيئًا، وكنتَ أنتَ تظن: "الآن يمكنني أنْ أفعل هذا الأمر دون أي مشاعر سلبيَّة"، كما كنتَ تظن بالطَّبع: "أنا في إمكاني أنْ أَكُفَّ عن هذا الأمر في أيِّ وقتٍ يروق لي، أنا لديَّ مُطْلَق الحريَّة أنْ أكسر هذه العادة في أيِّ وقت أريده".

لكن هل فعلاً تقدر أنْ تَكُفَّ عن هذا الأمر؟ في أغلب الأحيان لن تستطيع.

حُرٌّ! لكن هل تقدر أنْ تَكُفَّ عن هذا الأمر؟

ذات مرَّة قال شاب مخاطبًا واعظًا كان يلقي عِظة عن ضرورة الامتناع عن السِّباب (الشَّتيمة): "أنا أَسِب بصفَّة مستمرَّة". صَمَت

الواعظ للحظة ثم قال: "حسنًا، لكن هل تقدر أنْ تَكُفَّ عن السِّباب؟" أجاب الشَّاب: "لكنِّي لا أريد أنْ أَكُفَّ عن السِّباب، فما السَّبب الذي يدفعني لذلك؟" أجاب الواعظ: "أنا لم أسألك هل تريد أنْ تَكُفَّ، أنا سألتك هل تقدر أنْ تَكُفَّ عن السِّباب".

ما نظن أنَّها الحريَّة هي في حقيقة الأمر ليست حريَّة على الإطلاق، إنَّها عبوديَّة. لهذا قال الرَّب يسوع: «**كل من يعمل الخطيَّة هو عبدٌ للخطيَّة**».

مَثَل النَّسْر

قصَّة:

أودُّ أنْ أشارككم مَثَل النَّسر! في إحدى الأيَّام القارصة البرودة، في مكان مرتفع فوق نهر نياجرا، وقف نَسر ذهبي ضخم فَوْق قمَّة أحد المنحدرات. رأى النَّسر في الماء المتدفِّق في الأسفل جثَّة حيوان تطفو على سطح النَّهر على بُعْد بضعة أميال من الشلاَّلات الشَّهيرة، ويا لها من وجبة رائعة لطائر جائع. فَرَدَ النَّسر جناحَيْه العريضَيْن وطار مُحلِّقًا حول الجثَّة ثمَّ انقضَّ عليها، وغرس مخالبه فيها وبدأ يُشبِع جوعه فيها. بعد فترة من الوقت بدأ يسمع صوت المياه المندفعة في اتِّجاه الشلاَّلات لكنه طمأن نفسه: "أنا لديَّ مُطلق الحريَّة، أنا أقدر أنْ أُحلِّق في اللَّحظة الأخيرة قَبْل أنْ تنجرف الجثَّة

لتسقط مِن حافَّة الشلاَّلات، سأطير عائدًا إلى الجبال بكلِّ حريَّة". لذلك عندما وصلت الجثَّة إلى حافَّة الشلاَّلات، فرد النَّسر جناحَيْه الجبَّارَيْن وتأهَّب للطَّيران لكن... كانت مخالبه المغروسة في الجثَّة قد تجمَّدت مِن شدَّة البرودة وأفقدته القدرة على الطَّيران، فانجرف النَّسر وسقط مِن حافَّة الشلاَّلات وهلك.

لاحِظ ذلك! بينما كان النَّسر يقول لنفسه: "أنا لديَّ مُطلق الحريَّة، سأطير تاركًا هذه الجثَّة في أيِّ وقت"، كان ارتباطه يتحوَّل إلى قيود لا مفرَّ منها، وكانت القبضة الجليديَّة على قدمَيْه تصبح أكثر إحكامًا.

أليس في هذه القصَّة عبرة لنا؟ ألسنا كلّنا نقول عن العادات التي نكتسبها: "أنا أقدر أنْ أتخلَّص مِن هذه العادة في الوقت الذي أحبُّه، ألستُ أنا حرًّ؟"

لكن هل نحن بالفعل أحرار؟ نحن نقع في شَرَك العادات ونصير عبيدًا لها.

الصَّوْم كوسيلة للحريَّة

قد يبدو الصَّوْم أبعد ما يكون عن الحريَّة، ولكن الحقيقة هي أنَّ الصَّوْم يمكن أنْ يكون عونًا كبيرًا نحو الحريَّة. إنَّنا غالبًا ما نظنَّ أنَّ الحريَّة

هي أنْ نفعل كلَّ الأشياء حتى تلك التي لا نتوق إليها. على سبيل المثال، يخضع ضبَّاط البحريَّة وقوَّات الجَيْش الخاصَّة لتدريبات عنيفة، ويجتازون دورات تدريبيَّة شاقَّة. قد يبدو أنَّ هذه التَّدريبات الصَّارمة تتنافى مع الحريَّة، إلاَّ أنَّ في حقيقة الأمر، مِن خلال هذه التَّدريبات يكون لدى تلك الصَّفوة مِن القوَّات، الحريَّة في القيام بأمور لا يقدر الذين لم يخضعوا لتلك التَّدريبات الصَّارمة، مُجَرَّد أنْ يحلموا بالقيام بها.

نفس الشيء بالنسبة للصَّوْم. الامتناع عن الطَّعام لفترة مِن الوقت وبمقاومة الجوع، قد يبدو لنا أنَّهما معاناة لا تَمُتُّ للحريَّة بِصِلَة، إلاَّ أنَّ الصَّوْم المليء بالصَّلوات يمكن أنْ يساعدك على تحقيق ما كنتَ تعتقد أنَّه أمر مستحيل، فهو يمكنه أنْ يُحرِّرك ويسندك لتصبح كما يريدك الله أنْ تكون.

في الحقيقة معظمنا لا يتمتَّعون بالحريَّة الكاملة. في كثير مِن الأحيان نكون عبيدًا للدَّوافع والأهواء الداخليَّة القويَّة، ونَقَع أسرى العيوب الشخصيَّة، العادات، والإدمان بكل صُوَرِه، كل تلك الأمور التي نجد صعوبة في السَّيطرة عليها. إذا كنَّا لا نقدر أنْ نقول "لا" للإباحيَّة وللشَّهوة، إذا كنَّا لا نقدر أنْ نقول "لا" لنَوْبات الغضب، إذا كنَّا لا نقدر أنْ نقول "لا" للكذب، إذا كنَّا دومًا نختار الطَّريق الرحب، فالكنيسة توصي بممارسة الصَّوْم المليء بالصَّلاة، باعتباره

السَّبيل الذي يدَرِّبك فيه الرُّوح القُدُس على ضبط النَّفس، حتى تقدر أنْ تقول "لا" للشَّهوات الخاطئة التي تنبثق مِن الدَّاخل.

الله يريدنا أنْ نختار الملكوت

الله لا يُرسِل أحدًا إلى الجحيم، كما أنَّه لا يُرسِل أحـــدًا إلى الملكوت. إذن ما الذي يؤدِّي بنا إلى الجحيم أو الملكوت؟ نحن نختار الملكوت أو الجحيم، وذلك باستخدام عطيَّة الإرادة الحرَّة التي منحنا الله إيَّاها. هدفنا ليس أنْ نصل إلى الملكوت في الآخرة بل أنْ نختـــار بدون إجبار أنْ نعيش في حالة شركة دائمة مع الله، تبدأ هنا في هذه الحياة. هذه الشَّركة اليوميَّة مع الله (وهي مضمون الملكوت) سوف تستمر في الحياة الآتية. الملكوت يبدأ هنا بالاختيار الحُر ويستمر إلى الأبد. وكذلك الجحيم، إنَّه يبدأ هنا بالاختيار الحُر ويستمر إلى الأبد.

الإنسان لَمْ يُخلَق للجحيم

الله لم يَخْلق الجحيم؛ اختيار الإنسان هو الذي يُـــؤدِّي بـــه إلى الجحيم. بعصيانه لله، ببغضه لله؛ وبجعله نفسه إلهًا، يختـــار الإنـــسان أنْ يتخلَّى عن النُّور، مفضِّلاً أنْ يحيا في الظُّلمة التي تجلبـــها عليـــه أفعالـــه (خطاياه). كتب القدِّيس باسيليوس:

[الله ليس هو سبب الشُّرور الكائنة في الهاويـــة، بـــل نحـــن أنفسنا].

الله لا يتخلّى عن أيِّ شخص بل نحن الذين نتخلّى عن الله ونختار بدون إجبار أنْ نحيا في الظُّلمة (الجحيم). وهو ما عبَّر عنه القدِّيس أنطونيوس الكبير:

[أنْ نقول إنَّ الله يتخلّى عن الأشرار، هو مِثْل أنْ نقول إنَّ الشَّمس تخفي نفسها عن العُمْيان].

في الآخرة، سيقف الجميع في حضور نور الله غير المخلوق: الأبرار سيفرحون بالنُّور، سيتمتَّعون به وسيمجِّدونه؛ أمَّا الأشرار فسيمقتون هذا النُّور غير المخلوق (الذي هو حُب الله)، لأنَّهم لا يدركون أنَّ حُب الله هو ذلك النُّور، بل سينظرون نور الله وحبَّه كأنَّهما ظُلمة ونار. الله لم يخلق الظُّلمة ونار جهنَّم. رغبة الأشرار المستمرَّة في استبعاد الله مِن عقولهم وقلوبهم تجعل الآخرة بالنِّسبة لهم مِثْل نار جهنَّم. يقول مار إسحق إنَّه مِن غَيْر اللاَّئق أنْ نظن أنَّ:

[الخطاة الذين في جهنَّم يكونون محرومين مِن حُب الله].

ثم يكمل قائلاً:

[كما أنَّني أجزم بأنَّ هؤلاء الذين في جهنَّم يُجلدون بسوط الحُب. حقًّا، لا يوجد عذاب مرير وعنيف مثل عذاب الحُب].

فالنَّار التي تُنَقِّي الذَّهب هي نفسها التي تلتهم الخشب.

كان C.S. Lewis مُحقًّا حين قال:

"لو عشنا في الجحيم سنموت في الجحيم".

الملكوت مكان مُعَد لأناس مستعدِّين. كل مِن الملكوت والجحيم يبدآن في هذه الحياة حسب الاختيار الحُر؛ فنحن نختبر في هذه الحياة التي نعيشها إمَّا لمحة (عربون) مِن الملكوت أو لمحة مِن الجحيم. ليس صحيحًا أنَّ الجحيم هو مكان لا يتواجد فيه الله، فالله موجود في كل مكان مثل الشَّمس، إنَّه: «**يُشرق شمسه على الأشرار والصَّالحين**» (مت٥: ٤٥). نور حضور الله يسطع على الكل إلى الأبد، لكن كما عبَّر الأب بطرس الدِّمشقي Fr. Peter of Damascus عندما قال: "**بالنِّسبة للبعض الذين أعمتهم الكراهيَّة، هذا النور يكون ظلمة ويختبرونه باعتباره نار جهنم**"، ثم يكمل:

"نحن لا نتلقَّى البركات كلنا بنفس الطَّريقة، فالبعض منَّا عندما يتقبَّلون نار الرَّب، أي كلمته، يضعونها موضع التَّطبيق، وبذلك تزداد قلوبهم ليونة مثل الشَّمع، بينما هناك آخرون يصبحون بسبب الكسل أقسى مِن الطِّين ويصيرون تمامًا مثل الحجر. ونحن لا يجبرنا أحد على تلقِّي هذه النِّعَم بطرق مختلفة. كما هو الحال مع الشَّمس التي تنير أشعتها العالم بأسره: الشَّخص الذي يريد أنْ يراها في إمكانه أنْ يفعل ذلك، بينما الشَّخص الذي لا يريد أنْ يراها لا يجبره أحد على ذلك حتى

يتحمَّل هو وحده مسئوليَّة حالته المُعتمة؛ لأنَّ الله خلق كلاً من الشَّمس وعيني الإنسان، ولكن كيفيَّة استخدامهما تتوقَّف على الإنسان ذاته" (الفيلوكاليا، جزء ٣، صفحة ٧٨).

حتَّى الله ذاته لا يرسل أحدًا إلى الملكوت أو إلى الجحيم. نحن أنفسنا نختار بكلِّ حريَّة الملكوت أو الجحيم عن طريق اختيارنا إمَّا الحياة مع الله أو الحياة دون الله. في الواقع، في طريقنا إلى الجحيم لابدَّ أنَّه يتحتَّم علينا أنْ ندوس على جسد يسوع المصلوب لنصل إلى هناك.

ماذا يمنعنا مِن دخول الملكوت

إذن فقد أعطانا الله عطيَّة رائعة وهي الإرادة الحرَّة لأنَّه يحبُّنا، ولأنَّه يرغب حقًّا أنْ نقضي الأبديَّة معه في الملكوت في حضور نوره غير المخلوق وحبِّه، والله لن يحجب عنَّا نوره غير المخلوق. وخير مثال على ذلك هو الابن الأكبر في مَثَل الابن الضَّال (لوقا١٥: ١١-٣٢). عندما علم أنَّ أخاه الأصغر رجع إلى البيت، كان رد فعله هو الغضب النَّابع مِن الأنانيَّة بدلاً مِن الفرح عند رؤية أخيه ثانية على قيد الحياة. حُب الأب أثار غضبه لدرجة أنَّه: «**لم يُرِد أنْ يدخل**» إلى الوليمة. هذا الحفل يشبه الملكوت. كان الاحتفال يدور حول حُب الأب وعودة الابن الأصغر. لم يحرم الأب الابن الأكبر مِن دخول الوليمة (الملكوت)، بل الابن الأكبر هو الذي منع نفسه مِن الدخول.

لم يمنعه مِن الدخول سوى غضبه الخاطئ. لقد اختار أنْ يبقى بعيدًا، وبطريقة ما، وضع نفسه في الجحيم.

خرج الأب مِن البيت ليقابل ابنه في الحقل. كان يتوسَّل إليه، لكن الابن الأكبر لم يخاطبه باعتباره الأب، كما فعل الابن الأصغر، ولا تقبَّل أخاه الذي دعاه: «**ابنك هذا**». مرَّة أخرى، يتوسَّل الأب (الذي يُمثِّل الله) إلى ابنه: «**يا بُنَي أنت معي في كلِّ حين، وكل ما هو لي فهو لك**». الأب يتوسَّل إليه، ولا يريد أنْ يتخلَّى عنه، لكن سلوك الابن الأكبر كان سببًا في بقائه خارج الوليمة؛ ولأنَّه كان تحت سيطرة قسوة القلب والغضب الأناني، فقد اختار الجحيم.

حُب الأب غَيْر المشروط

كِلا الابنَيْن اختبرا حُب الأب غَيْر المشروط، وكلاهما أُدينا بحُب الأب غير المشروط. كان الأب يعامل كليهما على قَدَم المساواة بنفس الحُب غير المشروط. دفع حُب الأب الابن الأصغر ليقدِّم توْبَة بقلب منكسر، بينما قسَّى الابن الأكبر قلبه أمام حُب أبيه غير المشروط. هل منع الأب (الله) الابن الأكبر مِن دخول الوليمة (الفردوس)؟ أم كان غضب الابن الأكبر وكراهيَّته هما السَّبب في عدم دخوله؟ حُب الله غير المشروط يريد أنَّ الجميع يخلُصون ويأتون إلى معرفة الحق. إنَّها إرادة الإنسان الحرَّة التي تقوم بالاختيار القاطع. قال أحدهم:

"هناك دائمًا انتخابات تجرى في ملكوت الله. الله دائمًا يُصَوِّت في صالحك، والشَّيطان دائمًا يُصَوِّت ضدَّك، لكن أنت لديك الصَّوت الفارق الذي يحسم الموقف".

إذن، سبب عذاب الجحيم ليس هو الله، بل هو الاختيارات الرديئة التي نقوم بها. الملكوت والجحيم هما بالأحرى وَضْعان نختار أنْ نعيش في إحداهما، وليسا مكانين يرسلنا الله إليهما. الله يُحب كل واحد منَّا بغير شروط، ويصُبُّ حبَّه علينا سواء أردنا ذلك أو لم نُرِد. استجابتنا بكلِّ حريَّة لهذا الحُب هي التي تخلق الملكوت أو الجحيم. قبول هذا الحُب هو الملكوت ورفضه هو الجحيم. نقرأ في الكتاب المقدس أنَّ الشَّيطان دخل يهوذا (يوحنا١٣: ٢٧- لوقا٢٢: ٣)، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنَّ الشَّيطان دخل يهوذا رغمًا عنه، فقد كان طمع يهوذا هو الذي فتح الباب للشَّيطان ليدخل.

من أقوال الأب سلوانس

ذات يوم دار حوار بين القدِّيس سلوانس Staretz Silouan وطالب شاب كان يتحدَّث كثيرًا عن الحريَّة. كعادته، كان القدِّيس يستمع بلطف لآراء واختبارات ضيفه الظَّريف المُفْعَم بالحيويَّة، والسَّاذج أيضًا. كان مفهوم هذا الشَّاب عن الحريَّة أنَّها تتكوَّن من شِقَّيْن؛ الشِّق الأوَّل هو الحريَّة السياسيَّة، والشِّق الثَّاني هو أنْ يتَّبع الإنسان لما يمليه عليه قلبه.

ردَّ عليه القدِّيس سلوانس شارحًا له آراءه الشخصيَّة عن الحريَّة قائلاً:

"مَن ذا الذي لا يريد الحريَّة؟ الجميع يريدون الحريَّة، لكن قِلَّة هم الذين يعرفون ما هي مكوِّنات الحريَّة وكيفيَّة الوصول إليها...

حتى يصبح المرء حرًّا، يجب عليه أنْ يُقَيِّد شهواته حتى لا تستحوذ عليه، ويكبح جماح نفسه حتى لا يضرَّ الآخرين. يسعى الناس عمومًا إلى الحريَّة مِن أجل أنْ يفعلوا ما يحلو لهم، لكن ليست تلك هي الحريَّة بل هي سلطان الخطيَّة عليك. بالتَّأكيد، الحريَّة ليست هي أنْ تكون منحلاً، أنْ تأكل بشراهة، أنْ تسكر، أنْ تكون حقودًا، أنْ تستخدم العنف، أنْ تقتل وهكذا. ما هذه بحريَّة، إنَّما هي عبوديَّة: «**لأن كل من يعمل الخطيَّة هو عبدٌ للخطيَّة**». يجب على المرء أنْ يُصلِّي بقوَّة لينجو مِن تلك العبوديَّة. نحن نؤمن أنَّ الحريَّة الحقيقيَّة معناها عدم الوقوع في الخطية. حتى يكون لدينا الحريَّة، فلنحبَّ الله ونحبَّ قريبنا مِن كلِّ قلوبنا ومِن كلِّ قدرتنا. الحريَّة الحقيقيَّة تعني السُّكنى الدَّائمة في الله".

"المسيحي هو أكثر مخلوق مُسَالِم يتعرَّض للهجوم مِن جميع الجهات. المسيحي هو العبد، وإنْ جاز التَّعبير: "وَسَخ كل شيء"، بينما في الوقت نفسه هو، وليس آخر سواه، حُرٌّ وحريَّته مصونة بأعمق وبأكمل معنى للكلمة" (ق. سلوانس).

إرادتنا هي مِلْكٌ لنا... اجعلها مِلْكًا لك

الله أعطانا الإرادة الحرَّة حتى يمكننا أنْ نختاره بحريَّة ليكون هو ربَّنا وسيِّد حياتنا. لقد أعطانا الإرادة الحرَّة حتى نسمح له أنْ يكون إلها لنا مِن خلال الإطاحة بالأنا (الذات). قال ألفريد لورد تينيسون Alfred Lord Tennyson:

"إرادتنا هي مِلْكٌ لنا... اجعلها ملكًا لك".

كما كتب جورج ماثيسون George Matheson يقول:

"يارب اجعلني أسيرًا (لك)، حينذاك سأكون حرًّا. إرادتي ليست ملكًا لي إلى أن تجعلها ملكًا لك".

أسمي هديَّة نقدر أنْ نقدِّمها لله هي أنْ نسلِّم له إرادتنا الحرَّة في طاعة خاضعة لإرادته؛ ولكوننا أحرارًا، فإنَّ هذا القرار يكون له قيمة لا نهائية عند الله.

هذه الصَّلاة هي مفتاح الحرية: «**لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض**».

وهنا نتذكَّر كلمات كريستوس يناراس Christos Yannaras:

"سقوط آدم ينشأ مِن قرارٍ حُر يتَّخذه الإنسان بأن يرفض الشَّركة الشخصيَّة مع الله، وأنْ يُقيِّد نفسه بالاستقلاليَّة والاكتفاء الذاتي المرتبطَيْن بطبيعته الخاصَّة".

وبعبارة أخرى، نحن مِن الممكن أنْ نكون أحرارًا بصورة مُرَوِّعة، حتى إنَّنا قد نقف أمام الله معلنين: "لتكن لا مشيئتك بل مشيئتي"، وهذا هو الجحيم. وعلى العكس تمامًا، يمكننا أنْ نقول إنَّ بَذْل الحياة مِن أجل إيماننا بالمسيح، الذي هو الاستشهاد، هو أسمى عمل مرتبط بالحريَّة يمكن أنْ يقوم به أيُّ شخص على وجه الأرض.

عطيَّة الله الأكثر روعة للبشريَّة

الحريَّة هي النِّعمة والسُّلطان اللذان يمنحهما لنا الله لنتحرَّر مِن عبوديَّة الخطيَّة. أعظم اختيار في الحياة هو اختيارك للمسيح لكي تحيا. والحريَّة تعني ألاَّ تستحوذ علينا ممتلكاتنا. لأنَّ غالبًا كلَّما زادت مقتنياتنا كلَّما استحوذت علينا وتملَّكت منَّا واستعبدتنا، وكلَّما نقصت حريَّتنا. كما أنَّ الحريَّة هي أنْ لا نتضايق مِن رأي الناس فينا لأنَّ هدفنا في الحياة هو إرضاء شخص واحد فقط وهو الرَّب يسوع. كم هو شعور ممتع بالحريَّة عندما ندرك أنَّنا لسنا هنا لنرضي الناس مِن حولنا ـــ بل إنَّنا هنا لنرضي شخصًا واحدًا ولا آخر سواه! كذلك الحريَّة هي عطيَّة الرُّوح القُدُس. «**حيث روح الرَّب هناك حرية**» (٢كو ٣: ١٧)، والخلاص في حدِّ ذاته يعني الحريَّة والتحرُّر.

قال القدِّيس سلوانس:

"**نحن نواجه الاختيار بين التبنِّي كأولاد لله** (غل٤: ٥)، **أو الانصراف عنه إلى الظُّلمة الخارجيَّة**".

هذا هو الاختيار. إذا كنتَ تريد أنْ تختبر ما هي الحريَّة الحقيقيَّة، عليك أنْ تختبر الأسر أوَّلاً، حينئذ سوف تدرك كم هي عظيمة عطيَّة الحريَّة.

قال القديس أغسطينوس:

[الذي هو صالح هو حُر مع كونه عبدًا؛ الذي هو شرِّير هو عَبْد حتى لو كان مَلِكًا].

الحريَّة في الاتِّكال

نحن نجد الحريَّة في الاتِّكال على إرادة الله والخضوع لها، وليس في الاستقلال عن إرادة الله. الحريَّة الحقيقيَّة لا تجعلنا مستقلِّين بل مترابطين مع بعضنا البعض. كل خليَّة في الجسم لديها وظيفتها الخاصَّة التي تقوم بها في ترابط مع كلِّ خليَّة أخرى، فالخلايا تعتمد على بعضها البعض وتعمل سويًّا في تناغم وانسجام. الخلايا الوحيدة التي تُصر على أنْ تكون مستقلَّة ومنفصلة هي الخلايا السرطانيَّة. وكنتيجة لذلك، فهي تتكاثر خارج السَّيطرة وتقتل الخلايا السَّليمة. وبالتَّالي فإنَّ الحريَّة الحقيقيَّة تجعلنا غير مستقلِّين عن الله، بل متَّكلين عليه ومترابطين مع بعضنا البعض.

قال القدِّيس أنبا مقار المصري:

[إرادة الإنسان هي شرط أساسي لأنَّ بدونها لا يعمل الله شيئًا].

إلى هذا الحد يحترم الله الحريَّة التي أعطاها لنا. بدون إرادتنا الحرَّة، الله لا يعمل شيئًا.

قال القدِّيس غريغوريوس النِّيصي:

[بطريقةٍ ما، نحن نصبح أبوَيْن لأنفسنا، فنحن نلد أنفسنا باختيارنا الحُر وفقًا لِمَا نود أنْ نكون عليه].

الحريَّة: صندوق أدوات مقدَّم من الله، للوصول إلى: "اصنعها بنفسك"

بعبارة أخرى، الإرادة الحرَّة هي صندوق الأدوات اللازمة لـ "اصنعها بنفسك" الذي يقدِّمه الله لنا. باستخدام صندوق أدوات "اصنعها بنفسك" الكائن في الإرادة الحرَّة، نقدر أنْ نختار إمَّا أنْ نكون قدِّيسين أو شياطين، نقدر أنْ نختار إمَّا الملكوت أو الجحيم. نحن لسنا ضحايا. نحن أحرار نقدر أنْ نساعد أنفسنا. نحن لدينا الحريَّة التي بها نختار ما نريد أنْ نصبح عليه. لأن الله أعطانا أعظم سلطان على الأرض، سلطان الإرادة الحرَّة التي تستمد طاقتها مِن الرُّوح القُدُس. قد تعترض قائلاً ماذا عن المدمنين، هل هم أحرار، لا، إنَّهم ليسوا أحرارًا لكنهم أصبحوا مدمنين باختيارهم. لقد اختاروا أنْ يستعبدوا أنفسهم. لكن بنعمة الله يمكنهم أيضًا أنْ يختاروا التخلُّص مِن إدمانهم، فهم يقدرون أنْ

يختاروا بدون إجبار أنْ يتركوا الإدمان ويسمحوا لله أنْ يسود على حياتهم. حتى فرويد Freud اعترف بوجود إرادة حرَّة لدى الإنسان، وإلاَّ ما كان يستطيع أحد أنْ يشترك عن اقتناع في العلاج النَّفسي الذي يعتمد على إرادة الإنسان وقدرته على التغيُّر.

حُرٌ أنْ ترفض الشَّيطان

الأب يوحنا الدِّمشقي يؤكِّد أنَّه:

"حتَّى الشَّياطين لا تستطيع أنْ تفعل أي شيء ضدَّنا دون إذن من الله. فمع أنَّ الشُّرور كلها والشَّهوات كلها موحاة من قِبَلهم، إلاَّ أنَّ الله لا يسمح لهم إلاَّ بعرض الخطيَّة على الإنسان، أي أنَّهم لا يقدرون على إجبارنا على (فعل) الخطية. نحن أنفسنا مسؤولون عن قبول أو رفض مقترحاتهم المغرية".

لهذا السببَّ يُحَمِّلنا الله مسؤوليَّة قراراتنا. الشَّيطان يُقَدِّم اقتراحات فقط، نحن نختار، نحن نُقَرِّر.

الحريَّة كإمكانيَّة

قال كارل ساندبرج Carl Sandburg الذي كَتَب واحدة من أفضل السِّيَر الذاتيَّة الخاصة بلينكولن Lincoln:

"إنَّه لأمر مهم أنْ نجد أنَّ لينكولن استخدم تقريبًا كلمة

"مسؤوليَّة" بقدر ما استخدم كلمة "حريَّة"".

وهو كان على حق، لأنَّه لا توجد حريَّة حقيقيَّة دون مسؤوليَّة؛ فالحريَّة بدون مسؤوليَّة ينتج عنها فوضى، أو بتعبير أفضل، ينتج عنها الجحيم.

قال الأب مكسيموس St. Maximus:

"الإنسان لديه مطلق الحريَّة، لكن لن تتحقَّق حريَّته بشكل كامل إلاَّ عندما تصل إلى هدفها في الله. الحريَّة هي إمكانيَّة: فهي نشاط ديناميكي في طبيعة الإنسان، هدفها هو الوصول إلى الشَّبه المثالي لله. بعبارة أخرى، الله أعطانا الحريَّة من أجل أنْ نصبح شَبَه المسيح، ومن أجل أنْ ننمو من صورة الله إلى شَبَه الله؛ لأنَّه ذات يوم سيسألنا الله قائلاً: "لقد أعطيتكم الصُّورة. أين الشَّبَه؟""

نحن أحرار في الاختيار؛ إمَّا أنْ نصبح قدِّيسين أو شياطين كما تُظْهِر هذه الصَّلاة التَّالية:

"يارب، الحيوان ليس عليه أنْ يُقرِّر أي نوع من الحيوانات سيكون، فإنَّه يصبح من نَوْع معيَّن تلقائيًّا؛ لكن لأنَّك منحتنا الإرادة الحرَّة، فنحن نقدر أنْ نُقرِّر ماذا سنكون. نستطيع أنْ نختار أنْ نصبح شياطين، أو نستطيع أنْ نختار أنْ نُنَمِّي صورة الله فينا ونصبح قدِّيسين. هبنا يا ربَّنا الغالي أنْ نختار القداسة من خلال الإيمان، المحبَّة، والخضوع لإرادتك. آمين".

وبالتَّالي، الحريَّة تتطلَّب المسؤوليَّة، أي، مسؤوليَّة أنْ نختار رفض الإثم وقبول البر، مسؤوليَّة أنْ نختار بدون إجبار أنْ نتبع الرَّب يسوع على طول الطريق، لنصل إلى مجد التألُّه (الاتِّحاد بالله).

تعب الاختيار

في الوقت الحاضر أصبح الكثير من الناس يعانون من تعب الاختيار، إذ إنَّهم يواجهون الكثير من الخيارات. عطيَّة الحريَّة الرَّهيبة تجلب لهم الكثير من المعاناة. إنَّهم يريدون الاستسلام لشخص يقوم بالاختيار نيابة عنهم ليريحهم من عبء الحريَّة الذي لا يُحتمل، ذلك العبء الذي يجبرهم على اتِّخاذ قرارات صعبة. الاختيار يصيبهم بالإعياء، وهم يتوقون إلى شخصيَّة ذات نفوذ تجعل اختياراتهم أقل مشقَّة وعددًا. لهذا السَّبب يسقط الكثير من النَّاس ضحايا لزعماء الطَّوائف الدينيَّة والطُّغاة الذين يسلبون حريَّتهم ويحوِّلونهم إلى روبوتات (إنسان آلي)، ويطالبونهم بالطَّاعة العمياء.

تناول روبرت صمويلسون Robert J.Samuelson مشكلة "تعب الاختيار" في مقالة في مجلة Newsweek بعنوان The Afflictions of Affluence آلام التَّرف، فكَتَب في هذه المقالة:

"يُوَضِّح عالم النَّفس باري شفارتز Barry Schwartz الموضوع بصورة أشمل في كتابه الجديد "The Paradox of

Choice: Why more is less مفارقة الاختيار: لماذا يكـــون الأكثر أقل".

يقول شفارتز إنَّ ثقافتنا تعبُد الاختيار، لكنَّ الكثير منه يـــؤدِّي إلى "اكتظاظ الاختيارات". الآن تُقَـــدِّم تقـــارير المُـــستهلِك: "مقارنات بين ٢٢٠ موديل لسيَّارات جديدة، ٢٥٠ نَوْعًا من حبوب الإفطار، ٤٠٠ كاميرا فيديو، ٤٠ نَوْعًا من الـــصَّابون المنـــزلي، ٥٠٠ وثيقة للتَّـــأمين الـــصحِّي، ٣٥٠ صـــندوقًا للاستثمار المشتَرَك، و٣٥ دُشًّا للحمَّامات".

لقد أصبح النَّاس الآن يشعرون بالارتباك بسبب الوقت الذي يستغرقه الوصول إلى الاختيار "الأفضل"، الذي قد ينـــدمون عليه في وقتٍ لاحق. ارتكاب أخطاءٍ في اختيار المشتَرَيات قد يكون مثيرًا للغضب، لكن ارتكاب أخطاء في قرارات أكـــبر (مثل القرارت التي تتعلَّق بالعمل وأثره على الأسرة) قد يؤدِّي إلى الاكتئاب العميق، حسب رأي شوارتز".

ومع ذلك، أنا عندي إيمان يقين أنَّنا كمسيحيِّين، لو كان الله له الأولويَّة في حياتنا، فمِن خلال عطية التَّمييز، سيقودنا الرُّوح القُدُس في تحديد الاختيارات الأفضل لنا، وسوف يُقَلِّل الكثير مِن: "تعب الاختيار" أو: "اكتظاظ الاختيارات".

«اطلبوا أولاً ملكوت الله وبـــرَّه، وهـــذه كلـــها تُـــزاد لكـــم»

(مت٦: ٣٣). أعطِ الأولوية لله، ستجد أنَّ كلَّ الأمور الثانويَّة الأخرى أخذت موقعها الصَّحيح.

المسؤوليَّة (المساءلة) المخفَّضة

نحن نعيش في زمن يحاول فيه علم النَّفس والطِّب النَّفسي وعلم الاجتماع محاولات مستمرَّة للحدِّ من المسؤوليَّة الموضوعة علينا، أي محاولات مستمرَّة للحدِّ من إرادتنا الحرَّة. الحقيقة هي أنَّنا في الواقع ضحايا العديد من القُوَى في هذه الحياة، ولا يقدر أحد أنْ يقول بالتَّحديد مدى مسؤوليَّة إرادتنا عن القرارات التي نتَّخذها. أنا لا أعرف إلى أيِّ مدى نقدر أنْ نُلقي اللَّوْم على جينات فقر الدَّم، والكروموسومات التي ورثناها، أو نُلقي اللَّوْم على المعاملة النَّفسيَّة الفاسدة التي فُرِضت علينا في طفولتنا. إلاَّ أنَّني واثقٌ من ذلك الأمر: في مكان ما داخل الديناميكيَّة الشخصيَّة في الخطأ الذي نرتكبه، في مكان ما داخل عقلنا النَّشيط أو داخل إرادتنا، يتمُّ الاختيار الذي لا يتحمَّل مسؤوليَّته أحد غيرنا. نحن قمنا بالاختيار، نحن أقدَمنا على هذا التصرُّف، لذا صرنا نحن المسؤولين. ليس أبي هو المسؤول ولا أُمِّي ولا طفولتي التَّعيسة. إنَّه أنا المحتاج للغفران. الابن الضال لم يُلْقِ مسؤوليَّة حالته (السيِّئة) على أبيه. لكنَّه تحمل المسؤوليَّة الكاملة عن نفسه عندما قال: «**يا أبي، أخطأتُ إلى السَّماء وقُدَّامك**... »، وبسبب هذا الاعتراف

بالمسؤوليَّة الشخصيَّة، نال الابن الضَّال الغفران بصورة مُفرِحة ورائعة. تحرَّر الابن الضَّال وصار ابنًا لأبيه مرَّة أخرى.

نقرأ في إشعياء ٤٣: ٢٦: «**ذكِّرني فنتحاكم معًا. حدِّث لكي تتبرَّر**». الابن الضَّال أقرَّ بخطاياه وتبرَّر وتحرَّر.

جريمة أَمْ مرض

كتب ج. ك. شيسترتون G.K. Chesterton عن أولئك الذين يستخفُّون بالدَّوْر الذي تلعبه الإرادة الحرَّة في هذه العبارات التَّالية التي لا تُنسى:

"... لكن هذا هو الاعتراض الحقيقي على هذا السَّيْل من الكلام المعاصِر حَوْل علاج الجريمة كما لو كانت مرضًا، حَوْل جعل السِّجن بيئة صحيَّة مثل المستشفى، حَوْل علاج الخطيَّة بأساليب علميَّة بطيئة. المغالَطَة في هذا الأمر كله هي أنَّ الشَّر هو مسألة اختيار فعَّال، بينما المرض ليس كذلك. أنتَ إذا قلتَ أنك ستعالِج شخصًا فاسقًا مثلما تُعالِج شخصًا مصابًا بالرَّبو، سيكون ردِّي الواضح والبسيط: "لا يوجد أناس يريدون أنْ يكونوا مصابين بالرَّبو، بينما الكثير من الناس يريدون أنْ يعيشوا في الخلاعة". قد يرقد إنسان بلا حركة وينال الشفاء من مرضه، لكنَّه ينبغي ألاَّ يرقد بلا حركة إذا

كان يريد أنْ ينال الشِّفاء من الخطيَّة؛ على العكس من ذلك، يجب عليه أنْ يقوم ويقفز بقوَّة. في الواقع الموضوع بأسره يُعَبَّر عنه بالضَّبط في الكلمة التي تُستخدم للإشارة إلى الشَّخص المريض في اللغة الإنجليزية وهي كلمة patient ومعناها صَبور، وهي تحمل مضمون السلبيَّة (أي أنَّ المريض لا دَوْر له في الشِّفاء)، بينما الخاطئ عليه دَوْرٌ إيجابيٌّ. إذا كان هناك شخص يجب إنقاذه من الإنفلونزا فعليه أنْ ينتظر الشِّفاء بصبر (patient)، لكن إذا كان هناك شخصٌ يجب أنْ يتخلَّص من التَّزوير فعليه ألاَّ يكون صبورًا بل قليل الصبر. ينبغي أنْ يكون متلهِّفًا للخلاص من التَّزوير. كل إصلاح خُلقي يجب أنْ يبدأ في الإرادة الإيجابيَّة الفعَّالة وليس في الإرادة السلبيَّة".

طاعة عمياء

المطران إشعياء، مطران إبراشية Denter كتب عن الطَّاعة العمياء في رسالة رعويَّة خاصَّة يوم ١٩٩٨/١٠/٢٨م. قال فيها:

"لا نجد في أيِّ موضع في توصيات الكنيسة المكتوبة أو الشفهيَّة أنَّ المرء يجب أنْ يمارس الطَّاعة العمياء لأيِّ شخص آخر. حالما نكتشف المسيح في داخلنا، وندرك أنَّنا مخلوقون على صورته، فإنَّه يتبنَّانا، ليس كعبيد، بل كأبناء وبنات أحرار ومحبوبين (غل ٤: ١-٧).

فعندما يقدِّم الشخص طاعة عمياء لأيِّ شخص آخر، سواء كان حبيبًا أو حاكمًا أو زعيمًا دينيًّا، فهذا يعني أنَّ هذا الشخص لم يعُد لديه الإرادة الحرَّة، لأنَّه تنازل عنها وسلَّمها لمخلوقٍ آخر.

عندما يُسلِّم المسيحي إرادته للمسيح، فإنَّ الرب ينقِّي هذه الإرادة، ويعيدها له بحيث تكون طاعته بعدئذ تستند فقط على الحُب المُمَارَس مِن خلال تلك الإرادة الحرَّة.

عندما أظهر ربُّنا طاعته للآب بإخلائه ذاته مِن مجده صائرًا واحدًا منَّا، فقد فعل ذلك مِن خلال ممارسة الإرادة الحرَّة...

لقد كانت الإرادة الحرَّة في الحُب المطيع للآب هي التي تَمَّمَت الذَّبيحة الأسمى.

روح الطَّاعة العمياء التي تقمع الإرادة الحرَّة لا تختلف كثيرًا عن الوثنيَّة".

حقيقة أنَّ الله أعطانا عقلاً وإرادة حرَّة، فهذه تشهد لحقيقة أخرى، وهي أنَّ الله لا يريدنا أنْ نمارس الطَّاعة العمياء لأيِّ شخصٍ ولا حتى له هو نفسه.

طاعة ليست عمياء بل واعية

قال يسوع في يوحنا ٥: ٣٩: «فتِّشوا الكُتُب لأنَّكم تظنُّون أنَّ

لكم فيها حياة أبدية». هل يُعطي هذا القَوْل أيَّ انطباعٍ عن الطَّاعة العمياء؟ يقول داود المرنِّم: «**ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب!**» (مز٣٤: ٨). هل يُعطي هذا القَوْل أيَّ انطباع عن الطَّاعة العمياء؟ عندما بشَّر الملاك العذراء مريم أنَّ الله سوف يستخدمها في مجيء المخلِّص إلى العالم، لم تكن العذراء مطيعة طاعة عمياء، بل مطيعة طاعة واعية؛ فقد سألته: «**كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً؟**»، وعندما جاءها الرَّد أنَّ الرُّوح القُدُس يحلُّ عليها وقوَّة العلي تظلِّلها، وأنَّ القدُّوس المولود منها يُدعى ابن الله، حينئذ أجابت: «**ليكن لي كقولك**». هل تُعطي هذه الكلمات أيَّ انطباع عن الطَّاعة العمياء؟ لم تكن طاعة عمياء بل طاعة واعية جدًّا، تُعبِّر عن استجابة العذراء مريم بحريَّة تامَّة.

الإيمان ليس أعمى

الله يدعونا لنفتِّش الكُتُب، لنبحث عن الحق، لندرسه، "**لنتذوَّق وننظر**"، ولنقبل حقَّه بحريَّة ليس على نحوٍ أعمى، فالإيمان ليس أعمى. في الواقع، الإيمان يفتح عيوننا لكي ترى أكثر ممَّا رأته مِن قَبْل. ينبغي للمرء أنْ يكون حذرًا مِن أيِّ شخص يسعى إلى فرض السَّيطرة المطلَقَة على أذهاننا مِن خلال المطالبة بالطَّاعة العمياء. هذه الظَّاهرة تنطبق بدون استثناء على زعماء الطَّوائف الدينيَّة؛ فالزَّعيم الدِّيني يصبح هو المُفَسِّر الوحيد لكل الأمور، ولا يسمح لأحد أنْ يناقش أو

يُشَكِّك في تفسيره. فعلى المرء أنْ يقبل ما يقوله هذا الزَّعيم لمجرَّد أنَّه هو القائل.

تلك الطَّاعة العمياء لفرد هي بمثابة عبادة أوثان. إنَّها عبادة لزعيم الطَّائفة الدينيَّة بدلاً من الله. إنَّها تحرمنا من عطيَّة الإرادة الحرَّة التي وهبها الله لنا، والتي هو نفسه يحترمها. فالله عندما منحنا الإرادة الحرَّة، أخذ على عاتقه أكبر مخاطرة بتسليمه لنا القدرة الرَّهيبة على رفضه.

يقول بول إفدوكيموف Paul Evdokimov:

"القدرة الجبَّارة على رفض الله، هي قمَّة الحريَّة البَشَريَّة".

لماذا؟ لأن الله اختار أنْ يخلق أولادًا لا دُمًى ولا روبوتات (الإنسان الآلي).

الطائفيَّة في الأرثوذكسيَّة

ذات مرَّة حذَّر المطران لازار بوهالو Archbishop Lazar Puhalo مجموعة من الموعوظين أنَّ الطائفيَّة من الممكن أنْ تنشأ حتى في الأرثوذكسيَّة، فكَتَب يقول:

"ليس من العادي على الإطلاق أنْ يُطلَب من عامَّة الشَّعب (العَلمانيِّين) في الكنيسة أنْ يخضعوا في طاعة عمياء لأحد الشُّيوخ أو حتى لكاهن إبروشيَّتهم، حتى لو كان هو واحدًا من الاثنين أو الثلاثة كهنة المعاصرين في أمريكا الذين يمكن أنْ

يطلَق عليهم آباء روحيِّين بصدق...

في الواقع، حتى الرُّهبان يجب ألاَّ يخضعوا في طاعة عمياء لأنَّها تتعارض مع المفاهيم الأساسيَّة لمعنى الإيمان، كما تتعارض بالتَّأكيد مع العقيدة الأرثوذكسيَّة الخاصَّة بشعب الكنيسة العَلمانيِّين... ينبغي على المرء أنْ يكون حذرًا للغاية مِن أيِّ شخص يريد أنْ يُسيطر على عقلك وفكرك سيطرة كاملة، لدرجة أنَّه لا يسمح لك أنْ تقارِن بحريَّة، وتُقيِّم وتختار بحريَّة وذكاء بين أفكار تبدو متضاربة، وبَيْن "المدارس" الفكريَّة المختلفة. فالحق لا يَخشى المقارنة والكشف...

إذا كان لديك كاهن يحاول أنْ يجعلك تنقاد وراءه، أوْ يسعى للسَّيطرة على طريقة تفكيرك، أو أنْ يعزلك عن الآخرين، أو يُصِر على ضرورة حضورك في كنيسته كل يوم أحد، وإذا تغيَّبتَ يسألك عن المكان الذي كنتَ فيه، مثل ذلك الكاهن يجب عليك أنْ تَهرب منه كما تَهرب مِن الحيَّة السامَّة. ينبغي أنْ تكون حذرًا للغاية، وتشعر بالقلق تجاه أي شخص يرغب في أنْ يكون زعيمًا وقائدًا يسعى لعزلك، ويطالبك بالطَّاعة المطلَقَة، أو حتى بالطَّاعة المفرِطة.

إذا اكتشفت أنَّك تعتقد أنَّ خلاصك يعتمد على زعيم أو قائد روحي ما، وأنَّ تركيزك على يسوع المسيح – الذي هو صانع

ومُتَمِّم خلاصك – قد توقَّف، فأنتَ في حالة عبادة (لـذلك القائد)، يجب أنْ تجاهد للتخلُّص منها".

لقد وهب الله للطَّبيعة البشريَّة مـا يُـسمِّيه الآبـاء اليونـانيُّون autexousion، وهي القُدرة على الاختيار الحُر وضبط النَّفس، وكمـا يحترم الله هذه القُدرة على الاختيار الحُر ويتركها دون انتهاك، فهو يتوقَّع منَّا أنْ نفعل نفس الشيء.

ويشير الأسقف كاليستوس وير Bishop Kallistos Ware أنَّـه بسبب هذا، فإنَّ التَّقليد النُّسكي في الكنيسة يولي أهميَّة كبيرة لاحتـرام كرامة وحريَّة التَّلاميذ الشخصيَّة، فالأب الرُّوحي يجب أنْ يقود تلاميذه ليس بالقوَّة بل بالقُدوة مِن خلال علاقة المحبَّة التي تربطهم.

كتب الأسقف وير معلِّقًا على علاقة المحبَّة التي بدون إجبار:

"نحن هنا نتحدَّث عن أهم نقطة في الموضوع وهـي العلاقـة الشخصيَّة التي تؤثِّر في تلامس التِّلميذ مع مرشده الروحـي. هذا الاتِّصال الشَّخصي يحمي التَّلميذ مِن صلابة القوانين ومِن الخضوع الذَّليل بحرفيَّة لتلك القوانين. التِّلميذ يتعلَّم الـنَّهج، ليس مِن خلال مطابقة مظهريَّة للقواعد المكتوبة، بل مِن خلال رؤية وجه إنساني وسماع صَوْت إنساني. وبهذا الأسلوب يكون الأب الرُّوحي (الأم الروحيَّة) هو الحارس (الوصـي) علـى الحريَّة الإنجيليَّة".

الله يمقت الطُّغاة المستبدِّين، زعماء الطَّوائف، الآبـــاء والأزواج المتعسِّفين، والرؤساء المتصلِّفين الذين يسعون إلى فرض ســـلطتهم عـــن طريق سَحْق ما وهبه الله للآخرين مِن هويَّة وحريَّة وإبداع. الله يريـــدنا أنْ نحترم ولا ننتهك الحريَّة الإنجيليَّة التي وهبها لنا.

مِن ضمن الأسباب الكثيرة التي تُوَضِّح أنَّ الله في الأديان الأخرى يختلف عن إلهنا هو أنَّ إلههم لا يحترم إرادة الإنسان الحرَّة. ففـــي أحـــد تلك الأديان، إذا تحوَّل شخص إلى ديانة أخرى، فطبقًا للشَّريعة، يجـــب أنْ يُنَفَّذ في هذا الشَّخص حُكم الإعدام، أمَّا الذين لا ينتمون لهذا الدِّين في حالة تمسُّكهم بإيمانهم، ليس فقط سيُطلَق عليهم الكَفَرَة، بـــل أيـــضًا سيتعرَّض الكثير منهم للقتل أو يُجبَروا على دفع الجزية حتى يظلُّوا على قَيْد الحياة. لو انتقد أي شخص قائدهم بأيِّ شكل مِن الأشكال، ينفَّـــذ فيه حُكم الإعدام. كيف يكون إله هذه الدِّيانات بـــأيِّ شـــكل مِـــن الأشكال هو نفس إله المسيحيَّة الذي يُكِنُّ أعمق احترام لعطيَّـــة الإرادة الحرَّة التي وهبها لنا؟

هل كان الله "يُجَرِّب" آدم وحواء؟

السيِّدة ذائعة الصِّيت نونا هاريـــسون Sr. Nanna Harrison العالِمة في علم الآبائيات، قدَّمت في عظة عن البشارة وصفًا رائعًـــا للإرادة الحرَّة التي هي عطيَّة مِن الله، فقالت إنَّ قديمًا كان هناك أناس

يتساءلون: "بما أنَّ الله لم يكن يريد أنْ يأكل آدم وحواء مِن شجرة معرفة الخَيْر والشَّر، إذن لماذا زرع الله تلك الشَّجرة في وسط الجنَّة في المقام الأوَّل؟" (تك٢: ١٥-١٧).

هل زرعها مِن أجل الإيقاع بهما؟ لا. وتشرح السيِّدة نونا قائلة إنَّ القدِّيس غريغوريوس اللاَّهوتي وآباء آخرين في الكنيسة أوضحوا أنَّ السَّبب كان هو إعطاء آدم وحوَّاء فرصة لممارسة حريَّتهما في الاختيار.

شرح آباء الكنيسة أنَّ آدم وحواء كانا مثل الأطفال، وكانت خطَّة الله لهما أنْ ينمُوَا على مدى فترة مِن الوقت ليصلا إلى مرحلة النُّضوج.

بعبارة أخرى، كانت خطَّة الله أنْ يثقِّفهما ويعلِّمهما ويساعدهما على النُّمُو إلى القامة الكاملة لصورة ومثال خالقهما. وكان أوَّل امتحان لهما هو ألاَّ يأكلا مِن الشَّجرة المحرَّمة. وبالمناسبة، نحن بحاجة إلى أنْ نتذكَّر أنَّه كان يوجد في الجنة الآلاف مِن الأشجار الأخرى التي كان في إمكان آدم وحواء أنْ يستمتعا بها بحريَّة، وكانت هذه الشَّجرة الوحيدة التي طلب الله منهما أنْ يمتنعا عنها. وكان الهدف هو امتحان إرادتهما الحرَّة ومساعدتهما على النُّمُو ببطء في طاعة الله. بداية مِن هذا الفعل الأوَّل للطَّاعة، كانا في إمكانهما أنْ يشتركا أكثر وأكثر على نحو كامل في إرادة الله، ويصبحا شركاء

الطَّبيعة الإلهيَّة. واليوم لا يزال الله يمتحن إرادتنا الحرَّة. لقد وضعنا في جنَّة عدن أخرى- على هذا الكوكب الجميل، الأرض التي خلقها لنا. الوصايا التي أعطاها لنا ليست مجرَّد امتحانات، بل أيضًا تحدِّيات نُظهر بها حبَّنا له، وننمو بها لنصل إلى كل ما خلقنا الله لنكون عليه.

القدِّيس يوحنا كرونستادت St. John of Kronstadt مجَّد الله لمنحه لنا عطيَّة الإرادة الحرَّة، فكَتَب يقول:

"لماذا سمح الله بسقوط الإنسان، مخلوقه الحبيب وتاج جميع المخلوقات الأرضيَّة؟ لابدَّ من الرَّد على هذا السُّؤال بأنَّه: لو الإنسان لا يُسمَح له بالسقوط، فهو يكون بالتالي غير مخلوق على صورة الله ومثاله؛ ولا يمكن أنْ تكون لديه إرادة حرَّة التي هي صفة ملازمة لصورة الله، بل لكان عليه أن يخضع لقانون الضَّرورة مثل الخليقة التي لا روح لها – أي مثل الشَّمس، السَّماء، النُّجوم، الكرة الأرضيَّة، وكل العناصر الأخرى – أو أنْ يكون مثل الحيوانات غير العاقلة؛ لكن حينئذ لَمَا كان هناك أي ملك على كل مخلوقات الأرض، ولَمَا كان هناك أي مُرَنِّم عاقل يُسَبِّح الله لخلاصه وحكمته وعنايته وقدرته غَيْر المحدودة المُبدعة. وحينئذ لوجد الإنسان نفسه عاجزًا عن إيجاد طريقة يُعَبِّر بها عن إخلاصه وحبِّه الشَّديد لخالقه، حبِّه المضحِّي الباذل للذَّات. حينئذ لَمَا كان

هناك أي أعمال بطوليَّة في الحـــروب، ولا اســـتحقاقات ولا أكاليل نصر غير مضمحلَّة، ولَمَا كان هناك أي نعيم أبـــدي الذي هو جزاء الإيمان والإخلاص لله، ولَمَا كـــان هنـــاك أي راحة أبديَّة بعد ما نلقاه في رحلتنا الأرضيَّة من مشقَّة وكفاح".

نحن عندما نختار بدون إجبار أنْ نطيع الله، نكون بذلك قـــد اخترنا الطَّريق المؤدِّي إلى المجد والنَّعيم الأبدي. فكأنَّ الله يتيح لنـــا حريَّة أنْ نصبح رسَّامين لأيقونات حياتنا؛ يتيح لنا أنْ نختار الألـــوان التي نملأ بها الصُّورة التي خلقنا عليها. ذلك هو المثال الذي استخدمه القديس مار افرآم السرياني St. Ephrem the Syrian عندما كتب:

"هذا هو الصَّالح الذي كان في إمكانه أنْ يجبرنا على إرضائه دون أنْ يتكبَّد أي عناء، لكن بدلاً من ذلك تحمل العنـــاء بكلِّ الوسائل حتى نستطيع أنْ نرضيه بدون إجبار بإرادتنا الحرَّة، وحتى نستطيع أنْ نُلوِّن جمالنا بالألوان التي جمعتـــها الإرادة الحرَّة الخاصَّة بنا، في حين أنَّه لو كان الله هو الذي زخرفنا، حينئذ لكنَّا نشبه صورة لوَّنها شخص آخر مزخرفًا إيَّاها بألوانه الخاصَّة".

نحن مسموح لنا بالمشاركة بحريَّة في الصُّورة الـــتي ســـنكون عليها، فنحن نولَد لدينا مخطَّط (اسكتش) لصورة الله، عبارة عن رسم أوَّلي بالفحم، لكنَّنا نُعطَى الحرية في اختيار الألوان التي سنلوِّن بهـــا

تشابهنا بالله، وسوف يكون كل واحد مختلفًا عن الآخرين بشكلٍ فريد في درجات المحبَّة والقداسة.

«احمل سريرك وامشِ»

عندما شفى يسوع المفلوج (مر٢: ١-١٢)، قال له: «**قُم واحمل سريرك وامشِ**». تعليقًا على هذه الآية، كتب أحد آباء الكنيسة الأوَّلين، بيتر كريسولوجس Peter Chrysologus: "احمل سريرك. احمل تلك الحصيرة بعينها التي حملتك فيما مضى".

عندما يحرِّرنا يسوع، فهو يمكِّننا مِن أنْ "نحمل"، أنْ نتحكَّم في الإدمان (السَّرير) الذي كان يتحكَّم فينا فيما مضى.

يقول يوحنا الدَّرَجي:

"تحكَّم في شهيَّتك قَبْل أنْ تتحكَّم هي فيك".

الرَّب يسوع يحرِّرنا حتى نسيطر على الإدمان الذي سيطر علينا حينًا. إنَّه يحرِّرنا لنتغلَّب على إدمان المخدِّرات أو الوساوس أو الهواجس التي استعبدتنا فيما مضى. إنَّه يحرِّرنا لنتغلَّب على الشَّهوة والطَّمع اللذَيْن استحوذا علينا حينًا.

«**قُم احمل سريرك وامشِ**»: لا تعرُج بعد الآن. لا تزحف. لا تتعثَّر. قم. امشِ. احمل تلك الحصيرة بعينها التي حَمَلتك فيما مضى، أنتَ الآن حُر في المسيح.

«فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضًا بنير عبوديَّة» (غل ٥: ١).

اِلعب أفضل لعبة ممكنة بما وُزِّع عليك مِن أوراق اللَّعب

ليس ما يحدث لنا هو الذي يحدِّد ما نحقِّقه في الحياة، بل هو رد فعلنا لما يحدث لنا. في واقع الأمر، غالبًا يكون لدينا خيارات محدودة فيما يخص ما يحدث في حياتنا، لكنَّنا يكون لدينا الكثير من الخيارات فيما يخص رد فعلنا لِمَا يحدث لنا. الفرق بَيْن الإرادة الحرَّة والحتميَّة determinism (الاعتقاد بأنَّ النَّاس ليسوا أحرارًا في اختيار كيف يسلكون لأنَّ تلك الأمور لا سيطرة لهم عليها)، يشبه إلى حدٍّ كبير ما يحدث في أوراق اللَّعب. تلعب الحتميَّة دَوْرها في الأوراق التي تُوَزَّع على كل واحد منَّا. فنحن لا سيطرة لنا على هذه الأوراق. أمَّا الإرادة الحرَّة فهي التي تحدِّد الطَّريقة التي نختار بها كيفيَّة اللَّعب بهذه الأوراق التي وُزِّعت علينا. التفاعل بين الاثنين — الأوراق التي وُزِّعَت علينا وكيف نلعب بها — يحدِّد ما سنكون عليه وما سنُحَقِّقه في الحياة.

تأمَّل في المثال التَّالي الذي يُوَضِّح كيف تلعب أفضل لعبة ممكنة بما وُزِّع عليك مِن أوراق اللَّعب.

يحكي أدلر Adler عالِم النَّفس الشَّهير عن رَجُلَيْن فَقَد كلٌّ واحد منهما ذراعه. بعد مرور عام، شعر واحد منهما بالإحباط الشَّديد لدرجة أنَّه قرَّر أنَّ الحياة لا تستحق العيش في وجود إعاقة مثل إعاقته. أمَّا الآخر فتغلَّب على إعاقته بانتصار حتى أنَّه ظلَّ يقول إنَّه حقًّا لا يعرف لماذا أعطتنا الطَّبيعة ذراعَيْن عندما يكون في إمكاننا أنْ نُدَبِّر شؤوننا بصورة جيِّدة جدًّا بذراع واحدة. لقد كان رد فعله لما حدث له هو الذي أوجد الاختلاف.

وصايا الله تحمي الحريَّة

وصايا الله التي تبدو وكأنَّها حواجز مقيِّدة في نظر الخطاة، هي التي تحفظ الحريَّة التي وهبها الله لنا. يُعَلِّمنا القدِّيس مرقس النَّاسك أنَّ وصايا الله: **"تحمي شروط الحريَّة الممنوحة لنا"**، وبالتَّالي، فإنَّ حفظ الوصايا هو الطَّريق للحريَّة الحقيقيَّة، فوصايا الله تُحَرِّر ولا تُقَيِّد أو تستعبد.

صادفني مؤخَّرًا كتابٌ عنوانه: "وصايا الله العشر God's Ten Commandments". يذكر المؤلِّف فيه أنَّ الوصايا العشْر غالبًا ما تصوَّر على أنَّها تحذيرات لا تُحْمَد عقباها، عبارات قاسية جافَّة مِن إله كلِّي القدرة ذي سيادة ومُنتقِم.

إلاّ أنَّ العكس هو الصَّحيح. الله ليس بمنتقِم. إنَّه أب حنـــون كما نراه في مَثَل الابن الضَّال. العَشَر وصايا هي عشرة إعلانات عن محبَّته لنا، فالله يحبُنا ويرينا الطَّريق إلى الحريَّة مِن خلال الوصايا. مرَّة أخرى، الوصايا تحرِّر ولا تُقيِّد ولا تخنق.

الحياة تحتاج إلى قائمَي المرمى

الحياة بدون حدود وبدون قواعد تشبه لعب التِّـــنس بـــدون شبكة أو لعب كرة القدم بدون مرمى.

وجود الشَّبكة في ملعب التِّنس ووجود قائمَي المرمى في ملعب كرة القدم تمنحنا حريَّة اللّعب بأفضل إمكانيَّاتنا. الحريَّة أيـــضًا لهـــا حدود، وتلك الحدود يتم رَسمها مِن خلال ما نسمِّيه المسؤوليَّة. الحياة أيضًا لها قواعدها، لها قائمَا المرمى الموضوعَان مِن قِبَل الله (الوصايا). فالوصايا موجودة لمساعدتنا في انطلاقنا لنصبح أشخاصًا أحرارًا كما قصد الله عندما خلقنا.

الإرادة الحرَّة والحريَّة الفرديَّة

آباء الكنيسة الأوَّلون يُميِّزون بين نوعَيْن مِن الحريَّة يُعَبَّر عنهما في اليونانيَّة بكلمتَيْن مختلفتَيْن. النَّوْع الأوَّل مِـــن الحريَّـــة يـــسمُّونه autexousism أي رباطة الجأش أو ضبط الـــنَّفس، أو أنْ تكـــون

مسؤولاً عن نفسك. هذا هو السُّلطان الذي منحه الله لنا عندما خلقنا على صورته. إنَّه القدرة على تحديد الخيارات الخاصَّة بنا وأنْ نكون المتحكِّمين في مصيرنا: autexousion.

النَّوْع الثَّاني مِن الحريَّة الذي منحه الله لنا يصفه الآباء اليونانيُّون الأوائل بكلمة eleutheria. تلك هي الكلمة التي يستخدمها كاتبو العهد الجديد لوصف التحرُّر والعتق مِن الخطيَّة (رو٦: ١٨-٢٣)؛ التحرُّر مِن النَّاموس (غل٢: ٤)؛ التحرُّر مِن الموت (رو٦: ٢١).

الخطيَّة هي التي تجعلنا نفقد الحريَّة eleutheria عن طريق استمالتنا لأنْ نُسيطِر على حياتنا بعيدًا عن الله. وبمجرَّد أنْ تسود علينا الخطيَّة، فإنَّها تُقسِّي قلبنا تجاه الله وتعمينا عن وجوده في حياتنا، وتظل كلمة الله توجِّه الحديث لنا باستمرار لكنَّنا نبقى صُمًّا. كما يظل الرُّوح القُدُس يبحث عنَّا محاولاً أنْ يعيدنا إلى الله وإلى الحريَّة eleutheria الحقيقية. لهذا السبب كتب بولس الرَّسول: «**فاثبتوا إذًا في الحريَّة eleutheria التي قد حرَّرنا المسيح بها ولا ترتبكوا أيضًا بنير عبوديَّة**» (غل٥: ١).

الله يدعونا للحريَّة

وبسبب ما ذكرناه سابقًا فإنَّ الله لا يُصدر أوامرَ يجبرنا بها بل بالأحرى يحاول إظهار حبه لنا ويحاول جذبنا نحوه عن طريق تعاملاته

معنا ودعوته لنا: «**إنْ أراد أحد أنْ يأتي ورائي...** ».

«**إنْ أردتَ أنْ تكون كاملاً...** »، «**تعالوا لأنَّ كل شيء قد أُعد...** » تلك هي الدَّعوات التي يوجِّهها الله لنا لنختبر نوعَي الحرية autexousion (ضبط النَّفس) وeleutheria (التحرُّر مِن الخطيَّة والمَوْت) على حدٍّ سواء.

يقول الرَّسول بولس:

«**ألستم تَعلمون أنَّ الذي تُقَدِّمون ذواتكم له عبيدًا للطَّاعة، أنتم عبيد للذي تطيعون: إمَّا للخطيَّة للمَوْت أو للطَّاعة للبِر؟**» (رو٦: ١٥).

طاعة الله تؤدِّي إلى كلٍّ مِن التحكُّم في الذَّات (ضبط النَّفس) autexousion والتحرُّر مِن الخطيَّة والمَوْت eleutheria. ""

الكلمة الطنَّانة الجديدة : "الاختيار"

نُشِر مؤخَّرًا كتاب اسمه "الاختيارات التي قمنا بها"، يصف تجارب ومشاعر العديد مِن النِّساء اللواتي اختبرنَ الإجهاض.

الأمر الغريب في هذا الكتاب هو أنَّ بالرَّغم مِن أنَّ عنوانه يتحدَّث عن "الاختيارات"، إلاَّ أنَّ تقريبًا كل اللاتي يسردن قصصهنَ يذكرنَ أنَّه "لم يكن لديهنَّ خيار آخر"، وأنَّ الإجهاض كان الخيار الوحيد المطروح أمامهنَّ.

ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا الموقف تجاه الإجهاض موقف مماثل تجاه الجنس. في هذا الكتاب عبَّر الكثير من الناس عن اعتقادهم أنَّه ليس أمامنا خيار سوَى أنْ نكون نشيطين جنسيًّا، سواء كنَّا متزوِّجين أو غير متزوِّجين. لقد أصبحت كلمة الاختيار هي الكلمة الطنَّانة الجديدة، إلاَّ أنَّ النَّاس في هذا الكتاب يشكون من عدم وجود أي اختيارات مطروحة أمامهم.

تقول إحدى السيِّدات في هذا الكتاب: "أنا أومن بشدَّة بحقِّ المرأة في السَّيطرة على جسدها"، (هذا هو بالطَّبع التَّبرير المنطقي للإجهاض الذي يؤمن به المدافعون عن حقوق المرأة)، إلاَّ أنَّ تلك السيِّدة بعد بضعة جُمَل إذا بها تقول ضمنًا إنَّ المرأة لا تقدر أنْ تسيطر على نزواتها الجنسيَّة. تقول "حقيقة الأمر هي أنَّني كنت أمارس الجنس... هذا هو الأمر الذي لا يدركه الناس". هنا يبدو الأمر كما لو كان ممارسة الجنس ليس اختياريًّا. كتب شخص آخر: "إنَّ تجربة البلوغ بالنِّسبة للفتاة وللصبي على حد سواء، هي تجربة هائلة تطغي بشدَّة على سلوكهما لدرجة أنَّ الامتناع (عن ممارسة الجنس) قبل الزَّواج هو أمر غير واقعي".

يا للغرابة!

مع كل الحديث عن الاختيار الحُر، فإنَّ نفس هؤلاء النَّاس

المؤيِّدين لحريَّة الاختيار لا يكفُّون عن القول بأنَّه: ليس لدينا أي خيارات ولا لدينا أي حريَّة على الإطلاق. الجنس، يشعرون أنَّه لا مفرَّ منه لا خِيار! الإجهاض ضرورة لا خِيار! إلاَّ أنَّ الحركة تُطلق على نفسها "مناصري الإجهاض"، أو "مناصري الاختيار الحُر". وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ تلك الأمور ليست شديدة الغرابة، فالإحساس بأنَّه ليس هناك خيار لا يرتبط فقط بالجنس أو بالإجهاض، بل هو مرتبط بالخطيَّة بشكل عام. نحن نصير عبيدًا للذي نطيعه، كما كتب بولس الرَّسول، والعبوديَّة للخطيَّة تؤدي إلى فقدان الحريَّة والموت.

"مناصرة الاختيار الحُر" هو تعبير مهذَّب للتمرُّد على الله. فنحن نختار إرادتنا عوضًا عن إرادة الله، نحن نختار الموت عوضًا عن الحياة. لا نعترف بأيِّ سُلطة أعلى مِن سُلطة ذواتنا. تحكي إحدى "مناصري الاختيار الحُر" غير المتزوِّجات أنَّها عندما اختارت ألاَّ تجهض الجنين بل تحتفظ به وتربِّيه، أُصيبت صديقاتها المؤيِّدات للاختيار الحُر بخيبة أمل شديدة بسبب اختيارها هذا. تقول المرأة:

"جاء حَملي كصدمة مروِّعة للذين يؤمنون بحقِّ المرأة في الاختيار. كثيرًا ما تنسى الحركة النسائيَّة المناصرة للاختيار أنَّها تدافع عن حريَّة الاختيار".

إلاَّ أنَّ الاختيار ليس مطلَقًا، فقد أكَّد الأب جون ميندورف

Fr. John Meyendorff أنَّ الإجهاض ليس مسألة تتعلَّق باختيار المرأة الحُر، بل هو مسألة مسؤوليَّة، مسألة قتل. يقول الأب:

"لم تقل الكنيسة أبدًا إنَّ القتل أمرٌ صالحٌ، فالقتل هو دائمًا قتل. لذلك فالأمر المُهم بالنِّسبة للإجهاض هو أنَّه ليس مسألة تتعلَّق باختيار المرأة الحُر. إنَّه مسألة قتل. فالمرأة عليها أوَّلاً أنْ تعرف أنَّ الإجهاض هو قتل ثم بعدئذ تقوم بالاختيار؛ لكن يجب عليها أنْ تدرك أنَّ اختيارها للإجهاض هو شرٌّ عظيم. إذا كان هناك ضرورة واضحة للإجهاض مِن أجل إنقاذ حياة الأم، حينئذ يجب اتِّخاذ القرار لصالح الشَّر الأهْوَن. وحتى في مِثل تلك الحالات، فالمسألة ليست على الإطلاق مسألة حقوق الإنسان، ليس مِن حقِّ أي كائن بَشَري أنْ يقتل. ما يزعجني بشِدَّة إزاء النِّقاش الدَّائر حاليًّا حول قضيَّة الإجهاض هو أنَّ الحجج تستند فقط على مسألة حقوق الإنسان. فبينما تُدرك الأرثوذكسيَّة أهميَّة الحريَّة الإنسانيَّة، فهي أيضًا تُدرك المسؤوليَّة التي تسير جنبًا إلى جنب مع تلك الحريَّة. وعندما تحاول الحركة المناصرة للإجهاض أنْ تبرِّر نفسها مِن خلال الزَّعم بأنَّ الإجهاض حقٌّ مِن حقوق الإنسان أو مِن حقوق المرأة، فهي بذلك تتجاهل المسؤوليَّة الإنسانيَّة وتصبح غَيْر إنسانيَّة بالمرَّة.

الخطيَّة كعبوديَّة

الخطيَّة هي عبوديَّة، ممَّا يعني أنَّها في نهاية المطاف تمحو حريَّة الاختيار. قال الرَّب يسوع: «**الحق الحق أقولُ لكم: إنَّ كلَّ مَن يعمل الخطيَّة هو عبدٌ للخطيَّة**»، لكنَّه يكمل قائلاً: «**إنْ حرَّركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحرارًا**» (يو٨: ٣٤، ٣٦). كثير من الناس الذين يتحدَّثون بصَوْت عالٍ عن الحريَّة هم أنفسهم ليسوا أحرارًا على الإطلاق، فهم يمارسون الجنس خارج إطار الزَّواج لأنَّهم لا يستطيعون السَّيطرة على غرائزهم وشهواتهم. هذه هي العبوديَّة وليست الحريَّة؛ إلاَّ أنهم يتحدَّثون عنها كما لو كانت هي الحريَّة. إنَّهم عبيد وهم لا يدركون ذلك. إلى هذا الحد الخطية تصيب النَّاس بالعَمَى. يُغَنِّي بوب ديلان Bob Dylan قائلاً: "لابدَّ أنْ تخدم شخصًا ما؛ قد يكون الشَّيطان أو قد يكون الله، لكن لابدَّ أنْ تطيع شخصًا ما".

لا توجد سُلطة أعلى مِن سُلطة الذَّات

مِن تعاليم العَلمانيَّة أنَّه لا توجد سُلطة أعلى من الذَّات. هذا يُذكِّرني أنَّ في رواية جورج أورويل George Orwell المسمَّاة "١٩٨٤" تقول إحدى الشخصيَّات أنَّ الحريَّة هي أنْ تعترف بالواقع، أنْ تقول إنَّ اثنَيْن زائد اثنَيْن يساوي أربعة.

أمَّا بالنِّسبة لتأييد المحكمة العليا لالتماس السيِّدة رو Roe [التي كانت تطالب بأنْ يكون الإجهاض قانونيًّا] عام ١٩٩٢م فقد كان منطق المحكمة – إذا كان يمكن أنْ يُسمَّى منطقًا! هو أنَّ الحريَّة الحقيقيَّة تعني حريَّة القَوْل إنَّ اثنَيْن زائد اثنَيْن يساوي خمسة. لقد كان رأي الأغلبيَّة هو أنَّ: "أهمَّ ما في الحريَّة هو حق الإنسان أنْ يُحَدِّد مفهومه الخاص عن الوجود، عن المعاني، عن الكَوْن وعن لغز الحياة البَشَريَّة". إذا لم يكن هناك سُلطة أعلى مِن سُلطة الذَّات التي: "لها الحق في تحديد مفهوم الإنسان الخاص عن الوجود، عن المعاني، عن الكَوْن"، إذن اثنان زائد اثنَيْن يمكن أنْ تساوي ليس فقط خمسة بل مائة وخمسة. إيماننا المسيحي الأرثوذكسي يُعَلِّمنا أنَّ الحقَّ لا يُحدِّده الإنسان بل الله، ذلك الحق الذي يُحَرِّرنا (يو ٨: ٣٢).

العبيد الذين يَعِدون الآخرين بالحريَّة

ما قاله بطرس الرَّسول عن المعلِّمين الكذبة ينطبق على الأبطال المعاصرين الذين ينادون بحريَّة ممارسة الجنس، وحريَّة ممارسة كل شيء: **«واعدين إيَّاهم بالحريَّة وهم أنفسهم عبيد الفساد»** (٢بط ٢: ١٩). أولئك الذين هم عبيد للخطيَّة يحاولون إقناع الآخرين بأنَّ العبوديَّة هي الحريَّة. يتحدَّث بولس الرَّسول عن هذا الحال في رسالته إلى أهل رومية ٦: ١٦-٢٣:

«ألستم تَعْلَمون... أنتم عبيد للذي تطيعونه: إمَّا للخطيَّة للمَوْت أو للطَّاعة للبر؟.. لأنَّه كما قدَّمتم أعضاءكم عبيدًا للنَّجاسة والإثم للإثم، هكذا الآن قدِّموا أعضاءكم عبيدًا للبرِّ للقداسة... فأيُّ ثمر كان لكم حينئذ من الأمور التي تستحون بها الآن؟ لأنَّ نهاية تلك الأمور هي المَوْت. وأمَّا الآن إذ أُعتقتم من الخطيَّة، وصرتم عبيدًا لله، فلكم ثمركم للقداسة، والنِّهاية حياة أبديَّة؛ لأنَّ أجرة الخطيَّة هي مَوْت، وأمَّا هبة الله فهي حياة أبديَّة بالمسيح يسوع ربِّنا».

لابدَّ أنْ تطيع شخصًا ما، إمَّا الخطيَّة أو الله. إذا أطعتَ الخطيَّة ستكون عبدًا. إذا أطعتَ الله ستكون حرًّا. نحن الذين كنَّا يومًا عبيدًا للخطيَّة، قد تحرَّرنا لنصير عبيدًا أحرارًا لله، لنحصد قداسة وحياة أبديَّة.

الله خلقني لأكون شخصًا حرًّا، فريدًا، لا يتكرَّر، شخصًا يحيا في شركة مع الله ومع أشخاص آخرين أحرار، فَرِيدين، لا يتكرَّرون. وأنا أصير وأظل هذا الشخص الحُر، الفريد، الذي لا يتكرَّر، فقط عندما "أسكن باستمرار في الله"، كما كتب القدِّيس سلوانس.

المطران المتنيِّح أنتوني بلوم Metropolitan Anthony Bloom قال:

"كلمة حريَّة في الروسيَّة تشير إلى أنَّنا مدعوُّون لنكون أنفسنا؛ أي لا نُقَلِّد أحدًا، ولا نكون صورة مشابهة لأحد، بل نكون

أنفسنا على صورة ذاك الذي هو الحريَّة المطلقة والحُب المطلَق؛ حقًّا على صورة الله ذاته".

نحن مِلْكٌ لله باستحقاق الخَلق والفداء، نحن مدعوُّون لنكون أيضًا مِلكًا له باستحقاق الاختيار الحُر.

الله يُنقذ شعبه مِن العبوديَّة

الله لم يخلق شعبه ليكونوا عبيدًا. مثال عظيم على ذلك هو خروج العهد القديم. كما تتذكَّرون القصَّة، فبنو إسرائيل كانوا مجبَرين أنْ يصيروا عبيدًا في أرض غريبة، مصر، خاضعين لسخرة لا ترحم. ثمَّ يقوم فرعون بمحاولة طائشة للتحكُّم في عدد السُّكان اليهود، فيعطي أوَّلاً تعليمات للقابلات العبرانيَّات بأنْ يقتلنَ جميع الذُّكور العبرانيِّين عند الولادة (التَّعليمات التي عصَوْها سرًّا)، ثمَّ بعد ذلك يأمر بإغراق كل الفتيان العبرانيِّين في نهر النِّيل.

فصرخ الشعب إلى الله طالبين الخلاص:

«تنهَّد بنو إسرائيل مِن العبودية وصرخوا، فصعد صراخهم إلى الله مِن أجل العبوديَّة، فسمع الله أنينهم، فتذكَّر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ونظر الله بني إسرائيل وعَلِم الله» (خر٢: ٢٣-٢٥).

يسمع الله صراخهم طالبين الحريَّة، فيكلِّف الله موسى بمهمَّة بالغة الأهميَّة، مهمَّة إنقاذهم مِن العبوديَّة المصريَّة.

«إنِّي قد رأيتُ مذلَّة شعبي الذي في مصر، وسمعتُ صراخهم مِن أجل مسخِّريهم. إنِّي علمتُ أوجاعهم. فنزلتُ لأنقذهم مِن أيدي المصريِّين وأُصعدهم مِن تلك الأرض، إلى أرض جيِّدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبنًا وعسلاً» (خر٣: ٧-٨).

الله يتدخَّل في التَّاريخ ليكسر قيود العبوديَّة، ويقود شعبه إلى أرض يقدرون أنْ يعيشوا فيها في حريَّة، وعدالة، وسلام.

الله خلق شعبه لأجل الحريَّة وليس لأجل العبوديَّة. وعندما يعطي الله الوصايا العَشْر لشعبه، فإنَّ هذا الفِعل لا يأتي مِن فراغ، فهذه الوصايا هي مِن قِبَل الإله الذي له معهم تاريخ طويل مِن العناية والرِّعاية، لهذا السَّبب كانت الوصايا مسبوقة بكلمات الله: **«أنا الرَّب إلهك الذي أخرجك مِن أرض مصر مِن بيت العبوديَّة»** (خر٢٠: ٢).

وبعِبَارة أخرى، الإله الذي خلَّص شعبه مِن العبوديَّة المُرَّة في مصر، الإله الذي برهن أنَّه يريد أنْ يكون شعبه حرًّا، وبالفعل خلَّصهم مِن العبوديَّة، هذا الإله بعينه يعطيهم الآن إرشادات إلهيَّة ليحيوا بها؛ الوصايا العَشر التي صُمِّمَت لإطلاق سراحهم مِن عبوديَّة الخطيَّة والفوضى الأخلاقيَّة المرتبطة بها.

«فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكـــوا أيضًا بنير عبوديَّة» (غل٥: ١).

مرَّة أخرى، نحن مِلْكٌ لله باستحقاق الخَلْق والفداء، مـــدعوُّون لنكون أيضًا ملكًا له باستحقاق الاختيار الحُر.

سَبْق التَّعيين (القَدَر) ينفي الإرادة الحرَّة

مِن أعظم أعداء الإرادة الحرَّة عقيدة سَبْق التَّعيين الخاطئة التي علَّم بها أوغسطينوس ثمَّ واصل كالفن ولوثر التَّعليم بها في وقت لاحق. وفقًا لهذا التَّعليم، فإنَّه مِن بداية الزَّمن، اتَّخذ الله القرار مِن تلقاء نفسه بـــشأن الذين تقرَّر لهم أنْ ينالوا الخلاص ومَن الذين تقرَّر لهم أنْ يهلكوا.

وليس في وسع الإنسان أنْ يفعل أي شيء يَقدر أنْ يُغَيِّر بـــه قرار الله السِّيادي. إذا كان الله قد قرَّر بالنِّسبة لك أنَّك قُدِّرَ لك أنْ تخلُص أو أنْ تهلك، فإنَّك سوف تخلُص أو تهلك بغضِّ النَّظر عمَّـــا تفعله، وبالتَّالي تكون الإرادة الحرَّة لا وجود لها.

وفقًا لعقيدة سَبْق التَّعيين، لقد اتَّخذ الله القرار قَبْل ولادتك إذا كنتَ ستذهب إلى السَّماء أم إلى الجحيم. ليس في وسعك أنْ تفعـــل أي شيء مِن شأنه تغيير هذا القرار. لكن لماذا؟ لماذا يرغب إله محب في أنْ يقضي سلفًا بخلاص البعض وهلاك البعض الآخر؟

وفقًا لعقيدة سَبْق التَّعيين الخاطئة، النُّفوس التي مِن المقـــرَّر أنْ تهلك مِن قِبَل انتقام الله أكثر بكثير مِن النُّفوس التي سوف تخلُص مِن قِبَل مراحم الله. لكن لماذا؟ لماذا يقرِّر الله على نحو اعتباطي أنْ يخلُص البعض ويهلك البعض الآخر؟ في الإجابة على هذا الســؤال، يَـــرُد أوغسطينوس قائلاً إنَّ إرادة الله غامضة وغَيْر قابلة للفهم مِـــن قِبَـــل البَشَر. ويكمل قائلاً إنَّ العدالة الإلهيَّة هي أسمى بكثير مِـــن العدالـــة الإنسانيَّة. ويضيف أوغسطينوس قائلاً:

[يجب علينا أنْ لا نَشُك في عدل الله حتى عندما يفعل شيئًا يبدو ظالمًا].

إله سَبْق التَّعيين (القدر) المَزاجي

هنا نحن في حاجة إلى أنْ نتذكَّر في هذه المرحلة كلمات مـــار أفرآم الذي قال إنَّ الله ليس بعادل، لو كان الله عادلاً، لكان ينبغـــي أنْ نُصلَب نحن على الصَّليب؛ وليس ابن الله.

وَصَف فرانك شيفر Frank Schaeffer أهوال سَبْق التَّعيين على النَّحو التالي:

"المذهب الأوغسطيني يعلِّم بأنَّ ما يسمَّى الخطيئة الأصـــليَّة قـــد جرَّدت البَشَر مِن قيمتهم الجوهريَّة، وأنَّهم ســـقطوا ســـقوطًا لا يمكن أنْ يُكفَّر عنه (صاروا ساقطين على نحو لا يمكن الخـــلاص

منه). هذا السُّقوط يشمل إرادة البَشَر الحرَّة، وبالتَّالي فإنَّ النِّعمة وحدها تكفي لخلاص النُّخبة المختارين. الخاطئ لا يختار النِّعمة، بل هي تُمنَح له من قِبَل الله بِغَضِّ النَّظر عن رغبات الخاطئ.

ووفقًا للمذهب الأوغسطيني، فقد خلق الله خاطئًا لينال الخلاص، وآخر ليحكم عليه بالهلاك؛ والله لا يفعل هذا لسبب مُعَيَّن مثل معرفته (السَّابقة) بمَن (من البَشَر) سوف يختار أنْ يحبَّه أو يكرهه، بل هو يفعل هذا على نحو مزاجي غريب الأطوار، ولأسباب غَيْر معروفة".

وَصَف نيكولاس بردييف Nicholos Berdyaev عقيدة سَبْق التَّعيين بـ "الوحشيَّة، الاعتباطيَّة، الاستبداديَّة". كما قال:

"مِثْل هذا الإله الذي يُطْلِق عليه البَشَر إلهًا بطريقة عَبَدَة الأوثان ليس هو الله، إنَّه الشَّيطان".

عقيدة تَخْلِق مُلحِدِين

المؤرِّخ الشَّهير ويل ديورانت Will Durant قال عن عقيدة سَبْق التَّعيين التي علَّم بها كالفين Calvin:

"سنجد دائمًا أنَّه من الصَّعب أنْ نُحِب الرَّجُل (كالفن) الذي غطَّى النَّفس البَشَريَّة بالقتامة بمفهومه عن الله، الأكثر عبثًا وتجديفًا في كلّ تاريخ الهراء الطَّويل والمُميَز".

عبَّر ج. ك. تشسترتون G.K. Chesterton عن رأيه بالكلمات التَّالية:

"مذهب كالفين سَلَب الحريَّة من الإنسان ولكنَّه تركها لله. ذلك الإله الذي تصفه عقيدة سَبْق التَّعيين خَلَق مُلحدين أكثر من أيِّ تعليم آخر. مَن ذا الذي يريد أنْ يؤمن بإله يُخَلِّص البعض ويُهلك البعض الآخر بطريقة اعتباطيَّة مزاجيَّة؟ هل هذا هو نوع الإله الذي تحدَّث عنه يسوع عندما شبه الله بالأب في مَثَل الابن الضال، الله الذي: «يريد أنَّ الجميع يَخلصون وإلى معرفة الحقِّ يُقبلون؟ (١تي٢: ٤)»".

لوثر وسَبْق التَّعيين (القَدَر)

شأنه شأن أوغسطينوس، نفى لوثر أنَّ الله أراد أنْ ينال الجميع الخلاص. كتب لوثر:

"خلَّص قليلين جدًّا وأهلك كثيرين جدًّا"، ليُظهر أنَّ نعمته لا يمكن أنْ تكون أمرًا مفروغًا منه. وبرفضه الكثيرين، يُظهر الله أنَّ رحمته هي عمل إرادته التي لا يمليها عليه أحد. ثم يكمل مؤكِّدًا أنَّ الله له كل الحق في فِعل ما يحلو له. إنَّه ليس مدينًا لنا بشيء، فهو له السِّيادة.

الرَّأي الأرثوذكسي في سَبْق التَّعْيين (القَدَر)

باستثناء بضع فقرات من كتابات أوغسطينوس، هذا النَّوْع من

سَبْق التَّعيين المزدوج، أي إنَّ الله قَضَى سلفًا لقلَّة قليلة بنوال الملكوت وللكثيرين بالذِّهاب إلى الجحيم، لم يكن معروفًا في الكنيسة الأولى. يتساءل أحد علماء اللاهوت: إذا كانت عقيدة سَبْق التَّعيين هي بالفِعْل عقيدة كتابيَّة، كيف لم تكن معروفة على الإطلاق في الكنائس الأولى في روما واليونان وآسيا – تلك الكنائس التي استلمت أولاً الأناجيل والرَّسائل – كيف لم يجد أحد مِن هذه الكنائس الأصليَّة تلك العقيدة في الكتاب المقدَّس في الـ ٥٠٠ سنة الأولى للمسيحيَّة؟

الإجابة بالطَّبع هي أنَّهم لم يجدوا هذه العقيدة في الكتاب المقدَّس، لأنَّها ببساطة لم تكن موجودة إلى أنْ أدخلها أوغسطينوس. إلى أيِّ مَدَى كنَّا سنَرَى اختلافًا في المسيحيَّة الغربيَّة في الوقت الحالي لو أنَّها اتَّبعت آباء الكنيسة الشَّرقيِّين الأوائل بدلاً مِن أوغسطينوس. المسيحيُّون الأرثوذكس لا يؤمنون بإله يحرمنا مِن الإرادة الحرَّة مِن خلال سَبْق التَّعيين (القَدَر).

مجمع أورشليم (١٦٧٢م) حوْل سَبْق التَّعيين (القَدَر)

أدان مجمع أورشليم في مرسومه الثَّالث عقيدة سَبْق التَّعيين:

"نحن نؤمن أنَّ الله الأكثر صلاحًا منذ الأزل عَيَّن مسبقًا للمجد أولئك الذين اختارهم، وعَيَّن مسبقًا للهلاك أولئك الذين رفَضَهم؛ لكن ليس لأجل أنْ يُبَرِّر الواحد ويهلك الآخر

دون سبب... بل بما أنَّه بمعرفته السَّابقة عرف الذين سيحسنون استخدام إرادتهم الحرَّة والذين سيسيئون استخدامها لذا فقد سَبَق فعيَّن البعض للمجد أو البعض الآخر للهلاك...

لكن أنْ نقول كما يقول أشرُّ الهراطقة إنَّ الله بسَبْق تعيينه للمجد أو للهلاك لم يراعِ بأيِّ حكمة أعمال أولئك الذين سَبَق فعيَّنهم للمجد أو للهلاك، فمِثل هذا القَوْل دَنَس وإثم...

كما أنَّ التَّأكيد على أنَّ الإرادة الإلهية هي وحدها وبدون سبب آخر التي دبَّرت لهلاكهم، فأيُّ افتراء أكبر مِن هذا يمكن أنْ يُلصَق بالله؟ وأيُّ ضرر وتجديف أعظم مِن هذا يمكن أنْ يُوَجَّه لله العَلي؟"

الخطيَّة هي الخطيَّة لأنَّها طَوْعيَّة

الخطيَّة هي الخطيَّة لأنَّها طوعيَّة، وإلاَّ لَمَا أدانَنا الله بسببها، ولَمَا دعانا للتَّوْبة.

بالنِّسبة للقدِّيس غريغوريوس النيصي، على سبيل المثال، ليس هناك تقسيم للبشريَّة بَيْن القلَّة المنتَخَبَة المقرَّر لها أنْ تخلُص، والكتلة الأكبر بكثير مِن النَّاس المقدَّر لهم أنْ يهلكوا. حتى أشرُّ الخطاة مدعوُّون للرُّجوع إلى الله. قال الرَّب يسوع: «**مَن يُقبل إليَّ لا أخرجه خارجًا**» (يو٦: ٣٧).

القدِّيس غريغوريوس النيصي لا يَقبل عقيدة: "النِّعمة التي لا تقاوَم"، التي تنصُّ على أنّنا لا يمكن أنْ نقول "لا" لنعمة الله.

يقول: "الفضيلة بالإجبار ليست فضيلة". إذا كنَّا لا نقدر أنْ نقول لا لنعمة الله، إذن فنحن ليس لدينا إرادة حرَّة.

كان أوغسطينوس يؤمن بأنَّ إرادة الإنسان الحرَّة: "دائمًا تختار الشرَّ بحريَّة تحت تأثير قوَّة الشَّيطان السَّاحقة". بعبارة أخرى، الإنسان عاجز عن اختيار الله واختيار الصَّلاح، فهو يقدر فقط على اختيار الشَّر.

علَّم لوثر أنَّ الخطيَّة الأصليَّة دمَّرت الإرادة الحرَّة تمامًا، وهي الآن واقعة تحت العبوديَّة الكاملة للخطيَّة. القدِّيس غريغوريوس النيصي يختلف معه في الرأي. كَتَب:

[لا تزال الطَّبيعة البَشَرية لها حريَّة الاختيار بَيْن الخَيْر والشَّر، وعلى هذا الأساس يمكن توجيه الدَّعوة إلى التَّوْبة للإنسان].

علّم القديس يوحنا ذهبي الفم حول موضوع الله والإرادة الحرَّة:

[الله يتعامل مع إرادة الإنسان بالطَّريقة التَّالية: عندما يرى الله أنَّ إرادتنا تتَّجه نحو الصَّلاح وتطلب معونته، فإنَّه يمنحها نعمته ويُقَوِّي الإرادة، ويساعدها على النَّجاح في سعيها للحصول على الفضيلة].

الله يريد أنَّ الجميع يَخلصون

المسيحيُّون الأرثوذكس يعترفون بشكلٍ واحد فقط مِن أشكال سَبْق التَّعيين (القَدَر)، ألاَ وهو حقيقة أنَّ الله يُحب الجميع، ويريد أنَّ الجميع، وليس القِلَّة المختارة، يُقبلون إلى معرفة الحق ويخلصون. يصف بولس الرَّسول هذا التَّعيين المُسْبَق الإيجابي مِن قِبَل الله في الرِّسالة إلى أهل أفسس ١: ٣-٥:

«مبارك الله أبو ربِّنا يسوع المسيح، الذي باركنا بكلِّ بَرَكة روحيَّة في السماويات في المسيح، كما اختارنا فيه قَبْل تأسيس العالم، لنكون قدِّيسين وبلا لَوْم قدَّامه في المحبَّة، إذ سَبَق فعيَّننا للتبنِّي بيسوع المسيح لنفسه، حسب مسرَّة مشيئته».

لقد اختار الله – كل واحد منا – قَبْل خَلْق العالم، وعيَّننا مسبقًا لنكون أولاده وبناته بالتبنِّي؛ لكنَّنا يجب علينا أنْ نصدِّق على اختيار الله وإرادته لنا.

كيف؟ الله دائمًا يُصَوِّت في صالحك، الشَّيطان دائمًا يُصَوِّت ضدَّك، لكنَّك أنتَ لديك الصَّوْت الفارق (الذي يحسم الأمر)".

رَفْض الإنسان حضور الوليمة

الله أعد الملكوت للجميع: **«هكذا أحبَّ الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، (لكي لا يَهلك ليس فقط المنتَخَبين، بل) لكي لا يَهلك كل مَن**

يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديَّة» (يو ٣: ١٦). الله يُعِدُّ وليمة، وليمة عُرس الخروف، وهو يدعو لهذه الوليمة ليس القِلَّة، "المختارين"، بل يدعو الكلَّ قائلاً: «**تعالوا لأنَّ كل شيء قد أُعِدا**».

ويبدأ المدعوُّون واحد تلو الآخر في تقديم الأعذار لعدم قدرتهم على حضور الوليمة. الآن، يقف يسوع عند بابك وبابي ويقول: «**هأنذا واقف على الباب وأقرع. إنْ سمع أحدٌ صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشَّى معه وهو معي**» (رؤ٣: ٢٠).

نعمة الله ليست "نعمة لا تقاوَم"، يمكننا أنْ نرفض فتح الباب.

المجمع الثَّاني في أورانج Orange
حَوْل سَبْق التَّعيين (القَدَر) ٥٢٩م

أدان المجمع الثَّاني في Orange أورانج عام ٥٢٩م عقيدة سَبْق التَّعيين (القَدَر) فقد أعلن المجمع:

> "**وفقًا للإيمان الكاثوليكي، نحن أيضًا نؤمن أنَّ بَعْد نوال النِّعمة من خلال المعموديَّة، إذا كان المعمَّدون على استعداد للجهاد بأمانة، فإنَّهم كلَّهم يمكنهم ويجب عليهم أنْ يحقِّقوا بمساعدة المسيح وعونه الأمور المتعلِّقة بخلاص نفوسهم. نحن لا نؤمن أنَّ البعض قد قُدِّر لهم الشَّر من قِبَل السُّلطة الإلهيَّة، وعلاوة على ذلك، إذا كان هناك مَن يرغبون في**

الإيمان بهذا الشرِّ الفظيع، مع نفورنا الشَّديد منهم سنقوم بحرمهم من الكنيسة.

كما نؤمن أيضًا ونؤكّد إيماننا بالخلاص، وأنَّه في كلِّ عمل صالح نتمِّمه لا نبادر نحن بالبداية، ثم بعد ذلك ننال المعونة من خلال رحمة الله، بل بالحري أنَّه مع عدم وجود أي استحقاقات صالحة سابقة من جانبنا، فإنَّ الله في البداية يلهمنا بالإيمان به وبحبِّه، حتى يتسنَّى لنا أنْ نطلب سرَّ المعموديَّة بإيمان، ثم بعد المعموديَّة وبمعونته نقدر أنْ نتمِّم مرضاته. لذا، من الواضح أنَّه يجب علينا أنْ نصدِّق أنَّ إيمان اللِّص الذي دعاه الرَّب ليكون معه في الفِرْدَوْس (لو٢٣: ٤٣)، وأنَّ إيمان كرنيليوس قائد المئة الذي أُرْسِل إليه ملاك من الله (أع١٠: ٣)، وأنَّ إيمان زكا الذي استحقَّ أنْ يَقْبَل الرب ذاته (لو١٩: ٦)، هذا الإيمان لم يكن عطيَّة من الطَّبيعة، ولكن كان عطيَّة من كَرَم الله".

وبالتَّالي، فقد رفض المجمع المحلِّي في أورانج Orange Gaul عام ٥٢٩ م عقيدة سَبْق التَّعيين المرفوضة، معتبرًا إيَّاها هرطقة كريهة.

علم الله السَّابق (معرفة الله المُسبَقَة – سَبْق معرفة الله)

يصاب بعض الناس بالحَيْرة والارتباك بسبب مُصطَلَح: "العلْم السَّابق – المعرفة المسبَقَة". ومُصطَلَح "سَبْق التَّعيين". بما أنَّ الله كُلِّي

المعرفة، فهو يَعلم كلَّ شيء. فهو مِن الأزل يَعرف مَن سيقبَل الإنجيل ويجد الحياة، ومَن سيرفض الإنجيل ويجد اللَّعنة؛ إلاَّ أنَّنا يجب أنْ ندرك، أنَّ معرفة الله المُسْبَقَة (عِلمه السَّابق) لا تحدِّد قرارهم أنْ يؤمِنوا أو لا يؤمِنوا. فسابق علمه مبني على إرادتنا الحرَّة. الله يَعلم أنَّنا بسلوكنا الحُر سوف نتَّخذ قرارات وخيارات معيَّنة. نحن نصنع القرارات وليس الله، لكنَّه على دراية بقراراتنا الحرَّة مقدَّمًا.

كاهنان يناقشان سَبْق التَّعيين (القَدَر)

أودُّ أنْ أُفَسِّر الموضوع على نحوٍ أفضل. اتَّفق كاهنان على تبادل المنابر، أي أنْ يعظ كل منهما في كنيسة الآخر ، الأوَّل هو الأب ليمان بيتشر Rev. Lyman Beacher، والثَّاني هو أحد أتباع المذهب الكالفيني؛ كاهن الكنيسة المجاورة، ذو الرَّأي المتشدِّد بخصوص عقيدة القضاء والقَدَر (سَبْق التَّعيين) التي يرفضها بيتشر.

يوم الأحد تَقابل الاثنان في طريقهما، كل واحد إلى كنيسة الآخر. قال كاهن الكنيسة المجاورة: "دكتور بيتشر، أودُّ أنْ أُلفت انتباهك إلى أنَّه قَبْل خَلْق العالم رتَّب الله أنْ تأتي أنتَ لتعظ مِن منبري، وأنا أعظ مِن منبرك في هذا الأحد بالتَّحديد". ردَّ عليه بيتشر: "هل الأمر كذلك؟" إذن أنا لنْ أفعل ذلك!" ثمَّ استدار بحصانه ورجع إلى كنيسته.

الله لا يقضي سلفًا (لا يُقَدِّر سلفًا). لماذا؟ لأنَّه منحنا عطيَّة الإرادة الحرَّة الرَّائعة التي يحترمها بشدَّة والتي هي جزء مِن صورة الله فينا.

سَبْق المعرفة ليست قضاءً مُسْبَقًا

سابق عِلْم الله لا يحرمنا مِن إرادتنا الحرَّة. على سبيل المثال، أنا أَعلم أنِّي إذا أمسكتُ بعَظْمَة أمام كلب جوعان، فإنَّه سيجري صوب العَظْمَة. لكن هل عِلمي بهذا الأمر يُحدِّد مسبَقًا سلوك الكلب؟ بالطَّبع لا. إنَّ جوعه هو الذي يحدِّد سلوكه. سابق عِلم الله لا يحدِّد أفعالي. الله يَعلم أنِّي بسلوكي الحُر بدون إجبار سأفعل هذا أو ذاك. وبالمناسبة، دعونا نتذكر أنَّ بالنِّسبة لله، الوقت لا وجود له. فيما يخص الله، لا يوجد ماضٍ ولا مستقبل، فكل الأحداث هي حاضر عند الله. ما هو أبدي هو الآن. وبالتَّالي، لا يمكن أنْ يكون هناك قضاء مسبَقٌ، لأنَّ (في الحقيقة) ليس هناك معرفة مُسْبَقَة بما إنَّ بالنِّسبة لله كل الأحداث هي في زمن المضارع.

الله يرانا كما لو كان مِن قمَّة جبل

مِن الممكن أنْ يساعدنا المَثَل التَّوضيحي التَّالي على فهم كيف أنَّ الله يعرف مقدَّمًا ما نحن بصدد القيام به، لكنه لا يدفعنا على فِعل أي شيء نقوم به (لا يكون هو السَّبب فيما نفعله):

حقًّا الله يَعلم كل شيء عنَّا، لأنَّه مِثل شخص واقف فوق قمَّة أحد الجبال يراقب أحد السيَّارات وهي تنـزل بسرعة عالية في منحنيات الطَّريق الجبلي المتعرِّج. في استطاعة سائق السيَّارة أنْ يرى عشرين أو ثلاثين قَدَمًا فقط أمام السيَّارة، إلاَّ أنَّ الشَّخص الواقف فوق قمَّة الجبل في استطاعته أنْ يرى أنَّ الطَّريق على بُعد خمسين قدمًا قد تعرَّض للتَّجريف عند المنعطف التَّالي في الجبل. الله "يَعلم" أنَّ السيَّارة ستطير خارج الطَّريق وتتحطَّم. هو "يَعلم"، لكن عِلمه لا يتسبَّب في الحادث. السَّائق كان له الحريَّة في ألاَّ يقود سيَّارته في هذا الطَّريق، كما كان له الحريَّة في قيادة سيَّارته بحذر أكثر في هذه المنحنيات، أو حتَّى في الحصول على تقارير سلامة الطَّريق مِن AAA (جمعيَّة السيَّارات الأمريكيَّة) قَبْل بداية رحلته.

إذن معرفة الله المُسْبَقَة لا تُقَرِّر الخيارات التي نتَّخذها. الله يريدنا أنْ نقوم بالاختيارات الصَّحيحة، ومِن أجل هذا السَّبب جاء إلى العالم في أقنوم (شخص) ابنه، الذي علَّمنا وأعطانا الكتاب المقدَّس. ومِن خلال الكنيسة والرُّوح القُدُس وصَوْت الضَّمير، يحاول الله دائمًا أن يهدينا ويرشدنا ويرينا الطَّريق الصَّحيح.

شرح الأب بوحنا الدِّمشقي الأمر بهذه الطَّريقة:

"ينبغي أنْ نفهم أنَّه في حين أنَّ الله يَعلم كلَّ شيء مسبَقًا إلاَّ أنَّه

لا يُقرِّر مسبقًا كلَّ شيء أو يُحدِّده، لأنَّه يَعلم مُسْبَقًا كلَّ الأمور التي هي في قدرتنا، لكنَّه لا يحدِّدها مُسْبَقًا...

وجود الشَّر ليس حسب إرادة الله، ولا هو يفرض الفضيلة... نحن لدينا المقدرة إمَّا أنْ نلتزم بالفضيلة ونتبع الله الذي يدعونا إلى طريق الفضيلة، أو أنْ ننحرف عن مسار الفضيلة".

وبعبارة أخرى، نحن أحرار. الله لا يقرِّر أعمالنا مسبَقًا.

أنتَ لديكَ الصَّوْت الحاسِم (الفارِق)

القصَّة التَّالية توضِّح مغالطة عقيدة القَدَر المحسوم مِن قِبَل الله. عندما كانت بلادنا تحت الاستعمار، كانت هناك زوجة تؤمن بنوع غريب مِن القضاء والقدر لا يترك مجالاً لحريَّة الإنسان. ذات يوم ذهب زوجها الذي لم يشاركها معتقداتها الغريبة إلى السوق. بعد بضعة دقائق رجع الزَّوْج قائلاً إنَّه نسي بندقيَّته. قالت له زوجته: "أنتَ إمَّا كان مقدَّرًا لك أنْ تُصاب بطلق ناري على يد أحد الهنود، أو مُقَدَّرًا لك ألاَّ يصيبك شيء. لو كان قَدَرَك أنْ تصاب بطلق ناري، فالبندقيَّة لن تفيدك في شيء، ولو كان قَدَرُك ألاَّ تُصاب، فأنتَ لستَ في حاجة للبندقيَّة. لذلك، لا تأخذ بندقيَّتك". لكن الزَّوْج أجاب: "وماذا عن الافتراض أنَّني مقدَّر لي أنْ أُصاب بطلق ناري على يد أحد الهنود في حالة عدم حمل بندقيتي؟"

وكان هذا الرَّد ردًّا جيِّدًا ولاهوتًا أرثوذكسيًّا سليمًا، فهو يضع الحريَّة البَشَرِيَّة في الاعتبار. نحن مسؤولون. الله يحمِّلنا المسؤوليَّة.

وبالنِّسبة للذين يتساءلون: "إذا كان الله يَعلم (مُسْبَقًا) أنَّ نفسي ستهلك، فلماذا خلقني؟ فالرد هو: "الله لم يخلقك ليكون مصيرك هو الهلاك، أنتَ تحكُم على نفسك بالهلاك. الله خلقك لتكون ابنه/ ابنته وأعدَّ لك مكانًا خاصًّا في الملكوت.

فيما يخص القَدَر المحسوم مِن قِبَل الله، نحن لا نُقر سِوى بأنَّ الله يريدك أنْ تكون معه إلى الأبد في الملكوت، لكن أنتَ لديك الصَّوْت الفارِق والرَّأي الحاسِم.

عقيدة سَبْق التَّعيين ليست عقيدة كتابيَّة

عقيدة سبق التَّعيين ليست عقيدة كتابيَّة. فيما يلي بعضٌ مِن كثير مِن الآيات الكتابيَّة التي تدحض عقيدة سَبْق التَّعيين.

«**الله يريد أنَّ جميع النَّاس** (ليس فقط المختارين) **يخلُصون، وإلى معرفة الحق يُقْبِلون**» (١تي٢: ٤).

كان بولس الرَّسول يصبر: «**على كلِّ شيء لأجل المختارين، لكي يَحصلوا هم أيضًا على الخلاص الذي في المسيح يسوع**» (٢تي٢: ١٠). بعبارة أخرى، "المختارين" في حاجة للحصول على الخلاص مِن

خلال كرازة الرُّسل. لا يوجد انتخاب تعسُّفي في التَّعيين المُسْبَق مِن جانب الله.

«**لأنَّ كثيرين يُدْعَوْن وقليلين يُنتخبون**» (مت٢٢: ٤١). هذه الآية تدل على أن ليس فقط القِلَّة المنتخَبَة بل كثيرين (كثيرين تعني الجميع في اللُّغات الساميَّة) يُدْعَوْن، لكن قليلين هم الذين يستجيبون. أولئك الذين يستجيبون بالفِعْل هم "المنتَخَبون"؛ منتَخَبون ليس مِن قِبَل الله فقط، بل أيضًا مِن قِبَل اختيارهم الحُر الخاص بهم.

إذا كان قليلون سيدخلون الملكوت، فذلك لأنَّ كثيرين إمَّا لا يتجاوبون مع دَعْوَة الله المجانيَّة أو يرفضونها، ليس لديهم «**لِباس العُرس**». إنَّهم مشغولون أكثر مِن اللازم بأمور أخرى، حتى إنَّهم لا يجدون الوقت لحضور وليمة العرس.

أقوال آباء الكنيسة عن سَبْق التَّعيين

يؤكِّد آباء الكنيسة الأوائل على حريَّة إرادة الإنسان في الاستجابة لإنجيل يسوع المسيح، وهم ينأون بأنفسهم عن عقيدة سَبْق التَّعيين، كما ينأون بأنفسهم عن الأمور المتعلِّقة بالأبراج والأقدار المرتبطة بالنُّجوم (التَّنجيم)، وكلاهما يحرمان الإنسان مِن الإرادة الحرَّة.

علق ثيودور أسقف قورش Theodoret of Cyr على آية سبق

التَّعيين الشَّهيرة في رومية ٨: ٣٠ التي تقول: «**والذين سَبَق فعَّينهم، فهؤلاء دعاهم أيضًا. والذين دعاهم، فهؤلاء برَّرهم أيضًا. والذين برَّرهم، فهؤلاء مجَّدهم أيضًا**»، فقال:

"**إنَّ سَبْق التَّعيين الحقيقي في جوهره ينطوي على دَعوة، وتلك الدَّعوة تتطلَّب استجابة حرَّة. يقول الرَّسول بولس: «الذين سبق فعيَّنهم فهؤلاء دعاهم أيضا». عندما تُوجَّه لك الدَّعوة، فأنت حُرٌّ في اختيارك، لكن يجب عليك أنْ تستجيب**".

القديس أمبروسيوس St. Ambrose أسقف ميلانو علَّق على رومية ٨: ٢٩: فقال:

[الله لم يعيِّنهم مسبَقًا قَبْل أنْ يعرفهم، إلاَّ أنَّه بالفعل سَبَق فعيَّن المكافأة لمن عرف مسبقًا أنَّهم مستحقُّون].

القدِّيس يوحنا ذهبي الفم تحدَّث على لسان الديَّان السماوي (متى٢٥: ٣٤-٤٤) وقال:

[قَبْل أنْ توجدوا، أنا قمتُ بإعداد وترتيب كل هذا، لأنَّني علمتُ (مُسْبَقًا) تلك الحالة التي ستكونون عليها، (أي ستكونون أشرارًا أو أبرارًا)].

لا يعتمد خلاصنا على سبق تعييننا بل على إيماننا، على حبِّنا، وعلى استجابتنا بمحض إرادتنا لدعوة الله لنا إلى وليمة المسيا. الله

يتوق بشدَّة إلى حضور "الجميع"، وليس فقط "المختارين" إلى الوليمة، إلى حدِّ أنَّه يُصدر أوامره قائلاً: «**اخرج إلى الطُّرق والسِّياجات وألزمهم (أقنعهم) بالدُّخول**». بالتَّأكيد ليس هذا هو سَبْق التَّعيين الذي مِن خلاله يُقرِّر الله على نحوٍ تعسُّفي مَنْ المحدَّد لهم أنْ يخلصوا ومَنْ المحدَّد لهم أن يهلكوا. النَّوْع الوحيد مِن التَّعيين المُسْبَق الذي تقبله الكنيسة هو أنَّ الله: «**هكذا أحبَّ العالم** (كل واحد منَّا) **حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل** (ليس فقط المختارين) **مَن يؤمِن به، بل تكون له الحياة الأبديَّة**» (يو٣: ١٦).

التَّنجيم ينفي الإرادة الحرَّة

بالإضافة إلى فلسفة الحتميَّة determinism (مِن ضمن معتَقَدات هذه الفلسفة أنَّ الإرادة الحرَّة ما هي إلا مجرد وهمٍ إنساني)، هناك أيضًا تعليم زائف آخَر يحرمنا مِن الإرادة الحرَّة التي وهبها الله لنا وهو التَّنجيم. عندما لاحظتُ كتابًا عن الأبراج على المائدة، قالت السيِّدة لصديقتها: "لم أكن أعلم أنَّكِ تؤمنين بالتَّنجيم". أجابت صديقتها: "أنا أومِن بعض الشيء بكلِّ شيء".

لقد أصبحنا نعيش في عصرٍ لا يوجد فيه حقٌّ مُطْلَقٌ بالنِّسبة لمُعظم النَّاس. كلُّ شيء نسبي، ولهذا أصبح الكثيرون يؤمنون بكلِّ شيء، لكن قليلاً. إذا كان الإنسان لا يؤمن بشيء فسينخدع بأيِّ شيء.

منذ بضع سنوات، أقرَّت السيِّدة الأولى السَّابقة نانسي ريجان، بأنَّها وقعت تحت تأثير العرافة والتَّنجيم. اعترفت أنَّها كانت تطلب المساعدة من أحد المنجِّمين، وتَدفع ثمن خدماته التي كانت تعتمد عليها في تحديد كل خطوة من خطوات الرئيس. في بعض الأحيان، أقوى رجل على وجه الأرض (زوجها) كان من النَّاحية الفعليَّة سجينًا في البيت الأبيض، وذلك بأمر المنجِّمين! بل والأغرب من ذلك أنَّ السيِّدة الأولى السَّابقة كانت تطلب من العرَّاف أنْ يخطِّط لاجتماعات قمة ريجان/ جورباتشوف؛ وقرَّر العرَّاف أنَّ الوقت الأكثر ملاءمة لتوقيع معاهدة الأسلحة النوويَّة متوسِّطة المدى كان ٨ ديسمبر عام ١٩٨٧م السَّاعة الثَّانية بعد الظهر.

بما أنَّ الانجذاب للنُّجوم والممارسات الغامضة الأخرى أصبح منتشرًا في هذا العصر المفتَرَض أنَّه عصر التطوُّر العلمي والتكنولوجي، فمن الحكمة أنْ ندرس ونعرف ماذا تُعَلِّمنا الكنيسة والكتاب المقدَّس عن مثل هذه الممارسات.

رائج بصورة هائلة

لقد أصبح التَّنجيم من الأعمال التجاريَّة الضَّخمة. يحرص كلَّ يوم أكثر من ٥٠ مليون أميركي على قراءة الطَّالع اليَوْمي (الأبراج) في أكثر من ٢٠٠٠ ألفي صحيفة بحثًا عن المشورة. يوجد حوالي ١٠٠٠٠

عشرة آلاف مُنجِّم متفرِّغين تفرُّغًا كاملاً، ومائة وخمس وسبعين ألفًا ١٧٥٠٠٠ آخرين لهم تفرُّغ جزئي. كل عام تُنفَق ملايين الدُّولارات على مجلات وكُتُب التَّنجيم وخرائط الأبراج وعَجَلات التوقُّعات، بل أيضًا على النَّشرات التي تقدِّم المشورة الفلكيَّة في أمور مِثْل السَّفر، الطَّبخ، أو المراهنات.

الأبراج اليوميَّة (حظّك – بُرجك اليوم) تُلاقي قبولاً شعبيًّا هائلاً، لدرجة أنَّه ذات يوم سقط سهوًا عامود الأبراج في إحدى الصُّحف فإذا بهم يتلقَّوْن سَيْلاً مِن المكالمات الهاتفيَّة الغاضبة؛ ومنذ ذلك اليوم صار مدير تحرير الجريدة يتأكَّد بنفسه مِن وجود عامود الأبراج في صحيفته.

ما هي ادِّعاءات المنجمِّين

يدَّعي المنجِّمون أنَّ لديهم القدرة على وصف مستقبلنا بناءً على موقع نجوم معيَّنة في وقت ولادتنا، وعلى هذا الأساس يتنبَّأ المنجِّمون بالأحداث والمناسبات التي قد تحدث في حياتنا. نحن قد نقرأ التنبُّؤات الفَلَكيَّة في الجريدة، أو يكون لدينا خريطة أعدَّها أحد المنجِّمين، أو نحصل على قراءة فَلَكيَّة بواسطة الكمبيوتر. الرَّئيس رونالد ريجان كان، بناء على طلب مِن السيِّدة الأولى، يضع على مكتبه تقويمًا مشفرًا، حيث كان يَستخدم اللَّوْن الأخضر ليُبرز "الأيَّام

الجيِّدة"، واللَّوْن الأحمر ليُبرز "الأيَّام السيِّئة"، واللَّوْن الأصفر ليُبرز "الأيَّام غير المضمونة". كانت تلك الوسيلة تساعده في وضع الجدول الزَّمني لمهامِّه الرئاسيَّة، وفي تحديد تحرُّكاته من مكان إلى آخر، وفي تحديد مواعيد الأحاديث العامَّة، أو بدء المفاوضات مع الدُّوَل الأجنبيَّة.

الإنسان الذي يقع تحت رحمة التَّنجيم يُترَك له القليل من الإرادة الحرَّة، فشخصيَّة الإنسان تتشكَّل بشكلٍ قاطع بناء على موقع الكواكب وقت ولادته، أمَّا ما يحدث له في حياته بعد الولادة، فذلك يقع تحت سيطرة تحرُّكات النجوم والكواكب فيما بعد.

وبالتَّالي فإنَّ الذي يؤمن بالتَّنجيم، مِن المرجَّح جدًّا أنْ يكون من المؤمنين بالقَدَر. فمصير الإنسان، بل حياة الإنسان تشكِّلها الكواكب وليست الاختيارات الحرَّة، وليس في وِسع الإنسان إلاَّ القليل ليُغَيِّر هذا المصير، كما لا يتحمَّل المرء مسؤوليَّة أفعاله سواء كانت جيِّدة أو سيِّئة، فالمسؤوليَّة تُلْقَى على النُّجوم والكواكب. في الواقع، يتحوَّل الإنسان إلى أسير الكواكب.

لذا فليس مِن المستغرَب أنَّ العالم القديم كان تحت رحمة النُّجوم. كان بولس الرَّسول يُحذِّر أهل كولوسي مِن الإيمان "بأرواح الكَوْن العنصريَّة". يقول الرَّسول بولس إنَّ من يؤمِن بسلطان المسيح لا يمكن أنْ يؤمِن بسلطان النُّجوم.

دعونا نُفَرِّق بَيْن التَّنجيم astrology وعِلم الفَلَك astronomy. عِلم الفَلَك هو عِلم يُدرَّس في المدارس، وهو الدِّراسة العِلْميَّة للنُّجوم. التَّنجيم ليس عِلمًا. قال أحدهم إنَّ التَّنجيم أبعد ما يكون عن العِلم، بل هو بالحري مرض، هو خرافات ينخدع بها السُذَّج؛ فالتَّنجيم يستند في جوهره على فكرة عفا عليها الزمن وهي أنَّ الأرض هي مركز النِّظام الشَّمسي. لم يَعُد أحد يؤمن بهذه النظريَّة. وعلى الرغم مِن أنَّ العِلم لا يُدَعِّم هذه النظريَّة، إلاَّ أنَّ هذا الأمْر لا يزعج المنجِّمين، فهم لا يزالون يَعملون على هذه الفرضيَّة البالية غَيْر العِلْميَّة.

التَّنجيم ليس عِلماً

نشرت مجموعة مكوَّنة مِن ١٨٦ مِن العلماء الأمريكيِّين البارزين بيانًا مطوَّلاً ذكروا فيه أنَّه لا يوجد أي دليل عِلمي لدعم التَّنجيم، وباختصار، هذا ما قالوه:

"أولئك الذين يؤمنون بالتَّنجيم يجب أنْ يدركوا أنَّه لا يوجد أساس علمي لعقائده ومبادئه، وبكلِّ بساطة، مِن الخطأ أنْ نتصور أنَّ القوَّة النَّابعة مِن النُّجوم والكواكب في لحظة الولادة تقدر أنْ تُشكِّل مستقبلنا، ولا هو صحيح أنَّ مواقع الأجرام السماويَّة تجعل أيامًا معيَّنة أكثر ملاءمة لأعمال محدَّدة، ولا أنَّ البرج المرتبط بيوم الميلاد يُحدِّد مدى توافق المرء أو عدم توافقه مع الآخَرين".

لو كان هذا البيان صحيحًا، فلماذا يكتسب التَّنجيم أنصارًا؟ البيان التَّالي مِن نفس المجموعة المكوَّنة مِن ١٨٦ عالمًا يجيب على هذا السُّؤال:

"في هذه الأوقات المضطربة، يتوق الكثيرون للشُّعور بالارتياح مِن خلال الحصول على التَّوجيه الذي يساعدهم في اتِّخاذ القرارات، فهم يميلون إلى الإيمان بالمصير المحدَّد سلفًا من قِبَل قوات نجميَّة خارج سيطرتهم. لكن، يجب علينا جميعًا أنْ نواجه العالَم، وأنْ ندرك أنَّ مستقبلنا يكمن في داخلنا وليس في النُّجوم".

حتى شكسبير Shakespeare الذي كان يرفض التَّنجيم جعل واحدًا مِن شخصيَّاته يقول: "يا عزيزي بروتوس Brutus، الخلل ليس في نجومنا وأبراجنا، بل في أنفسنا لأنَّنا المرؤوسون والتَّابعون".

أليس بلا ضرر؟

كثير مِن النَّاس يشعرون بأنَّ متابعة الأبراج اليوميَّة غير مؤذية بالمرَّة، فهم حقيقة لا يؤمنون بها، إنَّما هي مجرَّد عمل يقومون به. مِن الصَّحيح أنَّ التَّنجيم قد يبدأ في صورة عمل غَيْر ضار، لكن بمجرَّد أنْ ينشغل به الإنسان، هنا يبدأ الخطر الحقيقي أنْ يتحوَّل إلى مُدمن لمتابعة الأبراج، أو يعتمد بصورة مَرَضيَّة عليها. الملايين مِن الذين لا يُصلُّون

ولا يقرأون الكتاب المقدّس بتاتًا، لا يمكن أنْ يتركوا أيَّ يوم يمُـــر دون اللجوء لقراءة أبراجهم في الجريدة، وبعض الشّباب لا يُقـــدمون علـــى تحديد موعد الزّفاف إلاّ بعد الرُّجوع إلى خريطة الأبراج.

ما يقلقنا بشدَّة هو أنَّ التّنجيم أصبح يُقَدَّم بديلاً للحُكم العقلاني، والمنطق السَّليم، والحكمة التي يمنحها الله لنا. على سبيل المثال، قد يختار شاب أو شابَّة شريك الزوجيَّة على أساس توافق أبراجهما دون الالتفات إلى إذا ما كانا حقًّا متوافِقَيْن بالدَّرجة التي تسمح لهما بالزَّواج. الـــبعض الآخر قد يقومون بتأجيل أعمال هامَّة لأنَّ أبراجهم نصحتهم ألاَّ يفعلوا شيئًا على الإطلاق. على الرغم من أنَّه قد يبدو في البداية أنَّ التّنجيم بلا ضرر، إلاَّ أنَّ الخطر الحقيقي في التّنجيم هو أنَّه يجعلنا قَـــدَريِّين (نـــؤمن بالقَدَر)، ويبدأ النَّاس عند اتِّخاذ قرارات خطيرة في حياتهم في الاعتمـــاد ليس على إرشاد الله، ولا على حُكمهم الجيِّد، بل على النُّجوم.

عبَّر أحد العلماء بكلمات رائعة قائلاً:

"منظومة التّنجيم بأكملها مدمِّرة للإنسان. تخيَّل لو أنَّ كـــلَّ قرار في حياتك تتَّخذه عن طريق إلقاء قرعة مستخدمًا عُملـــة معدنيَّة (ملك ولاَّ كتابة). هذا هو حجـــم المخـــاطرة الـــتي ستتحمَّلها في اتِّخاذ القرارات عندما تلجأ للتّنجيم".

ماذا يصيب إيماننا المسيحي عندما نستشير الأبْراج؟

عندما نسمح للنُّجوم أنْ تُوَجِّه أعمالنا، فنحن بذلك ننكر سيادة الله المحبَّة والكريمة. التَّنجيم يستبدل الله برؤية حتميَّة لمستقبلنا تعتمد على موقع النُّجوم. اعتناق مثل هذه الفلسفة يجعلنا لا نتحمَّل أي مسؤوليَّة شخصيَّة عن الخطايا التي نرتكبها، ذلك لأنَّنا يمكننا أنْ نقول: "أنا لم أفعل ذلك. الأمر كلُّه كان بتوجيه مِن النُّجوم".

وبدلاً مِن الحريَّة المجيدة التي منحها المسيح لنا، نسمح لأنفسنا أنْ نصير أفرادًا مقهورين مطارَدين مِن النُّجوم، نصارع ونراوغ لنهرب من مصيرنا المحتوم. لذا فلا عجب أنَّ سِفْر التَّثنية يُسمي العرافة "أرجاس" (تث١٨: ١٠-١٢). وهذا هو سبب أنَّ القانون الكنسي يدين التَّنجيم والعرافة. في الواقع، القانون الكنسي رقم ٣٦ (لاودكيا) ينصُّ على طرد الأشخاص الذين يصنعون، يبيعون، يشترون أو يرتدون علامات الأبراج (زودياك zodiac) مِن الكنيسة.

حماقة الأمر بجملته

إنَّه مِن الحماقة أنْ نعتقد أنَّ تلك المجموعة المتنوِّعة مِن النَّاس مثل أدولف هتلر Adolf Hitler، الملكة إليزابيث Queen Elizabeth، هاري ترومان Harry Truman، ويليام شكسبير William Shakespear، بينج كروسبي BingCrosby، ويلي مايز Willy Mays، هوشي منيه

Ho Chi Miny، جولدا مائير Golda Meier، كل هـؤلاء لابـدَّ أنْ تكون كلَّ صفاتهم مشتَرَكة، لأنَّهم جميعًا وفقًا لميلادهم ينتمون لـبرج الثَّوْر! في الواقع، عندما يسألني أي شخص عن البُرج (العلامة) الـذي أنتمي إليه، أُحب أنْ أجيب عليه بأنْ أَرسم علامة الصَّليب على قطعـة من الورق وأقول: "هذه هي العلامة التي وُلدتُ تابعًا لها، تعمَّدتُ مـن قِبَلها، أحيا بها، وسأموت منتميًا إليها". ليست علامة برج الدَّلْو لكـن علامة الصليب، علامة مَن «**أحبَّني وأسلم نفسه لأجلي**»، علامـة مَـن يعتني بي ويرشدني.

إنَّه هو الذي أطلب مشورته كلَّ يومٍ من خلال الـصَّلاة ومـن خلال كلمته في الكتاب المقدَّس، ليس النُّجوم الجامدة البليدة التي تقـع على بعد تريليون ميل.

هل هو شيطاني؟

هناك أدلَّة دامغة بأنَّ التَّنجيم عملٌ شيطانيٌّ، إلاَّ أنَّ من الصَّعب أنْ ننكر أنَّ العديد من المنجِّمين، ليس كلُّهم، تكون تنبُّـؤاتهم في بعـض الأحيان دقيقة. على سبيل المثال، جين ديكسون Jeanne Dixon تعرف أشياء لا يعرفها الرَّجُل العادي أو المرأة العاديَّة، إلاَّ أنَّها أيضًا ترتكـب أخطاء. من خلال قوَّة الشَّيطان، يحصل بعض المنجِّمين على كَمٍّ مـن المعلومات التي تكفي لكسب ثقتكم بحيث يتمكنُّون من خداعكم.

وهنا يَطرَح السُّؤال التَّالي نفسه: إذا كانت جين ديكسون تَعْرِف أكثر ممَّا تعرفه أنت، مِن أين لها هذه المعلومات؟ مِن الواضح أنَّها مِن الشَّيطان! إنَّه ثاني شخص أكثر اطِّلاعًا في الوجود. في المعركة مِن أجل نفسك، المكان الثَّاني والاختيار الثَّاني هو الجحيم. الكتاب المقدَّس يَصف العِرافة والتَّنجيم بأنَّهما عملان شيطانيَّان، لذا فأنتَ عندما تقرأ برجك (حظَّك) اليَوْمي، فأنتَ تقرأ النَّشرة الشيطانيَّة اليوميَّة. إذا كنت لا تؤمن بالله، وبحبِّه وعنايته الإلهيَّة، فسوف تؤمن وتنقاد في حياتك وراء الخرافات والحماقة والأكاذيب الشيطانيَّة؛ بل وسوف تدفع مقابل ذلك مبالغ طائلة، لأنَّ تلك الأمور ثمنها باهظ، فخدعة الأبراج الفرديَّة (التي يطلبها الشَّخص خصِّيصًا له) تتراوح تكلفتها ما بين ١٠٠ مائة وعشرة آلاف ١٠٠٠٠ دولار! لذا يمكننا أنْ نقول إنَّ موضوع التَّنجيم بجملته، بالإضافة إلى كونه شيطانيًّا، هو أيضًا لعبة خداع.

ليس مِن المستغرَب إذن أنَّ الكتاب المقدَّس يدين التَّنجيم. إنَّه يدينه لأنَّه عبادة أوثان، فهو ينسب للكواكب والنُّجوم السُّلطان الذي يملكه الله وحده. التَّنجيم يحرمنا مِن عطيَّة عظيمة وهي الإرادة الحرَّة التي منحها الله لنا، وعوضًا عن ذلك يجعلنا دُمًى تحرِّكها النُّجوم. والتَّنجيم يحاول أنْ يعرف إرادة الله عن طريق وسائل أخرى غَيْر التي حدَّدها الله، أي الكتاب المقدَّس والكنيسة.

الله جعل موسى نبيًّا وليس عرَّافًا أو منجِّمًا! والرَّب يسوع اختار تلاميذ ورسلاً وليس منجِّمين! إذا كنتَ تبحث عن إرشاد، لماذا تحدِّق في النُّجوم بينما في إمكانك أنْ تلجأ إلى ذاك الذي خَلَق النُّجوم، وتتواصل معه مِن خلال الصَّلاة.

يحذِّرنا إرميا النَّبي قائلاً:

«اسمعوا الكلمة التي تكلَّم بها الرَّب عليكم يا بيت إسرائيل. هكذا قال الرَّب: "لا تتعلَّموا طريق الأُمم، ومِن آيات السَّماوات (الأبراج) لا ترتعبوا، لأنَّ الأُمم ترتعب منها"» (إر١٠: ١-٢). أي لا ترتاعوا مِن تنبُّؤاتهم لأنَّها كلَّها أكاذيب.

كما نقرأ تحذيرًا آخَرَ في سفر التَّثنية ٤: ١٩-٢٠:

«لئلاَّ ترفع عينيْك إلى السَّماء، وتنظر الشَّمس والقمر والنُّجوم، كل جند السَّماء التي قسمها الرَّب إلهك لجميع الشُّعوب التي تحت كل السَّماء، فتغترَّ وتسجد لها وتعبدها».

وفي إشعياء ٤٧: ١٣-١٤ تحذيرٌ آخَر:

«قد ضعُفْتَ مِن كثرة مشوراتك. ليقف قاسمو السَّماء الراصِدون النُّجوم المعرِّفون عند رؤوس الشُّهور، ويخلِّصوك ممَّا يأتي عليك. ها إنَّهم قد صاروا كالقش. أحرَقَتهم النَّار. لا ينجُّون أنفسهم مِن يد اللَّهيب. ليس هو جمرًا للاستدفاء، ولا نارًا للجلوس تجاهها».

إخفاقاته

هناك أخطاء مشهورة وقع فيها المنجِّمون وصارت معروفة عند الكثيرين. على سبيل المثال، أشار أحد المنجِّمين الذين يدَّعون علمهم ببواطن الأمور على هتلر أنْ يقوم بمهاجمة روسيا – وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه!

مِثال آخر: قَبْل أسابيع قليلة مِن الدَّوَران حول القمر الذي قام به طاقم Apollo 8، أعلن اتِّحاد المنجِّمين البريطانيِّين عن هذه النبوَّة:

"هناك احتمال كبير أنْ تحدث تغيُّرات خطيرة في شخصيَّة رُوَّاد الفضاء الثَّلاثة المشتركين في هذه الرِّحلة، ذلك لأنَّه سيحدث تقارُب شديد بين كوكَبَيْ المُشترى وأورانوس للمرَّة الأولى منذ ١٤ عامًا، وهذان الكوكبان لهما تأثيرات قويَّة جدًا".

تجاهل المسؤولون هذه التَّحذيرات، وكانت المهمَّة ناجحة للغاية.

نحن نَعْلَم أنَّ جين ديكسون وغيرها مِن المنجِّمين لا يحصلون على المعلومات مِن الله، لأنَّ الله دائمًا على حَق، وتنبُّؤات جين ديكسون تكون خاطئة أغلب الأحيان. المثال الأكثر شُهرة هو عندما تنبَّأت ديكسون بمنتهى الثِّقة أنَّ جاكي كيندي ليست على وَشَك أنْ تتزوَّج مرَّة أخرى، في اليَوْم التَّالي أعلنت جاكي زواجها مِن أوناسيس!

ماذا عن المجوس

قد يدافع أحد المنجِّمين عن معتقداته قائلاً إنَّ الكتاب المقـدَّس يوافق على التَّنجيم مدَّعيًا بأنَّ المجوس المذكورين في قصَّة ميلاد المسيح كانوا في واقع الأمر منجِّمين. هنا يجب أنْ نتذكَّر أنَّ ديانة المَشْرِق في زمن يسوع كانت تتضمَّن دراسة النُّجوم. لذلك عندما أَرسل الله ابنه الوحيد إلى العالم، برحمته اللانهائية وبحكمته، تأكَّد مِن أنَّ إعلان ميلاده نفذ أيضًا إلى أعماق هذه الدِّيانة الباطلة. تحدَّث الله مع أتباع هذه الدِّيانة الباطلة بالأسلوب المفهوم لهم، لكنَّه طالبهم بترك ديانتهم، ودعاهم ليأتوا ليسجدوا للطِّفل يسوع، كَوْكَب الصُّبح، نور العالم!

ماذا فعل هؤلاء المجوس الآتين مِن المَشرق عندما رَأَوْا المسيح الطِّفل في بَيْت لحم اليهودية؟ «**فلمَّا رَأَوْا النَّجم فرحوا فرحًا عظيمًا جدًّا. وأتَوْا إلى البَيْت، ورأَوْا الصَّبي مع مريم أمِّه. فخرُّوا وسجدوا له. ثمَّ فتحوا كنوزهم وقدَّموا له هدايا: ذهبًا ولبانًا ومُرًّا**» (مت٢).

تخلَّى المجوس عن عبادة النُّجوم، سجدوا ليسوع ونسَوْا كل ما يتعلَّق بالتَّنجيم.

الترنيمة التي تُرَنِّم بها في إحدى صلوات عيد الميلاد (حسب الطَّقس البيزنطي)، هي في الواقع كما يقول عنها الأب هوبكو Father

Hopko: "استنكار لعبادة الشَّمس والنُّجوم، دَعْوَة لعبادة المسيح شمس البِر، ابن الله الحقيقي (ملاخي٤: ٢)، الذي تعبده كل عناصر الطَّبيعة". تقول التَّرنيمة:

"ميلادُكَ أيُّها المسيح ربُّنا، أشرق على العالم بنور الحكمة! لأنَّ به، أولئك الذين كانوا يعبدون النُّجوم، تعلَّموا بواسطة نَجم أنْ يعبدوك أنتَ يا شمس البِر، وأنْ يعرفوك أنتَ المشرَق من العلاء (لو١: ٧٨). يارب المجد لك".

قوَّة الكَوْن ليست في النُّجوم بل في ابن الله

إنَّ القوَّة التي تُنَظِّم الكَوْن ليست كامنة في قوَّة مجهولة غامضة تُسَيْطِر عليها النُّجوم. القوَّة التي تُنَظِّم الكَوْن هي بالتَّحديد ابن الله ذاته، فهو له السُّلطان على جميع الكائنات الحيَّة وغَيْر الحيَّة، حتَّى على النُّجوم والكواكب أيضًا؛ كما عبَّر الرَّسول بولس على نحو رائع عندما كَتَب:

«الكُل به وله قد خُلِق. الذي هو قَبْل كلّ شيء وفيه يقوم الكُل» (كو١: ١٦و١٧).

التَّنجيم هو عبادة أوثان لأنَّه ينسب إلى النُّجوم والكواكب السُّلطان الذي يملكه الله وحده، فمصيرنا لا يتمُّ تحديده من قِبَل النُّجوم ولكن من قِبَل الله وعطيَّة الإرادة الحرَّة التي وهبها لنا. مثل المجوس، نحن لم نعُد نُقدِّم هدايا للنُّجوم وللقمر، بل للطِّفل الذي خَلَق النُّجوم والقمر.

أقوال آباء الكنيسة عن التَّنجيم

فيما يلي بعض أقوال بعض آباء الكنيسة عن التَّنجيم:

[إذا كنا نُوجِّه بسلطان النُّجوم، إذن الخَيْر والشَّر لا وجود لهما، لأنَّنا نفعل ما نفعله بتوجيه مِن النُّجوم. هذا يعني أنَّ وصايا الله التي تدور حول أنَّ الإنسان يجب عليه ألاَّ يخطئ، أو أنَّ الإنسان يجب أنْ يفعل الصَّلاح، تصبح لا تساوي أي شيء سوى الحماقة] (القدِّيس يوحنا ذهبي الفم).

[إذا كنَّا مجرَّد أدوات تتحكَّم فيها أجسام تدور في الفَلَك، إذن فنحن ليس لدينا إرادة حرَّة، والإنسان إذا فَقَدَ حريَّته، فَقَدَ كل شيء] (القدِّيس غريغوريوس النيصي).

[الإنسان لم يُخلق مِن أجل النُّجوم، بل بالحري النُّجوم خُلقَت مِن أجل الإنسان، وإذا صارت النُّجوم هي المتحكِّمة في الإنسان، إذن فيجب أنْ نعتبر أنَّ الإنسان صار عبدًا لخَدَمه. الله لم يَخلق الكواكب والنُّجوم بقصد أنْ تُهَيْمِن على الإنسان، بل مِن أجل أنْ تَخضع له وتخدمه مِثل باقي المخلوقات] (القدِّيس غريغوريوس الكبير).

استبدال حقّ الله بالكذب

لو نظرنا إلى التَّنجيم مِن أيِّ زاوية، سنجد أنَّه لا قيمة له. فهو

مُدان مِن قِبَل الكتاب المقدَّس، وآباء الكنيسة والقانون الكنسي. العِلم يفضح خداعه. بدلاً مِن أنْ يتطلَّعوا إلى الخالق، يتطلَّع المنجِّمون إلى الخليقة، فينطبق عليهم ما قاله بولس الرسول في (رومية ١: ٢٥) عندما كان ينتقد أولئك: «**الذين استبدَلوا حقَّ الله بالكذب، واتَّقوا وعبدوا المخلوق دون الخالِق**». المسيحي الحقيقي لا يعبد سيِّدَيْن. قال داج همرشولد Dag Hammarskjold:

"**الذي يزرع حديقة لا يستبقي مكانًا للأعشاب البريَّة الضارَّة**".

في ضوء ما تعلِّمه الكنيسة حول الممارسات الغامضة مِثل التَّنجيم، ماذا ينبغي أنْ يكون موقفنا؟ إجابة هذا السُّؤال موجودة بوضوح في وعود المعموديَّة. عندما يسأل الكاهن: "هل تجحد الشَّيطان؟ وكل أعماله؟ وكل عباداته؟ وكل سلطانه؟"، فنجيب: "نعم، أجحدها كلَّها".

كتب القديس كيرلس أسقف أورشليم معلِّقًا على جحْد الشيطان وكل أعماله:

[مِثلما رفضتَ وجحدتَ كل عبادات الشِّرير، عليك أنْ ترفض مرتعبًا كلَّ أنواع الممارسات الغامضة (السِّحر والتَّنجيم) واستدعاء أرواح المنتقِلين. كلّ هذه الأمور هي

عبادة الشَّيطان. كلّ شيء له صِلة بالعبادة الوثنيَّة هو عبـــادة للشَّيطان، وهذا ينطبق على ممارسات التَّنجيم، دراسة موقـــع الشَّمس والقمر والنجوم قبل الـــشُّروع في أيِّ مـــشروع أو رحلة، متصوِّرًا أنَّ تحركَّاتهم مِن الممكن أنْ تجلب حظًّا جيِّدًا أو حظًّا سيِّئًا، أو اللُّجوء إلى العرَّافين.

الشَّخص المسيحي ينبغي أنْ يرفض كل تلك الأمور مثبِّتًا عينيه على الله وحده، معتمدًا على عنايته الإلهيَّة. المسيحي يَنتظر أنْ تأتي كلّ الأمور الصَّالحة مِن عند الله الذي يتطلَّع إليه ليحفظه مِن الشَّر، وهو لـــيس لـــه رجـــاء في أيِّ شـــيء إلاَّ في الله. والمسيحي يَعلم أنَّ الثِّقة في الممارسات الخرافيَّة هـــي عبـــادة للشَّيطان، وستُخضعه لطغيان الشَّيطان مِن جديد. في الواقع، أنتَ بعد أنْ جحدتَ الشَّيطان وقطعتَ عهدًا مع المسيح؛ إذا أقحمتَ نفسك في هذه الأمور مرَّة أخرى، فسوف يتحـــوَّل الشَّيطان إلى سيِّد أشدَّ قسوة مِن ذي قَبْل، لأنَّه يشعر بـــالألم الشَّديد مِن الإهانات التي وجَّهتها له].

كبيرُ المحقِّقين يصف يسوع بالمنهرطِق لأنَّه منحنا الإرادة الحُرَّة

عطيَّة الإرادة الحرَّة التي منحها الله لنا، تلعب دورًا ضخمًا في قصَّة كبير المحقِّقين (المحقِّق الكبير) كما رواهـــا دوستويفـــسكي في

روايته الرَّائعة: "الإخوة كارامازوف The Brothers Karamazof". المشهد يحدُث في القَرْن السَّادس عشر في إشبيلية وقت ذروة محـاكم التَّفتيش الأسبانيَّة. يزور يسوع المدينة متنكِّرًا في الوقت الذي يتمُّ فيه حرق الهراطقة وهم مربوطون على الأوتاد. المحقِّق الكبير، الكاردينال العجوز، يتعرَّف على يسوع ويأمر برميه في السِّجن. هناك، يتقابـل الاثنان في مشهد يُذَكِّرنا إلى حدٍّ بعيد بتجربة يسوع في البريَّة.

المحقِّق يوبِّخ يسوع على رفضه تجارب إبليس الثَّلاثة. في قيامـه بذلك، يقول المحقِّق، فَقَدَ يسوع أكبر ثلاث قدرات يمتلكها: "المعجزة، السِّر والغموض mystery، والسُّلطة". كان يجب على يسوع أنْ يتبـع نصيحة الشَّيطان. كان ينبغي عليه أنْ يصنع المعجزات التي اقترحها عليه الشَّيطان من أجل إجبار النَّاس على الإيمان به. يقول الكاردينال المحقِّـق ليسوع: "بدلاً من أنْ تستحوذ على حريَّة الإنسان، قمتَ بزيادتها، ملقيًا ثقل المعاناة إلى الأبد على مملكة البَشَر الروحيَّة. أنتَ كنـتَ تتـوق إلى حبِّ الإنسان بدون إجبار، وأنَّه ينبغي عليه أنْ يتبعك بمطلَـق الحريَّـة، منجذبًا وأسيرًا لك".

يُصِرُّ الكاردينال المحقِّق أنَّ بسبب مقاومـة يـسوع لإغـراءات الشَّيطان للهيمنة على الحريَّة البشريَّة، أضعف يسوع موقفه. فَقَدْ جعـل نفسه قابلاً للهجوم والانتقاد ومن السَّهل جدًّا رفضه. لقد تنازل عـن

أقوى مميِّزاته: القُدرة على فرض الإيمان. ثمَّ يقول المحقِّق: "لقد صحَّحنا ما فعلتَه. لقد انتزعنا الإرادة الحرَّة التي منحتها لأولادك". منذ ذلك الحين، كثيرًا ما تميل الكنيسة للاعتماد على المعجزة، الغموض، والسُّلطة لتحقيق مهمَّتها. في التَّحليل النهائي، يجب أنْ ينفِّذ المحقِّق حكم الإعدام في يسوع للمرَّة الثَّانية لئلا يعيق عمل الكنيسة بالحريَّة المفرِطَة.

عرِف دوستويفسكي أنَّ الثوَّار الشيوعيِّين الذين كانوا بالفعل ينظِّمون أنفسهم عند كتابته لهذه الرِّواية، قد يقتبسون هذه الأساليب من كبير المحقِّقين، وقد يعطون وعودًا بتحويل الحجارة إلى خُبْز، وخَلق مدينة فاضلة أرضيَّة مقابل شيء واحد: مصادرة حريَّة الشَّعب، وبذلك تصبح الشيوعيَّة هي الكنيسة الجديدة في روسيا المؤسَّسة على نفس الثَّلاث قُدرات: "المعجزة، الغموض mystery، والسُّلطة".

كتب برديف Berdyaev عن كبير المحقِّقين: "بالنِّسبة لدوستويفسكي، قضيَّة الإنسان ومصيره هي في المقام الأوَّل قضيَّة الحريَّة، تلك الحريَّة هي مركز إدراكه للعالَم، حتى إنَّ عواطفه وجوارحه الخفيَّة هي عواطف وجوارح الحريَّة".

بالفعل، يعتقد البعض أنَّ دوستويفسكي تناول قضيَّة الحريَّة البشريَّة في: "كبير المحقِّقين"، ربَّما على أعلى مستوى في التاريخ. هذا

الأمر بالتَّأكيد يتَّفق مع تعاليم المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة حـــوْل أهميَّـــة الإرادة الحرَّة.

وهكذا فإنَّ الخطأ الأساسي الذي وقع فيـــه الله الآب (إنْ جـــاز القَوْل) – الخطأ الذي تكرَّر في رسالة يسوع عن الحريَّة– هو أنَّه خَلَـــق البَشَر أحرارًا، أحرارًا أنْ يُخطئوا، أحرارًا أنْ يقعوا في اليأس، أحرارًا أنْ يرفضوا الله. قَصَد المحقِّق أنْ يصحِّح خليقة الله الفاشلة بحرمان البَشَر من عطيَّة الإرادة الحرَّة التي وهبها الله لهم. لكن، نحن نَعلم جيِّدًا أنَّ الإنسان إذا فَقَدَ حريَّته، فَقَدَ آدميَّته. ليس لأحد الحقَّ في حرمان الإنـــسان مـــن عطيَّة الله العظيمة، الإرادة الحرَّة.

علينا أنْ نتبع المِثال الذي قدَّمه لنا يسوع، الذي بدلاً مـــن أنْ يجمع أولاد أورشليم تحت جناحيه، سواء أرادوا المجيء أم أبَوْا، صرخ قائلاً: «**يا أورشليم، يا أورشليم! كم مرَّة أردتُ أنْ أجمع أولادك كما تجمع الدَّجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا!**» (لوقا ١٣: ٣٤).

في واقعة أخرى، اقترح التَّلاميذ أنْ يطلب يسوع أنْ تنـــزل نار مِن السَّماء على قرية غَيْر تائبة رفضت قبول يسوع، لكنَّ يسوع رفض، فهو لا يفرض نفسه على الذين لا يرغبون في استقباله.

كَتَب كونستانتين موشلسكي Konstantin Mochulsky في دراسته الشَّهيرة عن دوستويفسكي:

"كان دوستويفسكي يظن أنّه في روايته: "أسطورة كبير المحقّقين" يفضح خداع الكاثوليكيَّة وكذب الاشتراكيَّة، لكنَّ فَضْحَه كان أبعد وأعمق. مملكة المُحَقّق الذي هو ضدَّ المسيح بُنِيَت على المعجزة، الغموض، والسُّلطة. في الحياة الروحيَّة ينبع دائمًا مبدأ الهيمنة من الشِّرير. في كل الأدب العالمي لم تتقدَّم المسيحيَّة أبدًا بقوَّة هائلة مثلما تقدَّمَت بقوَّة الدِّيانة ذات الحريَّة الروحيَّة. مسيح دوستويفسكي ليس هو المخلِّص والفادي فقط، بل هو أيضًا المُحرِّر الأوحد للإنسان".

دوستويفسكي والإرادة الحرَّة

كان دوستويفسكي رسولاً رائعًا للحريَّة. في خِضَم معاناته في منفاه في سيبريا، قال: **"تقابلتُ مع المسيح الذي كنتُ أعرفه في طفولتي، لكنَّني هجرتُه عندما أصبحتُ أوروبيًّا متحرِّرًا"**. تنبَّأ دوستويفسكي أنَّ أولئك الذين رفضوا المسيحيَّة والكنيسة فَعَلوا ذلك حتى يُثبِتوا لأنفسهم وللآخرين أنَّ البشر هم أسياد مصيرهم، وأنَّه لا يوجد في الكَوْن سُلطة أخلاقيَّة أعلى من سُلطة الإنسان. هؤلاء "المستفيدون" كانوا يبنون سجنًا عملاقًا للتَّوحيد الإلزامي، دون إظهار أيِّ رحمة للذين رفضوا أنْ يكونوا عبيدًا في عالم الشموليَّة المستقبَلي.

وفقًا لدوستويفسكي، كان البَشَر يخشَوْن الحريَّة، وكانوا

يتوقون إلى استبدال الحريَّة بالأمْن والازدهار المادِّي؛ لكن البَشَر لا يمكن أنْ يجدوا السَّعادة الحقيقيَّة بدون حريَّة، لذلك فبمجرَّد أنْ يفقدوا حريَّتهم فهم يُصارِعون مِن أجل استعادتها، حتى لو على حساب الألم والمَوْت. ليس مِن المستغرَب أنَّ كتابات دوستويفسكي كانت محظورة في الاتِّحاد السوفيتِّي السَّابق، فقد استطاع دوستويفسكي أنْ يتنبَّأ عمَّا سيحدث بالضَّبط في ظِلِّ الشيوعيَّة.

قليلٌ مِن النَّاس نجحوا في الخَوْض في فهم دوستويفسكي للحريَّة مِثلما فَعَل كونستانتين موشلسكي:

"الأسطورة" تتوِّج الجهد الذي بذله دوستويفسكي طيلة حياته وهو نضاله من أجل الإنسان، ففيها يكشف الأساس الدِّيني للشخصيَّة، وعدم انفصال الإيمان بالإنسان عن الإيمان بالله. وبقوَّة غير مسبوقة يؤكِّد على أنَّ الحريَّة هي صورة الله في الإنسان، ويظهر مبادئ الدجَّال (ضدَّ المسيح) المتعلِّقة بالسُّلطة والاستبداد. بدون حريَّة، يكون الإنسان وحشًا، والبَشَريَّة قطيعًا، لكنَّ الحريَّة أمر خارق للطَّبيعة، خارق للإدراك. في نظام العالَم الطَّبيعي لا توجد حريَّة، لا يوجد سوى الضَّرورة. الحريَّة هِبَة إلهيَّة، وهي أغلى ما يملكه الإنسان. لا بالعقل ولا بالعِلم ولا بالقانون الطَّبيعي يقدر المرء أنْ يُثبت ذلك — فالحريَّة جزء لا يتجزَّأ من الله، كُشِفَت في المسيح. الحريَّة هي

عمل مِن أعمال الإيمان. الملحدون عشَّاق البشريَّة يرفضون الله، بسبب أنَّ الشَّر موجود في العالم؛ لكنَّ الشَّر موجود فقط لأنَّ هناك حريَّة. هذا التَّعاطف الكاذب (تعاطف الملحدين) مع معاناة البَشَريَّة تختفي وراءه كراهية شيطانيَّة للحريَّة البَشَريَّة "ولصورة الله" في الإنسان. السَّبب هو أنَّ البداية تكون حُبًّا للبشريَّة، لكن النَّهاية تكون طغيانًا واستبدادًا".

الخطيَّة كعبوديَّة

أحد اللاهوتيِّين لا يعتبر الخطيَّة عصيانًا وتمرُّدًا، بل عبوديَّة. بالطَّبع، الخطيَّة تبدأ بعصيان وتمرُّد، لكن إذا تمادَى الشخص فيها فإنَّها تتحوَّل إلى عبوديَّة. الخطيَّة كعبوديَّة ليست شيئًا يحتاج إلى علاج، إنَّما هي شيء نتحرَّر منه. السَّلاسل التي تربط النَّاس فعلاً ليست سلاسل ماديَّة فوق أجسادهم، بل هي سلاسل روحيَّة تُقَيِّد النَّفس: الكراهيَّة، الكبرياء الغَيْرَة، الشَّهوة، الطَّمع، والأنانيَّة. نحن لا نكون أحرارًا فعلاً إلاَّ عندما يحرِّرنا يسوع مِن عبوديَّة الخطيَّة والمَوْت. أنْ تَعرف يسوع المسيح كرب، يعني أنْ تعرف الحريَّة التي هي أعلى مِن كلِّ ما يقدر العالَم أنْ يقدِّمه.

قد تُعيقنا الظُّروف جسديًّا وروحيًّا، لكن عقولنا وأرواحنا يمكنها أنْ تُحلِّق في الحريَّة المرتبطة بوجود الله.

في حريَّة يسوع، نحن نختبر ما يسمِّيه الرَّسول بولس: «**حريَّة مجد أولاد الله**». جاء يسوع جاء ليكُون محرِّرنا العظيم. فهو قد قال:

«روح الرَّب عليَّ، لأنَّه مسحني لأبشِّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق... وأُرسل المنسحقين في الحريَّة» (لوقا ٤: ١٨).

المعموديَّة: "من العبوديَّة إلى الحريَّة"

بالنِّسبة لليهود، عيد الفصح هو الاحتفال بالعبور من العبوديَّة إلى الحريَّة، من عبوديَّتهم في مصر إلى حريَّتهم في أرض الموعد. أمَّا بالنِّسبة لنا نحن المسيحيِّين فالفصح الحقيقي هو العبور من المَوْت إلى الحياة من خلال مَوْت وقيامة يسوع. في الواقع، نحن المسيحيِّين الأرثوذكس نختبر العبور في المعموديَّة المقدَّسة. من خلال فصح المعمودية نعبُر من المَوْت إلى الحياة الجديدة في المسيح. هذا هو السَّبب في أنَّ المعموديَّة يُشار إليها ليس فقط باعتبارها العبور ولكن أيضًا باعتبارها الخروج. نحن نعبُر من عبوديَّة الخطيَّة والمَوْت إلى الحريَّة. مثل الابن الضَّال، يكون "خروجنا" من البلاد البعيدة، بلاد الاغتراب عن الله، لنعود إلى حريَّة بيت أبينا.

أحرارٌ في الاستجابة لله

في المعموديَّة نُعطَى حريَّة مجيدة بنعمة الله. نحن مدعوُّون لنقول: "لا" لإبليس، من أجْل أنْ نقول: "نعم" للمسيح. الكاهن

يدعونا لنجحد الشَّيطان. "هل تجحد الشَّيطان، وكل جنوده، وكل أعماله، وكل عباداته، وكل عَظَمَته؟".

يُوَجَّه لنا هذا السُّؤال ثلاث مرَّات، وفي كلِّ مرَّة نؤكِّد رفضنا للشَّيطان. الحياة المسيحيَّة، حياتك وحياتي، تبدأ بدعوة لممارسة حريَّتنا بأنْ نقول: "لا" للشِّرير.

لا يستطيع المرء أنْ يكون تابعًا ليسوع ما لم يكن على استعداد أنْ يقول، ويظل طيلة حياته يقول: "لا" للإغراءات اليوميَّة التي يَعرضها عليه الشِّرير. جَحْد الشَّيطان في المعموديَّة يؤسِّس أسلوب حياة المسيحي بأكملها. إنَّها ستكون حياة جهاد وصراع روحي مع الشَّيطان إلى يوم الممات.

كل اختيار ينطوي على جحْد للشَّيطان – ليس مرَّة واحدة بل ألف مرَّة. الزَّواج بشخص واحد هو عدم الزَّواج بكلِّ الآخرين. النَّاسك يقول: "لا" للشَّهوات الشرِّيرة مِن أجل أنْ يكون حرًّا. حرًّا مِن أجل ماذا؟ حرًّا في أنْ يُحِب كما يحبُّنا المسيح عندما يوصينا:

«وصيَّة جديدة أنا أعطيكم: أنْ تحبُّوا بعضكم بعضًا. كما أحببتكم أنا تحبُّون أنتم أيضًا بعضكم بعضًا. بهذا يَعرف الجميع أنَّكم تلاميذي: إنْ كان لكم حبٌّ بعضًا لبعض» (يو١٣: ٣٤-٣٥).

قَوْل: "لا" لطبيعتنا الأدنى الخاطئة، يبدأ عند المعموديَّة ويستمر طوال حياتنا، وبحسب كلمات توماس ميرتون Thomas Merton:

"لا يقدر الإنسان الذي بكلّ بساطة يأكل ويشرب كلَّما رغب في أنْ يأكل ويشرب، الذي يدخِّن كلَّما شعر بالحاجة إلى إشعال سيجارة، الذي يُشبع فضوله وشهوانيَّته كلما أثيرا؛ ذاك الإنسان لا يَقدر أنْ يعتبر نفسه حرًّا. لقد جحد حريَّته الرُّوحيَّة وصار عبدًا للدَّوافع الجسديَّة.

وبالتَّالي، فإنَّ عقله وإرادته أصبحا ليسا ملكًا له بالتَّمام، فهما تحت سيطرة نزعاته الغريزية".

التحرُّر مِن القُوَى الشيطانيَّة

الحريَّة الحقيقيَّة تنبُع مِن التحرُّر مِن القُوَى الشيطانيَّة. هذا يظهر في طقس المعموديَّة الذي يبدأ بجحد وطرد هذه القُوَى الشيطانيَّة. وَصَفَ رئيس الأساقفة أناسطسيوس Anastasios Yannoulatos of Albania هذا التحرُّر مِن القُوَى الشيطانيَّة عندما كَتَب:

"بما أنَّ الليتورجيا (القدَّاس) هي اشتراك في الحَدَث العظيم المرتبط بالتحرُّر مِن القُوَى الشيطانيَّة، إذن فاستمراريَّة الليتورجيا في الحياة تعني التحرُّر المستمر مِن قُوَى الشَّر التي تعمل في داخلنا، كما تعني إعادة توجيه مستمرَّة، وانفتاحًا على الأفكار والجهود الرَّامية إلى تحرير الأشخاص مِن كافَّة

الكيانات الشيطانيَّة المرتبطة بالظُّلم والاستغلال والمعاناة واليأس، كما تعني خَلْق تواصُل حقيقي بَيْن الأشخاص في المحبَّة".

وبالتَّالي، فإنَّ الليتورجيا هي مشاركة مستمرَّة في الحَدَث العظيم المرتبط بالتحرُّر من القُوَى الشيطانيَّة، من أجل خَلْق شركة حُب حقيقيَّة بين أولاد الله.

حُر في أنْ تقول "نعم" للمسيح

بعد أنْ قُلنا: "لا" ثلاث مرَّات للشَّيطان في المعموديَّة، نحن مدعوُّون لممارسة إرادتنا الحرَّة مرَّة أخرى بأنْ نقول: "نعم" للمسيح. يُطرح علينا من خلال الإشبين السُّؤال: "هل تتَّحد بالمسيح؟". يُطرح علينا هذا السُّؤال ثلاث مرَّات، وثلاث مرَّات نجيب على لسان الإشبين: "نعم" أيْ أَقْبَل الاتِّحاد بالمسيح (بعض هذه الصَّلوات بحسب الطَّقس البيزنطي).

مرَّة أخرى، يُطرَح نفس السُّؤال: "هل اتَّحدتَ بالمسيح؟". نعم اتَّحدتُ به. "هل تؤمن به؟". "نعم أومن به كمَلِكٍ وكربٍّ". ثم يجاهر الإشبين بإيمانه نيابة عن المعمَّد بتلاوة قانون الإيمان. نحن مدعوُّون إلى تجديد هذا الاعتراف بالإيمان، الذي يتمُّ في المعموديَّة، في كلِّ مرَّة نشارك في الليتورجيا (القدَّاس).

تلاوة قانون الإيمان في القدَّاس هو إعادة تأكيد للمجاهرة بالإيمان التي تمَّتْ في المعموديَّة. بعبارة أخرى، في كلّ قدَّاس، أنا أُجَدِّد مجاهرتي بالإيمان التي تمَّت في المعموديَّة. أُجَدِّد الآن تعهُّدي بأنْ أتبع يسوع؛ ليس إشبيني، بل أنا الذي أُجاهر بالإيمان.

بعد قانون الإيمان، يَسأل الكاهن الإشبين مرَّة أخرى: "هل اتَّحدتَ بالمسيح؟" فيجيبه: "نعم اتَّحدت". يكرَّر السُّؤال والجواب ثلاثة مرَّات. ثم تأتي الكلمات: "اسجُد له". وبينما المعمَّد يسجد يقول: "أسجُد للآب والابن والرُّوح القُدُس، الثَّالوث القدُّوس الواحد في الجَوْهر وغَيْر المنقسِم".

"هل تتَّحد بالمسيح؟" عندما أجبتُ بـ: "نعم" على هذا السُّؤال، فأنا قد اخترتُ بمطلَق الحريَّة أنْ أتَّحد بالمسيح، أنْ أصير واحدًا معه حتَّى يحيا فيَّ.

"هل تؤمن به؟" "أنا أومِن به كمَلِكٍ وكربٍّ". الآن، اتِّحادي بالمسيح يُعَرَّف بأنَّه الإيمان به كمَلِكٍ وكرَبٍّ. الإيمان به كمَلِك يعني أنَّني بدون إجبار أضع نفسي تحت سلطته، وأُكِنُّ له الولاء، فهو سيكون سيِّدي ومَلِكي، سأحبُّه وأعبده بكل عقلي، وقلبي، ونفسي، وقدرتي.

ثم يقول الكاهن: "اسجد له". بهذه الكلمات يُتَرجَم الإيمان

بالمسيح كملك إلى عبادة. نحن مدعوُّون للسِّجود ولعبادة الآب الـذي خلقنا، الابن الذي فدانا، والرُّوح القُدُس الذي يقدِّسنا. مِن تلك اللَّحظة فصاعدًا، حياتي كشخص مسيحي تتحوَّل إلى حياة عبادة وطاعة بدون إجبار للإله الواحد الحقيقي. نحن نصبح أحرارًا بالحقيقة عندما نمـارس الحريَّة التي وهبها الله لنا بأنْ نقول: "لا" للشيطان و"نعم" ليسوع كرب.

اختياري لك يعني أنِّي أقول "لا" لكل الأُخريات

مثال رائع لهذا النَّوْع مِن الحريَّة نراه في قصص الحُب الرومانسيَّة. عندما يتودَّد الشَّاب لفتاة محاولاً التَّأثير على عواطفها، فهو يمارس حريَّة الاختيار، لأنَّه غير ملزَم أنْ يُعلِن حبَّه لأيَّة امرأة في العالَم لأنَّه شـخص حر. عندما يتقدَّم لخطبتها، قد تسأله الشابَّة: "كيف تعرف أنَّك تحـبُّني أكثر مِن أيِّ امرأة أخرى؟ هل تدرك أنَّ في هذه المدينة٣٤٨٢١٢ شابَّة جديرة بالاختيار؟ هل تعرفهنَّ كلهنَّ؟ وهل اخترتني لأنَّك تحبُّني أكثـر مِن أيِّ واحدة منهنَّ؟" لو كان الشَّاب فيلسوفًا لأجاب قائلاً: "بمفهـوم معيَّن، عرْض الزَّواج هذا يشملهنَّ كلهنَّ، فهذا الفعل المُعبِّر عن الحُـب ليس هو فقط تأكيد لحبِّي لك، بل هو أيضًا نفي وإلغاء، فكل اختيـار ينطوي على ترك وجَحْد، فاختياري لكِ يعني أنِّي أقـول "لا" لكـلِّ الأُخريات.

الحريَّة تعني المسؤوليَّة

الحريَّة أيضًا تتبعها المسؤوليَّة. قال دافيد ويبستر David Webster ذات مرَّة: "أكثر فكر مهيب دَخَل عقلي هو مسؤوليَّتي أمام الله سيِّدي". النَّاس أحرار في اختياراتهم الأخلاقيَّة، لكن يجب عليهم أيضًا أنْ يعطوا حسابًا لله عن هذه الاختيارات. هذا يجعلهم أحرارًا وملزَمين على حدٍّ سواء؛ فهم مُلْزَمون بتقديم حسابٍ لله عن الأعمال التي فعلوها وهم في الجسد (بولس الرَّسول).

كَتَب سي. إس. لويس C.S. Lewis هذه الكلمات التي لا تُنسَى معلِّقًا على مساءلتنا (مسئوليَّتنا) أمام الله المبنيَّة على الإرادة الحرَّة التي وهبها لنا:

"عندما يَخرج المؤلِّف ليمشي على المسرح تكون المسرحيَّة قد انتهت. الله سوف يسود (يملك في نهاية العالم)، حسنًا: لكن ما فائدة أنْ تختار في ذلك الحين أنْ تقف في الجانب الذي يقف فيه الله، عندما ترى الكَوْن الطبيعي بأكمله يتوارى عن الأنظار كما لو كان حلمًا، وشيء آخر- شيء لم يخطر قط على بالك- يظهر مُحدِثًا دويًا عنيفًا، شيء رائع جدًّا بالنِّسبة للبعض منَّا، ورهيب جدًّا للبعض الآخر، حتى إنَّه لن يكون أمام أحد منَّا أيَّ خيار؟ لأنَّ هذه المرَّة سيكون الله بدون تَخَفٍّ،

منظر لا يوصَف حتَّى إنَّه سيصيب كل مخلوق إمَّا بحبٍّ لا يقاوَم، أو بهلعٍ لا يقاوَم. حينئذ سيكون قد فات أوان اختيار الجانب الذي ستقف فيه. لن يكون هذا وقت الاختيار: بل سوف يكون وقت اكتشاف أي جانب قد اخترنا بالفعل سواء كنا مدرِكين أو غَيْر مدرِكين لذلك من قَبْل. الآن، اليَوْم، هذه اللَّحظة، هي فرصتنا لاختيار الجانب الصَّحيح (اليمين). الله يتمهَّل ليعطينا هذه الفرصة. لكن هذه الفرصة لن تدوم إلى الأبد. إنْ لم نغتنم الفرصة فستضيع مِن بَيْن أيدينَا".

الله أعطانا الإرادة الحرَّة لعلنا نختار "الجانب الصَّحيح" عن يمين الله، كما توضِّح القصَّة التَّالية:

فات الأوان بالنِّسبة لجو Joe!

ذات مرَّة وَصَف ويليام ويليمون William Willimon كبير كهنة كنيسة جامعة Duke جنازة حضرها هو وزوجته في كنيسة صغيرة مزدحمة في منطقة ريفيَّة في جورجيا. كان الواعظ يصرخ غاضبًا ويلوِّح بيديه بالقُرب مِن النَّعش وهو يصيح: "فات الأوان بالنِّسبة لجُو. لقد مات. الأمر انتهى بالنِّسبة له. إنَّها النِّهاية". ثم أشار بأصبعه نحو الحاضرين وصاح: "لكن بالنِّسبة لكم لم يفُت الأوان بعد! النَّاس يسقطون قتلى كل يوم. إذن لماذا

الانتظار؟ الآن هو وقت اتِّخاذ القرار. الآن هو الوقت المناسب لتجعل حياتك ذات مغزى. الآن هو الوقت المناسب لتسلِّم حياتك للمسيح". ظنَّ ويليمون أنَّ تلك العظة التي سمعها في الجنازة هي أسوأ عظة سمعها في حياته، وعبَّر عن استيائه الشَّديد لزوجته في طريق العودة إلى البَيْت. ظلَّت الزوجة تنصت له بصبر. اتَّفقت معه على أنَّ العظة رديئة وصريحة وقاسية؛ إلاَّ أنَّها أضافت: "قطعًا، أسوأ ما في العظة هو أنَّها كلها واقعيَّة".

إنَّها واقعية! كلُّها! لأنَّ العدَّ التنازُلي لا يتوقَّف، فأوراق النَّتيجة تنطوي بسرعة مرعبة بالنسبة لنا كلّنا. تناهى اللَّيْل وتقارب النَّهار. الآن الوقت المناسب لتختار، لتختار المسيح وتحيا. عندما يأتي في نهاية الزَّمن سيكون الأوان قد فات. حينذاك لن يكون هذا وقت الاختيار؟ سيكون وقت اكتشاف أيِّ جانب قد اخترنا. الآن هو الوقت المناسب لاستخدام الإرادة الحرَّة المعطاة لنا مِن الله: "لنسلِّم ذواتنا ونسلِّم بعضنا البعض وحياتنا بجملتها للمسيح إلهنا". ألم يمنحنا الله عطيَّة الإرادة الحرَّة مِن أجل هذا الخِيار ذي الأهميَّة القصوى؟

مِن أجل إطلاق المسبيِّين

بدون حريَّة يصير الإنسان أقل آدميَّة. على سبيل المثال، عندما يسمح الإنسان لنفسه أنْ يُستعبَد ويصير مدمنًا للكحول أو المخدِّرات أو

ما شابه، هذا الشَّخص يفقد حريَّته. إنَّه يتحول إلى عَبْد، دُمية يستحكَّم فيها الكحول أو المخدِّرات. نحن عندما نصلِّي في القدَّاس مِن أجل "إطلاق المسبيِّين"، بعض هؤلاء المسبيِّين الذين نُصلِّي مِن أجلهم هم أولئك الذين فقدوا حريَّتهم وتحوَّلوا إلى "أسرى" لأهوائهم. ما أسهل أنْ نفقد عطيَّة الحريَّة العظيمة التي وهبها المسيح لنا. ولذلك نحن بحاجة إلى الالتفات مرَّة أخرى لكلمات القدِّيس بولس:

«فاثبتوا إذًا في الحريَّة التي قد حرَّرنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضًا بنير عبوديَّة».

حريَّة مصونة لا تُنْتَهَك

وقف د. فيكتور فرانكل Dr. Victor Frankl طبيب الأمراض النَّفسية الشَّهير، عاريًا أمام ضبَّاط وحِدة إس إس SS (الوحدة الوقائيَّة، وهي منظَّمة تابعة للحزب النَّازي الألماني) في معسكر المَوْت في Auschwitz، وبعد أنْ أخذوا منه ساعته، طلبوا منه خاتم الزَّواج أيضًا. وبينما هو يخلع خاتم الزَّواج نظر إلى سجَّانيه وقال: "قد تكونون قادرين على أخذ كلِّ شيء منِّي، لكنَّ هناك شيئًا واحدًا لن تقدروا أبدًا أنْ تأخذوه منِّي، ذلك الشيء هو حريَّتي في اختيار كيف سيكون ردَّ فعلي على ما تفعلونه بي!" أعطانا الله حريَّة اختيار الطَّريقة التي نردُّ بها عندما

نواجه الظُّلم، أو الضِّيق، أو الخطر، أو أي أمرٍ آخر. لا يقدر أحـــد أنْ يأخذ ذلك منَّا. بنعمة الله نحن أحرار: «**أنْ نثبت... ولا نرتبك أيضًا بنير عبوديَّة**» (غلاه: ١).

حرٌّ أنْ نختار نَهْج الفَوْز

هناك بعض الأحداث في الحياة لا نملك أيَّ سيطرة عليهـــا. نحن لم نختَرْ لوْنَ بَشرتنا. نحن لم نختَرْ مجموعة الجينـــات الوراثيَّـــة والكروموسومات أو الحمض النَّووي الذي يؤدِّي إلى هذا الكيان الذي نحن عليه. نحن لم نختَرْ البلدة التي وُلدنا فيها. هناك أحداث كثيرة — بعضها مأساوي للغاية — ليس لنا أيُّ سيطرة عليها، لكن مثل د. فرانكل، نحن أحرار في اختيار كيفيَّة الـــرَّد علـــى هـــذه الأحداث، أيْ، تجاوبنا مع الأحداث، **إمَّا أنْ يكون باتِّخاذ موقف الإيمان والرَّجاء، أو يكون موقفًا انهزاميًّا كلُّه بؤس وقنوط.**

قد لا نقدر أنْ نختار ظروف الحياة، لكنَّنا أحرار في اختيار الطَّريقة التي نتجاوب بها مع تلك الظُّروف. الحياة هي ١٠٪ مـــا يحدث لنا و٩٠٪ كيفيَّة تفاعلنا مع ما يحدث لنا. مِن خلال عطيَّة الإرادة الحرَّة، نحن نقدر أنْ نتفاعل مع ما يحدث لنا بإيمان إيجابي أنَّ الله سيكون معنا، ليجعل كلَّ الأشياء تَعمل معًا للخَيْر للـــذين يحبُّونه ويعملون معه.

السَّماح لله بمساعدتنا

كثيرًا ما يقول الأب أو الأم لابنهما: "أنا لا أستطيع أنْ أساعدك. أنا لا أستطيع أنْ أفعل لك أي شيء، ما لم تَسمح لي أنت بذلك". الأب أو الأم عاشا لفترة كافية تجعلهما على دراية بأمور الحياة، فهما يعرفان كل شيء عن المخاطر، العقبات الخفيَّة، والإغراءات، وهما لا يبغيان شيئًا أكثر من مساعدة ابنهما، لكنَّه يرفض تلك المساعدة. فالابن يختار طريقه الخاص ويسير خلف مجموعة الأقران، ويقف الأبوان يراقبانه بحزن قائلَيْن: "لا نستطيع أنْ نفعل لك أي شيء ما لم تسمح أنتَ لنا بذلك".

في تصوُّري أنَّه من المؤكَّد أنَّ الله يقول لكلٍّ واحدٍ منَّا بصفة مستمرَّة: "أنا لا أستطيع أنْ أساعدك ما لم تسمح أنتَ لي بذلك".

هذا هو السَّبب في أنَّ بعض الناس يعتقدون أنَّ أكبر لُغز في الألغاز كلِّها هو لُغز الإرادة الحرَّة التي وهبها الله لنا. الله يريد أنْ يساعدنا، لكنَّه لا يستطيع أنْ يفرض مشورته علينا. إنَّه لا يستطيع أنْ يجبرنا على قبول إرادته، مساعدته، نعمته، حبِّه، قدرته. لذلك، من المؤكَّد أنَّ الله يخاطبنا باستمرار في حزن: "أنا لا أستطيع أنْ أساعدك ما لم تسمح أنتَ لي بذلك". الله يقدر أنْ يساعدنا. إنَّه الكلِّي القُدرة والكلِّي المحبَّة، لكنَّنا يجب أنْ نسمح له أنْ يساعدنا. ينبغي أنْ نطلب،

نسأل، ونتضرَّع. ينبغي أنْ نفتح الباب. الله لن يفعل لنا أيَّ شيءٍ ما لم نسمح له بذلك".

الضَّغط الجوِّي لمحبَّة الله

استخدَم الأب ليف جيليه مثالاً قويًّا ليوضِّح قوَّة محبَّة الله فقال:

"يُشبه الحُب الإلهي الضَّغط الجوِّي المحيط بنا الذي يحافظ على كل كائن، وبالإضافة إلى ذلك يمارِس ضغطًا من جميع الجهات. الحُب يحاصر كل كائن ويسعى لاكتشاف أيِّ ثغرة، كطريقٍ يؤدِّي إلى القلب يَقدر الحُب بواسطته أنْ ينفذ إلى كل مكان. الفرق بين الخاطئ والقدِّيس هو أنَّ الخاطئ يغلق قلبه أمام الحُب، بينما القدِّيس ينفتح لهذا الحُب بعينه؛ ففي كلتا الحالتَيْن يكون هو نَفْس الحُب ونَفْس الضَّغط".

كيف يمكن أن تنفتح حياتنا أكثر، لنَدَع حُب المسيح يتدفَّق فينا بزخم أكبر؟

تخيَّل حُب الله كما لو كان قوَّة الضَّغط الجوِّي الذي يضغط علينا باستمرار مِن جميع الجهات. إنَّه يحاول أنْ يجد طريقًا لينفذ به إلى القلب. المفتاح الذي سيفتح الباب ليَدَع حُب الله يتدفَّق داخلنا هو بَيْن أيدينَا. إنَّه عطيَّة الإرادة الحرَّة. نفس الشَّيء بالنِّسبة للحُب؛ الخاطئ يغلق الباب أمام حُب الله، والقدِّيس يفتحه. إنَّها مسألة اختيار.

قواعد الملاحة تحرِّرنا

اسمحوا لي أنْ أشارككم في هذا المَثَل. هل يمكنك أنْ تتخيَّل بحَّارًا يستعد للإبحار بسفينته ويخاطب نفسه قائلاً: "أنا لن أُعير أيَّ اهتمام لهذه الخريطة، ولا لهذا الرسم، ولا لهذه البوصلة، ولا حتى لنجوم السَّماء. بموجب هذا أُعلن تحرُّري من كلِّ هذه الأشياء، سأفعل ما يحلو لي. سأبحر بسفينتي كيفما شئتُ وأينما شئتُ. هذه القواعد القديمة التقليديَّة الخانقة للإبحار لا تعني شيئًا بالنِّسبة لي". كم ستسخر منه البحار الهائجة؟ وما طول الفترة التي سيقضيها قَبْل أنْ ترسو سفينته وهو بداخلها في قاع المحيط؟ عندما يَقْبَل البحَّار ترتيب وتوجيه الخريطة، وإرشاد البوصلة، وإنْ صحَّ التعبير، طغيان النُّجوم الدَّائم ونظامها، حينئذ يَقدر البحَّار أنْ يَصِل إلى الميناء سالمًا.

هناك مَثَل قديم يقول: "الذي لا يلتفت للنُّجوم، لابدَّ أنْ يلتفت للصُّخور". ليتنا لا نكون مثل ذلك البحَّار الشَّاب الذي، تحت مُسمَّى الحريَّة، تخلَّص من كلِّ الضَّوابط. ودَعُونا نتذكَّر أنَّ التَّوجيه ليس فقط بواسطة الخريطة والبوصلة والنُّجوم، بل يوجد أيضًا مدير الدفَّة وهو الرَّب يسوع! خذه على متن سفينة حياتك، أصغِ إلى إرشاده، أطع توجيهاته، كُن عبدًا له بإرادتك، حينئذ ستجد الحريَّة الحقيقيَّة في ميناء نفسك.

الإلحاد: هل هو محرِّر؟

على مرِّ العصور، وبالأخصِّ في السَّنوات الأخيرة، قدَّم الإلحاد نفسه كقوَّة من شأنها تحرير الإنسان من قَهْر الدِّين الذي: "يحرق الهراطقة ويشنق السَّاحرات". إلاَّ أنَّ الإلحاد لديه نزعة مزعجة لرؤية نفسه على أنَّه الإيمان الحقيقي الوحيد، مطالبًا الجميع بطاعة معتقداته. في السَّنوات الأولى، كان من السهل على الليبراليِّين الغربيِّين أنْ يرفضوا اتِّهامات التَّرحيل، والمجاعات التي ترعاها الحكومة، والمجازر التي كانت تحدث في الاتِّحاد السوفيتي؛ لكن بمجرَّد أنْ تهدَّم السِّتار الحديدي، صار الطَّريق ممهَّدًا لعلماء الغرب ليفحصوا السجلاَّت السوفيتيَّة التي كشفت أنَّ الإلحاد كان لا يُمت بأيِّ صِلَة للفكر اللَّطيف الكريم الرؤوف.

عندما نُشِر "الكتاب الأسْود للشيوعيَّة" لأوَّل مرَّة عام ١٩٩٧م وهو مستَمَد من السجلاَّت السوفيتيَّة، أحدث هذا الكتاب ضجَّة. فقد بدأ القرَّاء الغاضبون يسألون أين كانت محاكمات نورنبرج الشيوعيَّة؟ الشيوعيَّة تجاوزت مأساة النازيَّة لقد كانت مأساة بحجم كَوكَب من الكواكب يتراوح إجمالي عدد ضحاياها حسب تقدير الذين ساهموا في الكتاب بين ٨٥و١٠٠ مليون وهو عدد أكثر بكثير من الذين قُتِلوا على أيدي النازيِّين.

بعد نشْر هذا الكتاب، انتهت فجأة كلُّ الأحاديث الجادَّة عن

الإلحاد باعتباره المحرِّر الذي يحرِّر النَّاس مِن قيود الدِّين. لقد تجاوز عـــدد جُثث ضحايا الإلحاد السوفيتي أي شيء معروف في التاريخ، كما أشار الكتاب إلى أنَّ فَرْض عقيدة الإلحاد كَوَّن عقليَّة، لا يمكن أنْ تتسامح مع النُّظُم العقائديَّة الأخرى وخصوصًا المسيحيَّة.

وَعَدَت الشيوعيَّة بالمدينة الفاضلة utopia الخاليـــة مِـــن الظُّلـــم القاسي مِن جانب الدَّولة والكنيسة، إلاَّ أنَّه بمجرَّد وصـــولهم للـــسُّلطة، حوَّل البلاشفة Bolsheviks المدينة الفاضلة إلى عمل دمـــوي للغايـــة. وكما تنبَّأ دوستويفسكي، إقصاء الله أدَّى إلى آفاق جديدة مِن الوحشيَّة والعنف في كلٍّ مِن الستالينيَّة Stalinism والنازيَّة Nazism. ومنـــذ أنْ صَدَر "الكتاب الأسود" عام ١٩٩٧م، فَقَد الادِّعاء المميِّز للإلحاد بأنَّـــه محرِّر البشريَّة الحقيقي مصداقيته بغير رجعة.

لا يوجد محرِّر حقيقي للبشريَّة غير يسوع النَّاصـــري، خالقنـــا وفادينا، الذي أتى ليحرِّر المقهورين، وهو نَفْس يسوع الذي حَكم عليه المحقِّق الكبير بالمَوْت مرَّة أخرى لأنَّه أعطى شعبه حريَّة أكثر ممَّا ينبغي!

الحَتْميِّين Determinists

كان هناك دائمًا المؤمنين بالحتميَّة، الذين يعلِّمون أنَّ الإنسان ليس حرًّا، لأنَّ حياتنا تُحدِّدها وتؤثِّر فيها عدَّة عوامل. عبَّـــر كـــازانتزاكيس Kazantzakis عن هذا الأمر قائلاً:

"أنتَ لستَ حرًّا. عدد ضخم من الأيادي غير المرئيَّة تمسك بيدَيْك وتحرِّكهما... كلُّنا يتمُّ دفعنا للأمام بلا رحمة مِن قِبَل قُوَى الظَّلام الهائلة الواقفة وراءنا".

بعبارة أُخرى، نحن أبعد ما نكون عن الحريَّة، نحن مُجرَّد: "قِطَع شطرنج تُحرِّكها قُوَى الظَّلام مِن الخلف".

إلاَّ أنَّ كَوْن الإنسان لا يتمتَّع بحريَّة تامَّة ومطْلَقَة، فهذا لا يعني أنَّه غَيْر حُر على الإطلاق، ولا حتَّى الله الذي هو القادر على كل شيء والكلِّي السُّلطة يقدر أنْ يفعل ما يشاء، فالله وَضَع بعض القوانين في الكَوْن واختار أنْ يطيعها وأنْ يلتزم بها. ومع كونه أَمْرًا مؤكَّدًا أنَّ الله نفسه هو الذي يضع الحدود لتصرُّفاته الخاصَّة به، غَيْر أنَّ الحدود لابدَّ أنْ توضع. الله حدَّد قوانين يَخضع هو نفسه لها؛ فالله الكلِّي السُّلطة، على سبيل المِثال، يقدر أنْ يجعل الحجارة عندما تسقط ترتفع إلى فَوْق كما تنزل إلى أسفل. لكن كيف نقدر أنْ نعيش في كَوْنٍ تسقط فيه الحجارة إلى أعلى في أحد الأيَّام وإلى أسفل في يَوْم آخر؟ أهمَّ ما في الأمر أنَّ حتَّى الله اختار ألاَّ يكون حرًّا حريَّة كاملة. على سبيل المِثال، إذا نحن لم نفتح أبواب قلوبنا لله، فهو يقدر أنْ يُحَطِّم هذه الأبواب ويفرض نفسه، لكنَّه أبدًا لن يفعل ذلك. الله وضع قيودًا ذاتيَّة على حريَّته. لقد اختار أنْ يَحترم إرادتنا الحرَّة.

ولا نحن أحرارٌ حريَّة كاملة. العوامل الوراثيَّة، بيئتنا الاجتماعيَّة، جيناتنا، أوجَدَت لنا مسارات معيَّنَة مِن الأسهل لنا أنْ نسير فيها أكثر مِن غَيْرها. في الأشخاص الطبيعيِّين نادرًا ما تكون هذه الحُفَر عميقة لدرجة أنَّهم لا يقدرون على الخروج منها. بعض هذه القيود والعوائق مِثل الأمراض التي يمكن الوقاية منها، الجهل، الفقر، الخصومات؛ كل هذه قيود مِن صُنع الإنسان، يمكن إزالتها عن طريق الاستخدام الصَّحيح للحريَّة البَشَريَّة. إلى حدٍّ كبير، يُقصَد بمجيء ملكوت الله على الأرض، هو رفع هذه القيود حتى يتسنَّى لنا، كأولاد لله، أنْ نكون أحرارًا.

هل مِن الممكن أنْ يكون المسيحي حرًّا بالتَّمام؟ المسيحي حُر، إلاَّ أنَّ هذه الحريَّة يحدِّدها ويتحكَّم فيها المسؤوليَّة وحُب المسيح. يقول الرَّسول بولس: «**محبَّة المسيح تحصُرنا**».

حريَّة بدون مسؤوليَّة، تحرُّر بدون محبَّة ليسا حريَّة مسيحيَّة ولا تحرُّرًا مسيحيًّا، لأنَّ كليهما لا يجلب شيئًا سوى الضَّرر. كل شخص له حريَّة ذات حدود. ما مِن مسيحي لديه الحريَّة الكاملة حتى يفعل ما يشاء، مَصْلحة الآخرين هي حد لا نقدر أنْ نتخطَّاه.

يقول بولس الرَّسول: «**إنْ كان طعام يُعثِّر أخي فلن آكل لحمًا**»، «**محبَّة المسيح تحصُرنا**». إنَّها تدعونا أنْ نضع القَيْد الذَّاتي المرتبط بمحبَّة المسيح على حريَّتنا. نحن أحرار في أنْ نفعل كل الأمور،

لكنَّنا نختار أنْ نفعل فقط الأمور التي تساعد الآخرين وتؤدِّي إلى تمجيد الله (رومية ١٤: ١٣-٢١).

الحريَّة في كلِّ شيء

وَصَف أوريجانوس كيف تَرَك لنا الله الحريَّة في كلِّ شيء:

"الله لم يخلق المَوْت، لم يَخلق الشَّر، لكنَّه تَرَك للبَشَر، شأنهم شأن الملائكة، الحريَّة في كلِّ شيء. وهكذا، يسمو البعض من خلال حريَّتهم إلى أعلى مستويات الصَّلاح، بينما يندفع آخرون بتهوُّر نحو أعماق الشَّر".

الجحيم يوجَد بسبب الإرادة الحرَّة. الجحيم هو الحريَّة المتعلِّقة بالقُدرة على رفض الله (أنْ نقول: "لا" لله) إلى الأبد. الله خَلَقَنا لأجل الملكوت وليس الجحيم، إلاَّ أنَّنا لدينا حريَّة الاختيار. الجحيم ليس حالة تُفْرَض علينا، إنَّه حالة نحن نختارها بكامل إرادتنا. نحن نختار أنْ نعيش مع الله أو نختار أنْ نعيش مِن دون الله. الله يحترم قرارنا ويَسمح لنا أنْ نعيش بدونه للأبد إذا كان هذا هو خيارنا. إلاَّ أنَّه، يتحتَّم علينا أنْ ندوس على جسد يسوع المصلوب لنَصِل إلى الجحيم.

لقد مات على الصَّليب لأجلنا حتى يمنعنا مِن اختيار الجحيم، «**لأنَّه هكذا أحبَّ الله العالَم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كلَّ مَن يؤمِن به، بل تكون له الحياة الأبديَّة**» (يوحنا ٣: ١٦).

نقرأ في الدِّيداخي (تعاليم الرُّسل، يرجع تاريخها إلى القَرْن الأوَّل):

"يوجد طريقان: طريق الحياة وطريق المَوْت، والفَرْق بَيْن الاثنين عظيم".

هناك العديد من الخيارات التي نتَّخذها في الحياة، فنحن نختار شريك الحياة، نحن نختار المهنة، نختار مكان إقامتنا.. إلخ، لكن الخيار الأكثر أهميَّة هو الاختيار بَيْن الحياة والمَوْت، بيْنَ الملكوت والجحيم.

«قد جعلتُ قدَّامك الحياة والمَوْت... فاختر الحياة» (تث٣٠: ١٩).

أكثر قوَّة من الله

يصف مورتون كيلسي Morton T. Kelsey كم هي حقًّا رهيبة تلك القدرة على الاختيار الممنوحة من الله فيقول:

"يوجد مَن هو أقوى من الله، إنَّه الإنسان. نعم، الإنسان أقوى من الله على نحو غاية في الأهميَّة. أنتَ وأنا نقدر أنْ نُبْقي الله خارج حياتنا، ليس هنا فقط والآن، بل إلى الأبد.

تلك هي الطَّريقة التي تجعلك أكثر قوَّة من الله. حصن نفسك الدَّاخلي ملْكٌ لك، وحتى الله ذاته لن يقتحم ذلك الحصن ما لم تُرِد أنتَ وتفتح له الباب وترَحِّب به. أي إنسان يقدر أنْ يُبقي حياته مغلقة أمام الله، فيُبقي الله خارج حياته إلى الأبد... ".

يشرح فلاديمير لوسكي كيف يَخضع الله لإرادة الإنسان فيقول:

"الله يقف عاجزًا أمام حريَّة الإنسان؛ لا يقدر أن ينتهكها لأنَّها تنبع من قدرته الكليَّة الخاصَّة به. من المؤكّد أنَّ الإنسان خُلِقَ بإرادة الله وحدها، لكنَّه لا يمكن أنْ يؤلَّه فيصير شَبَه الله بتلك الإرادة وحدها. إرادة واحدة للخَلْق، لكن إرادتَيْن للتألُّه. إرادة واحدة تُقيم الصُّورة (القيامة العامَّة للأبرار والأئمة)، لكنَّ إرادتَيْن تُحوِّلان الصُّورة إلى تماثُل (تمجيد أولئك الذين في المسيح). حُب الله للإنسان هو من القوَّة بحيث إنَّه لا يمكن أنْ يفرض قيودًا؛ لأنَّه ليس هناك حُب دون احترام. ستظل دائمًا الإرادة الإلهيَّة تُخضِع ذاتها لفحص والتفافات بل ولثورات الإرادة البشريَّة، من أجل أنْ تصل بها إلى الموافقة الحرَّة".

وَصَف الواعظ الفرنسي الكبير فرانسوا فينيلو Francois Fenelon عطيَّة الإرادة الحرَّة الرَّائعة باعتبارها العطيَّة الوحيدة التي هي حقًّا مِلْكٌ لنا وخاصَّة بنَّا فقال:

"نحن لا نملك أي شيء سوى إرادتنا الحرَّة. كل الأمور الأخرى ليست ملكًا لنا. المرض يقضي على الصحَّة والحياة. الثَّروات تُنتزع بالعنف. مواهب العقل تعتمد على حالة الجسم. الشَّيء الوحيد الذي هو حقًّا مِلْكٌ لنا هو إرادتنا. إنَّ

الله منحها لنا، ليس لأجل أنْ نحتفظ بها ونظل مسؤولين عنها، بل حقًّا مِن أجل أنْ نعيدها إليه كاملة، تمامًا كما تسلَّمناها، دون أنْ نقتطع أيَّ جزء منها".

الابن الضال والحريَّة

تلعب الإرادة الحرَّة دَوْرًا هامًّا في مَثَل الابن الضَّال. الأب يُحب ابنه حبًّا شديدًا لدرجة أنَّه يسمح له بمغادرة المنزل.

يصف هنري نووين Henry Nouwen المَثَل كما يلي:

"لم يقدر الأب أنْ يجبر ابنه على البقاء في البَيْت. لم يستطع أنْ يفرض حبَّه على الحبيب. كان عليه أنْ يتركه يذهب بحريَّة، على الرغم مِن أنَّه كان يَعلم بالألم الذي سيصيب كلاًّ منهما: الابن والأب نفسه. الحُب نفسه هو الذي منعه مِن إبقاء ابنه في البيت مهما كلَّفه الأمر. الحُب نفسه هو الذي مكَّنه من السماح لابنه أنْ يجد حياته الخاصَّة حتى مع المخاطرة بفقدانها. هنا، يُكشَف النِّقاب عن سرِّ حياتي.

أنا محبوبٌ جدًّا لدرجة أنَّ لديَّ الحريَّة أنْ أترك البَيْت. النِّعمة موجودة مِن البداية. لقد تَرَكْتُها ومازلتُ أتركها، لكن الأب دائمًا يبحث عنِّي بذراعَيْن ممدودَتَيْن ليَقبلني عند عودتي، ويهمس مرَّة أخرى في أذني: "أنت حبيبي، فيك نعمتي"".

خيار الرَّحيل متروك لنا، وخيار العَوْدة متروك أيضًا لنا. كم هو أمر مؤلم أنْ يظل الله منتظرًا إيَّانا أنْ نختار الرُّجوع إليه، إلاَّ أنَّه لابد أنْ ينتظر لسببَيْن:

(١) الدَّافع الوحيد الذي يقدر أنْ يستخدمه الله هو الحُب.

(٢) الله يحترم الإرادة الحرَّة التي وهبها لنا جدًّا. هنا، نجد أنَّ كلمات الأب جون كريسافجيس Fr. John Chryssavgis تنطبق هنا:

"التَّوْبة هي السَّريان المستمر لمفعول الحريَّة، هي حركة جريئة نحو مزيد مِن الحريَّة الروحيَّة".

لا أقدر أنْ أمنَع نفسي

أحد أساليب المراوغة المستخدَمَة في مجتمعنا اليوم يُعبَّر عنها بالتَّعبير الذي كثيرًا ما نسمعه مِن النَّاس، أو حتى نستخدمه نحن أنفسنا: "أنا لم أستطِع أنْ أمنع نفسي". هذه الفلسفة تنظر للنَّاس باعتبارهم ضحايا واقعين تحت تأثير قُوَى خارجيَّة بدلاً مِن أنْ تراهم كأشخاص ذوي إرادة حرَّة. هذه الفلسفة لا تَعتبر المخالِفين خطاة بل "مرضى". مِن خلال تجاهل حقيقة أنَّ النَّاس يواجهون إغراءات في إمكانهم – بل يجب عليهم – مقاومتها، فإنَّها تنفي بالتَّحديد الخاصيَّة التي تميِّزنا عن الحيوانات، أي، إنَّنا لسنا ضحايا، إنَّنا مسئولون عن أفعالنا، وأنَّ لدينا حريَّة الاختيار.

"أنا لم أستطع أن أمنع نفسي"، عبارة ينبغي ألاَّ يستخدمها المسيحيُّون كعذر. لماذا؟ لأنَّنا نحن نَعلم ونؤمن أنَّه حينما نعجز عن مساعدة أنفسنا، يوجد شخص يقدر دائمًا أنْ يساعدنا، شخص نقدر أنْ نلجأ إليه طالبين القوَّة والمعونة، شخص يحبُّنا وسلَّم ذاته لأجلنا. عندما ندعو يسوع في حياتنا، فإنَّه يعطينا قُدرة جديدة، قوَّة جديدة لم تكن لدَيْنا مِن قَبْل. عندما ندعو يسوع في حياتنا، فإنَّه لا يأتي بمفرده، فهو يُحضِر معه الآب والرُّوح القُدُس، وهو يهبنا القدرة على احتمال مآسي الحياة والتغلُّب عليها.

في كثير مِن الأحيان في هذا العالَم، بمجرَّد ما يصبح أي شخص عبدًا للخطيَّة، فنحن نتحدَّث عنه أنَّ لدَيْه دافعًا قهريًّا. فنقول: "فلان وقع في الإدمان القَهري للكحول أو الشَّراهة القهريَّة أو القمار القَهري". على الرَّغم مِن أنَّ هذا قد يكون صحيحًا، إلاَّ أنَّ الكلمة التي استخدمها يسوع ليشرح معنى الدَّافع القَهري هي العبوديَّة. هذا لا يعني أنَّ هؤلاء النَّاس فقدوا حريَّتهم تمامًا، أو أنَّهم لم يعودوا أحرارًا. لماذا؟ لأنَّ هناك دائمًا كَمًّا باقيًا مِن الحريَّة — حتى لو كان شرارة صغيرة — يكفي ليجعلنا نشعر بالمسؤوليَّة. سيبقى دائمًا هناك داخل السكِّير أو أيِّ شخص أهكته العبوديَّة للخطيَّة، ما يكفي مِن الحريَّة ليفتح الباب ويفسح الطريق للمسيح ليدخل حياته.

الخطايا التي تبدأ بأفعال نَرتكبها بكامل حريَّتنا، تُضعف إرادتنا لكنَّها لا تدمِّرها تمامًا. لا يزال مِن الممكن أنْ يقيم الله جِسرًا ليصل به إلينا. إنَّه يقدر أنْ يغمرنا بقوَّته، فقط لو اعترفنا بعجزنا وفتحنا له الباب. مهما كنَّا "مدمنين" أو "ذوي دوافع قهريَّة"، هناك ما يكفي مِن الإرادة الحرَّة المتبقيَّة التي تُمكِّننا مِن تسليم عبوديَّتنا ودوافعنا القهريَّة لربِّ حياتنا وسيِّدها.

"أنا لم أستطيع أن أمنع نفسي"؛ ليست هي النِّهاية بل مِن الممكن أنْ تكون بداية. مِن الممكن أنْ تكون دَعوة إلى طرح ضعفنا أمام الكلِّي القُدرة كما فَعَل بولس الرَّسول ونُعلن معه: «**يعظُم انتصارنا بالذي أحبَّنا**» (رو٨: ٣٧).

وعبَّر القديس يوحنا St. John of Kronstodt قائلاً:

"لا تخلط أبدًا بَيْن الإنسان المخلوق على صورة الله والشَّر الذي في داخله، لأنَّ الشَّر ليس سوى بَليَّة عَرضيَّة (طارئة)، سُقم، خيالات شيطانيَّة؛ لكن جوهر الإنسان بالتَّحديد هو صورة الله، وتلك الصورة تبقى داخله رغم كل التشوُّهات".

وبسبب هذا، هناك دائمًا ما يكفي مِن قوَّة الإرادة المتبقِّية داخلنا، التي تُمَكِّننا مِن اللجوء إلى الله طلبًا للعَوْن، وتُمَكِّننا مِن فتح الباب لنعمته وحبِّه وقدرته.

هل الجينات الوراثيَّة تَحرمنا مِن الإرادة الحرَّة؟

نحن لا نؤمن – كما يؤمن البعض – أنَّنا ضحايا جيناتنا الوراثيَّة. بعبارة أخرى، نحن لا نؤمن بالحتميَّة الوراثيَّة genetic determination، إلا أنَّنا فعلاً نؤمن بوجود ما يُسمَّى بالاستعداد الوراثي genetic predisposition.

د. دافيد برسنج Dr. David Persing مِن Mayo Clinic والباحث في عِلم الوراثة الجزيئيَّة، يؤمِن بتعليم الكتاب المقدَّس عن أنَّ الطَّبيعة كلَّها سقطت، وهذا يشمل ميراثنا مِن الجينات كما يقول د. برسنج، وكنتيجة لذلك أصبح لدينا جميعًا ميول فطريَّة نحو أشكال مختلفة مِن السُّلوك الخاطئ الذي يُسَمِّيه البعض: "عُقدَة آدم Adam Complex". في بعض النَّاس قد يكون هذا (السُّلوك الخاطئ) هو الإدمان أو الدَّافع القهري، إلاَّ أنَّ د. برسنج يكمِّل قائلاً إنَّ جيناتنا الوراثيَّة لا تعطينا أي عُذْر للوقوع في الخطيَّة. لا يزال لدينا فرصة لاتِّخاذ خيارات أخلاقيَّة حقيقيَّة.

الجينات مِثل أوراق اللَّعب التي يَتمُّ توزيعها، كلُّ شخص يحصُل في حياته على أوراق مختلفة، لكن كل واحد منَّا مسؤول عن كيفيَّة اللَّعب بأوراق الجينات الوراثيَّة التي كانت مِن نصيبه والتي وُزِّعَت عليه في لعبة الحياة. ينبغي أنْ يتصدَّى المسيحيُّون لفلسفة الحتميَّة الوراثيَّة لأنَّها

تجعل الناس ضحايا مثل قطع الشَّطرنج التي تحرِّكها الجينات الوراثيَّة. رسالة الإنجيل المعطية الحياة هي أنَّه بالرَّغم من طبيعتنا السَّاقطة، لا يزال بوسعنا الاستجابة للنِّعمة الإلهيَّة، لتساعدنا في التغلُّب على مختلف الأشكال من الاستعداد الجيني الوراثي التي أوجَدَها عُقدة آدم في جيناتنا. نحن أيضًا نَقدر أنْ نقول مع بولس الرَّسول: «**إنْ كان الله معنا، فمن علينا... يعظم انتصارنا بالذي أحبَّنا**»- بما في ذلك جيناتنا الوراثيَّة.

استعادة عطيَّة الإرادة الحرَّة

لقد وصلنا إلى المرحلة التي نحتاج فيها إلى استرداد عطيَّة الإرادة الحرَّة. فكما تُسبِّب اتِّباع منهج التفكيكيَّة Deconstruction الفلسفي في مَوْت الحق (هذه الفلسفة تنصُّ على استحالة الوصول إلى فهم متكامل للنَّص أيًّا كان، لأنَّ أيَّ نص ليس له معنى ثابت واحد، كما تؤكِّد هذه الفلسفة على دور القارئ في تفسير النَّص الذي يقرأه)؛ فهؤلاء حاولوا أيضًا أنْ يسلبوا منَّا عطيَّة الإرادة الحرَّة الموهوبة لنا من الله. فعقيدة الإرادة الحرَّة تعرَّضت لهجوم عنيف لاسيَّما في السَّنوات الثَّلاثين الماضية.

اليوم أصبحت عقيدة الإرادة الحرَّة بالنِّسبة لنا هي: "ثقافة الاختيار" بمعنى أنَّ الاختيار أصبح غايةً في حدِّ ذاته، وأصبح الاختيار هو المِعيار (قاعدة السُّلوك – النَّموذج) الذي يبرِّر ذاته. لم يعُد الاختيار

يكشف الشخصيَّة بل يكشف التَّفضيل الشَّخصي فقط. وعقيدة الإرادة الحرَّة أصبحت لا تعترف بأيِّ معايير مقبولة للاختيار سوى تلك الخاصَّة بالاختيار ذاته. بعبارة أخرى، الاختيار تحوَّل إلى صَنَم.

«**الحق يحرِّركم**» تعني شيئًا واحدًا بالنِّسبة للمسيحيِّين – الذي هو: "إنَّه هو المسيح الذي يحرِّرنا من الخطيَّة والمَوْت". لكن هذه الآية لها وَقْعٌ آخَر في أُذُن "ما بعد الحداثة post-modern": إنَّها تعني "رغباتي المفضَّلة" هي التي تُحَرِّرني- هي التي تُشعِرني أنَّني حرٌّ أنْ أفعل ما يحلو لي. بالنِّسبة للمسيحي، "رغباتي المفضَّلة" لا تَعني الحريَّة، بل العبوديَّة لأهوائنا.

ومِن ثَمَّ، فإنَّ الإرادة الحرَّة قد تم اختزالها تقريبًا في لا شيء. كثيرون لا يعتقدون أنَّهم لا يزالون يتمتَّعون بالحريَّة. إنَّهم لا يؤمنون بالمسؤوليَّة الشخصيَّة. يلعبون دور الضحيَّة أو يبحثون عن شخص ليلقوا باللَّوْم عليه، أو يلجأون لأيِّ أمرٍ آخر لمجرد أنَّهم لا يريدون أنْ يتحمَّلوا مسؤوليَّة الإرادة الحرَّة.

فيما يلي قائمة الأعذار التي يستخدمها الكثيرون لإنكار عطيَّة الإرادة الحرَّة أو لإنكار المسؤوليَّة الشخصيَّة:

- **"والداي هما المسؤولان".**
- **"جيناتي الوراثيَّة هي المسؤولة".**

- **"أمِّي لم تكُن تحبُّني".**
- **"أنا لم أستطع أنْ أمنع نفسي – أنا عندي دوافع قهريَّة".**
- **"إنَّه خطأ المدرِّس".**
- **"رَبُّنا خلقني كده!".**
- **"الشَّيطان دَفَعَني لأفعل ذلك!".**
- **"أنا مُجرَّد بَشَر... " إلخ.**

معظم أجدادنا عاشوا في الوقت الذي كانت اللُّغَة السَّائدة هي لغة الإحساس بالمسؤوليَّة؛ ثم بداية مِن الستِّينيَّات تقريبًا، بدأتْ اللُّغة تتغيَّر منذ ذلك الحين على نحو متزايد. انتقلنا مِن لُغة المسؤوليَّة إلى لُغة الحقوق. الآن أصبح لكل شخص حقوق، لكن لا أحد يتحمَّل مسؤوليَّة أيِّ أمرٍ مِن الأمور.

نحن بحاجة إلى استعادة العطيَّة العظيمة التي وهبها الله لنا، الإرادة الحرَّة التي يحاول بشدَّة المجتمع الدُّنيوي أنْ يسرقها منَّا. عندما نتحمَّل بكامل إرادتنا مسؤوليَّة أنفسنا وأفعالنا، حينئذ فقط نقدر أنْ نُغَيِّر أنفسنا ومجتمعنا.

ذات مرَّة قال أحدهم: "الشَّخص الذي يلوم الآخرين عن مشاكله (يحمِّلهم مسؤوليَّة مشاكله) لم يبدأ تعليمه. الشَّخص الذي

يلوم نفسه قد بدأ تعليمه. والشَّخص الذي لا يلوم سِوى نفسه قد أنهى تعليمه".

خَلاص داود النَّبي بدأ عندما تحمَّل مسؤوليَّة أفعاله وقال لله: «**إليك وحدك أخطأتُ، والشرَّ قُدَّام عينيك صنعتُ**» (مز ٥١: ٤). الحريَّة تبدأ عندما نصلِّي بتلك الكلمات ونتحمَّل مسؤوليَّة ذواتنا.

عطيَّة خطيرة

في احتفال الرَّابع مِن يوليو، وبينما كان الخطيب يرثي أجدادنا الذين ماتوا ليعطونا الحريَّة، صرخ شاب مِن وسط الجموع، "لماذا لا تقول لهم الحقيقة كاملة؟ لماذا لا تقول لهم إنَّ الحريَّة هي أخطر هِبَة ممكن أنْ ينالها الإنسان؟ لماذا لا تقول لهم إنَّ الحريَّة سَيْفٌ ذو حدَّيْن مِن شأنها أنْ تُدمِّرنا ما لم نتعلَّم كيف نستخدمها؟ لماذا لا تجعلهم يدركون أنَّنا نواجه تحدِّيًا أكبر مِن كل ما واجهه أجدادنا في أي وقتٍ مضى؟ لم يكن عليهم سوى القتال مِن أجل الحريَّة. أمَّا نحن فعلينا أنْ نتعايش مع الحريَّة".

ليس هناك شكٌّ في أنَّ هذا الشَّاب كان على حَق. الحريَّة عطيَّة خطيرة. تلك الحريَّة التي اكتسبها أجدادنا لأجلنا ربَّما نستخدمها في اختيار الأشياء الخاطئة. بالنِّسبة للكثيرين، الحريَّة التي نطالِب بها الآن لا

تعني سوى التحرُّر مِن الانضباط ومِن التَّضحية بالنَّفْس. مـــا لم نـــتعلَّم السَّيطرة على ذواتنا، في هذا المناخ مِن الحريَّة التي أصبحت مجرَّد تصريح بالخطأ، قد يحل محلَّه مناخٌ مِن القمع والاستبداد كما كـــان في رومـــا وكما هو الحال في كثير مِن البلدان.

عطيَّة الله تتطلَّب استجابة حرَّة

يكتب الأسقف كاليستوس وير Bishop Kallistos Ware عن أهمية حريَّة الاستجابة لله:

"عطيَّة الله المجانيَّة تحتاج استجابة حرَّة".

وهذا ما تدعو إليه عطيَّة الإرادة الحرَّة: حريَّة التجاوب مع الله مِن أجل حبِّه العظيم.

عبَّر بروفيسور بانـــاجيوتس Panagiotis Trembelas أســـتاذ اللاَّهوت السَّابق في جامعة أثينا بهذه الكلمات:

"مِن البداية إلى النِّهاية، في عمليَّة تحويل الإنسان وتقديـــسه، هناك خطَّان يسيران جنبًا إلى جَنْب: النِّعمة الإلهيَّـــة والإرادة البشريَّة الحرَّة. هذان الخطَّان يلتقيان باســـتمرار ويلمـــسان بعضهما البعض، وعلى هـــذا النُّحـــو يُـــسهمان سَـــويًّا في خلاصنا... بل إنَّ أثناء تطوُّر هذه العمليَّة، ما مِن لحظة وما مِن مرحلة يطمس فيها أحد الخطَّيْن الآخر أو يلغيه".

لنْ يفرض الله نفسه أبدًا علينا بأيِّ طريقة مِن شأنها أنْ تحرمنا مِن إرادتنا الحرَّة. الكنيسة الأرثوذكسيَّة ليس لدَيْها أدنى شك في الضَّرورة المطلَقَة للنِّعمة مِن أجل الخلاص.

كَتَب القديس يوحنا ذهبي الفم (d. 407) قائلاً:

[لا يمكننا على الإطلاق أنْ نُحقِّق أي عمل صالح ما لم نتمتَّع بالمساعدة الآتية مِن فَوْق].

لكن بعض المسيحيِّين البروتستانت يعتقدون أنَّ نعمة الله لا تُقاوَم، مع أنَّ الله لا يفرض نعمته أبدًا علينا. في الرسالة إلى ديوجينيتوس (القرن الثاني) نقرأ هذه الكلمات:

"الله أرسل ابنه ليخلِّصنا – لكي يُقنعنا وليس ليقهرنا: لأنَّ الإكراه ليس مِن طَبع الله".

«**الله يريد أنَّ جميع الناس يَخلصون**» (١تي ٢: ٤)؛ وهو يقرع على الباب لكنه لا يكسره بالقوَّة. الله ينتظر أنْ نَفتح له (رؤ ٣: ٢٠). نحن نخلص بالإيمان مِن خلال النِّعمة، لكن الإيمان يُعبَّر عنه فعليًّا بأنْ يكون هناك تقبُّلٌ مِن جانبنا واستعداد لقبول ما فَعَله الله وما لا يزال يفعله مِن أجلنا. وبالتَّالي فإنَّ خلاصنا يتحقَّق فقط في وجود موافقتنا الطوعيَّة.

ومرَّة أخرى أستخدم كلمات القدِّيس غريغوريوس النيصي:

[الميلاد الرُّوحي هو نتيجة الاختيار الحُر، بالتَّالي، فإنَّنا نكـــون بطريقة ما، آباء لأنفسنا، نُشَكِّل أنفسنا حسبما نشاء، نصُوغ أنفسنا بحريَّة وفقًا للنَّموذج الذي حسب اختيارنا. "النَّمـــوذج الحقيقي" الذي حسب اختيارنا هو النَّموذج الأصلي الـــذي خُلِقنا على صورته – أي الرب يسوع].

كتب جلبرت جوفين Gilbert Guffin الكاتب الدِّيني عن سوء استخدام الحريَّة:

"الإنسان لُغز. فهو يريد أنْ يعيش حياة طويلة، ومـــع ذلـــك دائمًا يهدِّد نفسه بالفناء. يرغب في التمتُّع بالصحَّة الجيِّـــدة، ومع ذلك بصفة مستمرَّة يتجاهل قواعدها الأساسيَّة. يتـــوق للخلود، ومع ذلك يعيش حياة لا تصلح للعَيْش إلى الأبـــد. يُحِب الحريَّة، ومع ذلك باستمرار يجعل نفسه عبـــدًا لـــسادة كذبة. لديه الإمكانيَّة أنْ يكون قدِّيسًا، ومع ذلك كثيرًا مـــا يختار أنْ يكون خاطئًا. هو المخلوق الوحيد الـــذي يقـــدر أنْ يَحُطَّ مِن قَدْر نفسه ليصبح فأرًا (شخصًا بغيـــضًا)، ظربانًـــا (شخصًا حقيرًا)، كلبًا (شخصًا خسيسًا)، ثعبانًـــا (شخـــصًا ماكرًا)، ومع ذلك يَقدر أنْ يرتفع مِن خـــلال نعمـــة الله إلى قاماتٍ ملائكيَّة".

كل هذا يتوقَّف على "كيفيَّة الاختيار"، لأنَّنا أحرارٌ في اختيار أنْ

نكون قدِّيسين أو نكون خطاة، عبيدًا أو أناسًا أحـــرارًا، شـــياطين أو ملائكة. نحن مدعوُّون للاختيار إمَّا أنْ نكون مشوَّهين شبه الـــشَّياطين، أو مضيئين شبه المسيح. الخلاص هِبَة مجانيَّة للجميع. مَن يَقْبَلون الخلاص تتحوَّل الحياة بالنِّسبة لهم إلى عربون من السَّماء. بالنِّسبة لَمن يقـــاومون الخلاص، فإنَّ محبَّة الله ورحمته وغفرانه هم بعيْنِهم سيـــصيرون عقابًـــا يُضاف إلى عقابهم لذواتهم. الله يريد أنَّ الجميع يخلصون، لكنَّ الخلاص لا يمكن أنْ يُفرَض علينا ضدَّ إرادتنا، لأنَّ: "الإكراه ليس من طبع الله".

طريقة صحيحة وطريقة خاطئة

هناك طريقة صحيحة وطريقة خاطئة للقيام بأيِّ شـــيء. هنـــاك طريقة صحيحة وطريقة خاطئة للغناء، للعب الجولف، لخبز الفطائر.

هناك أيضًا طريقة صحيحة وطريقة خاطئة للعَيْش. الحياة تـــستند على قوانين محدَّدة. إذا أنتَ اخترتَ ألاَّ تتحالف مع هذه القوانين، مـــن الممكن أنْ تسير الحياة بشكلٍ سيءٍ بالنِّسبة لك، لكن عنـــدما تـــتعلَّم قوانين الله، وتختار أنْ تطيعها، فإنَّك ليس فقط سوف تتمتَّع بالحريَّة، بل سوف تصبح حياتك بَرَكة للكثيرين، وسبب تمجيد لله.

اطمئن فهو لن يدعك تفلت من يده

نحن بحاجة إلى الشعور بالأمْن إذا أردنا أنْ نستخدم إرادتنا الحرَّة

دون خَوْف. دعوني أشرح لكم. في عروض الترابيز Trapez (أرجوحة تتكوَّن مِن قضيب أُفقي معلَّق بواسطة حبال أو أسلاك معدنيَّة. تُستخدم هذه الأرجوحة كإحدى عروض السِّيرك، حيث يُمسك أحد لاعبي السِّيرك بهذا القضيب ويتأرجح في الهواء، ثم يلقي بجسده في اتِّجاه لاعب آخر يقوم بالإمساك به). توصَّل هنري نووين Henry Nouwen إلى أنَّ النَّجم الحقيقي في هذه العروض ليس هو لاعب السِّيرك الذي يطير محلِّقًا في الهواء، بل اللاَّعب الذي يسرع للإمساك به. اللاَّعب الذي يطير في الهواء يجب ألاَّ يحاول أبدًا أنْ يمسك أيدي اللاَّعب الآخر، لأنَّه لو فَعَل ذلك مِن الممكن أنْ يكسر ذراعي زميله، لذا يجب أنْ يكون ذلك اللاَّعب مسترخيًا تمامًا، وبكلِّ ثقة ينتظر أيدي زميله أنْ تمتد لتتلقَّفه. يقول نوين Nouwen متأمِّلاً في هذه الفكرة:

"أنا أَقدر أنْ أطير بحريَّة فقط عندما أُدرك أنَّ هناك شخصًا سيسرع للإمساك بي. إذا كان ينبغي أنْ نتحمَّل المخاطر، أنْ نكون أحرارًا، نُحَلِّق في الهواء، في الحياة، علينا أنْ نَعلم أنَّ هناك شخصًا سيمسك بنا. علينا أنْ ندرك أنَّنا عندما نكون موشِكين على الارتطام بالأرض، سنجد يدَيْن ممدودتَيْن للإمساك بنا وسنكون في أمان. البَطَل العظيم هو الأقل وضوحًا. ثِق في الشَّخص الذي لنْ يَدَعْكَ تسقط!"

إيماننا المسيحي يؤكّد لنا أنّ هذا الشّخص العظيم الذي يمسك بنا — الرّب يسوع — سيُسرع دائمًا لنجدتنا. الحريّة لها مخاطرها، مثل الطّيران في الهواء، لكنّنا نَعلم أنّنا عندما نوشك على الانهيار، سيُمسكنا بنا وسنكون في أمان. أذرع يسوع الأبديّة لنْ تَدَعنا نسقط.

الإرادة الحرة والشّهوات

تشرح دي بينوك Dee Pennock بنظرة آبائيّة عميقة كيف تحاول الشّهوات باستمرار أنْ تتداخل مع إرادتنا الحرّة فتقول:

"أنْ تفعل ما يحلو لك بإرادتك الحرّة يشبه قيادة السيّارة والاتّجاه إلى حيثما تشاء. عليك أنْ تُركّز بعينَيْك على الطّريق وتُوَجّه عَجَلة القيادة في الاتّجاه الذي تريده. تحاول الشّهوات التي ترافقنا دائمًا طوال رحلتنا أنْ تستولي على عَجَلة القيادة وتنحرف بها في اتّجاهات كارثيّة. إلى أنْ تتحكّم في تلك الشّهوات، وهو ما نَقدر أنْ نفعله مِن خلال الصّلاة، لنْ تكون لإرادتك كلّ قوّتها الطبيعيّة.

عندما يريد عقلنا الواعي أنْ يُغيّرنا نحو الأفضل بطريقة ما، تَرُدُّ عليه الشّهوات المعبّأة في عقلنا اللاواعي وفي قلبنا وتقول: "مِن رابع المستحيلات أنْ يحدث هذا التّغيير". وتنقضُّ الشّهوات على عَجَلة القيادة وتبدأ في السّيْر في الاتّجاه العكسي. حينئذ،

بدلاً من التنازل عن إرادتنا الرَّائعة، يجب علينا – بمعونة ربِّنا – أنْ نعالِج هذه الشَّهوات التي تحاول أنْ تنتزع منَّا عَجَلة القيادة، ونستعيد السَّيطرة على نظام (آليَّة) القيادة".

ثم تَشرح أنَّ استعادة السَّيطرة لا تحدُث بَيْن عشيَّة وضُحاها، بل ستكون رحلة طويلة، حيث إنَّ الشَّهوات لنْ تكُفَّ أبدًا عن محاولة الاستيلاء على عَجَلة القيادة. سوف يتطلَّب الأمر الكثير من الصَّلاة بمثابرة ونُسك وجهاد للتغلُّب على الشَّهوات. لكن بممارسة المرء لإرادته الحرَّة، حتى عندما يشعر بمنتهى العَجْز، وبطلبه من الله ما يريده، والطَّريق الذي يرغب في السَّيْر فيه، من الممكن أنْ يُغَيِّر مجرى حياته: "مِثل الحَبَّة الصَّغيرة التي تنمو وتصير شجرة كبيرة".

الاختلاف مع الله حوْل الإرادة الحرَّة

أولئك الذين يَدخلون في خصومة مع الله ويسألونه لماذا أعطانا الإرادة الحرَّة، يقدم لهم سي. إس. لويس C.S. Lewis هذا الرَّد اللاَّذِع:

"بالطَّبع، الله كان يعلم ماذا سيحدث لو استخدموا حريَّتهم بطريقة خاطئة: من الواضح أنَّه رأى أنَّ الأمر يستحقُّ المخاطَرَة.

ربَّما نكون ميَّالين إلى الاختلاف معه في الرَّأي، لكن هناك مشكلة في الاختلاف مع الله في الرَّأي. فالله هو المَصْدَر الذي

تنبُع منه كلَّ قدرتك على التَّفكير: فكما أنَّ النَّهر لا يمكن أنْ يرتفع أعلى من مَصدره، كذلك لا يمكن على الإطـــلاق أنْ تكون أنتَ على حقٍّ والله مُخطئ. أنتَ عندما تجادل ضـــدَّه، فأنتَ تكون بذلك تجادل ضدَّ القُدرة بعينها، التي تجعلكَ قادرًا على المجادلة في حدِّ ذاتها: مثلما تقطع فَرْع الشَّجرة الذي أنتَ جالسٌ عليه. إذا كان الله يَرى أنَّ الإرادة الحرَّة تـــستحقُّ أنْ نَدفع حالة الحرْب الكائنة في الكَوْن ثمنًا لها – أي، ثمنًا مقابـــل أنْ يكون العالَم نابضًا بالحياة، تعيش فيه مخلوقات لدَيْها القُدرة على فِعْل الخَيْر أو الشَّر، ومقابل أنْ يكـــون في الإمكـــان أنْ تُحدث أمور ذات أهميَّة في هذا العالم بدلاً منْ أنْ يكون عالَمًـــا دُمْيَويًّا (لعْبَة) يتحرَّك فقط عندما يـــشدُّ الله الخيـــوط – إذن فنحن نُسَلِّم بهذا الرَّأي، أنَّ الإرادة الحرَّة نستحق أن ندفع هذا الثَّمن مقابل لها".

إنسان حُرٌّ في المسيح، إنسان مليء بالبَهْجَة

الأب الرَّاحل أليكسندر شميمان Fr. Alexander Schmimann وهو أحد العُلماء الليتورجيِّين الكبار في القرن الماضي، كان مثالاً حيًّـــا للإنسان الحُر في المسيح، وقد قال ذات مرَّة:

"إنَّ الإنسان الحُر في المسيح هو إنسان مليء بالبهجة".

كانت حياته تُجَسِّد كلاً من الحريَّة وفرح الـرَّب. الـصَّحفي سيرجي شميمان Serge Schmemann ابنه الحائز على جائزة Pulitzer (جائزة تُمنَح في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة للأعمال المتميِّزة في الأدب، والموسيقى، والصَّحافة)؛ قدَّم لنا في مُقَابَلة نُشِرَت في جريدة Moscow Times في الذِّكرى العاشرة لوفاة الأب شميمان، الصُّورة التَّاليـة الـتي تكشف لنا شخصيَّة أبيه، فقال:

"في البَيْت، لم يقُل لنا الأب ألكسندر أبدًا أنْ نـذهب إلى الكنيسة، أو أنَّه يجب علينا أنْ نصوم أو نفعل أمـرًا مـن الأمور بطريقة معيَّنة، على الإطلاق. ببساطة، كان يَفعل ما كان يجب عليه أنْ يفعله، ونحن وجَدنا أنفسنا منجذبين إلى تلك الأمور التي كانت ذات أهميَّة بالنِّسبة له. لا أستطيع أنْ أقول إنَّنا كنَّا نقضي أوقاتًا طويلة في الكنيسة مثلما كـان يفعل، لكن فرحتنا بالقدَّاسات والصَّلوات كانت نابعة منه كليَّة. كان أبي في منـزلنا هو المثال الـذي يرشـدنا إلى مبادئ الحياة الروحيَّة حسب تعاليم الكنيـسة. كـان أبي يصوم بهدوء دُون أنْ يُصِر على صَوْم أيِّ شخصٍ آخـر، وبطريقة غريزيَّة كنَّا نبدأ نحن أيضًا الصَّوْم، فنحن لن نتركه يصوم وحده! كان الصَّوْم مهمًّا بالنِّسبة له، وبالتَّالي أصبح مهمًّا بالنِّسبة لنا... كان كلُّ شيءٍ دافئًا معه، كان دائمًا في

غاية السَّعادة. لو استيقظنا في الصَّباح في حالة معنويَّة سيِّئة، عندما كنا نراه سعيدًا مُفْعَمًا بالحيويَّة- وتلك كانت حالته في بداية كل الأيَّام- كانت تلك الحالة تنتقل لنا كلّنا... حارَب دائمًا ضدَّ اختزال المسيحيَّة في الشَّكليَّات والقوانين فحَسْب، فالمسيحيَّة في الواقع تُحَرِّر الإنسان من قيود الشكليَّات والقوانين. والأب ألكسندر رَأَى في المسيحيَّة الحُب والحريَّة الإنسانيَّة، وكان يسعى دائمًا في محاضراته وكتاباته وعظاته أنْ يكشف المعنى الأعمق لكلِّ الأمور التي تَحدث في الكنيسة. لم يكن يبالغ في تبسيط الأمور، فقد كان يرى أنَّ داخل كلِّ إنسان ساحة شديدة التَّعقيد يجري فيها صراعٌ بَيْن الخَيْر والشَّر... تميَّزت نظريَّته اللاهوتيَّة بالأخص بعنصر الحريَّة. مسيحيَّته هي الخاصَّة بالمسيح، لأنَّه بالتَّحديد أعطانا الحريَّة. فقوانين الكنيسة من الممكن أنْ تتَّخذ حياة مُعَيَّنة مستقلَّة خاصَّة بها، منفصلة تمامًا عن الله. كان الأب ألكسندر يَعْلَم كلَّ ذلك جيِّدًا، لذا لم يبدأ أبدًا بالقوانين. بالنِّسبة له، كانت كل الأمور تبدأ بالإيمان بالله، ذلك الإيمان يؤدِّي إلى نظام في الحياة وليس العكس".

لقد قيل إنَّ أبناء الكهنة (رجال الدين) في طائفة معيَّنة غالبًا ما يتحوَّلون إلى المُلحدين الأكثر عدوانيَّة والأكثر انتقادًا للكنيسة التي يَخدم فيها آباؤهم.

ما سبب هذه الظَّاهرة؟ هل من الممكن أنْ يكون السَّبب هو أنَّ هؤلاء الأبناء تربَّوْا على إيمان يتألَّف فقط من مجموعة من القوانين — قانونًا تلْوَ الآخر مع وجود القليل — إنْ وُجِد — منَّ التَّلامس مع أب حُر بالحقيقة ومتمتِّع بفرح المسيح؟ "**الإنسان الحُر في المسيح هو إنسان مليء بالبهجة**". هل من الممكن أنْ يكون السَّبب هو أنَّهم فشلوا في العثور على هذه الحريَّة والبهجة في آبائهم؟ هل من الممكن أنْ يكون السَّبب هو أنَّ العالم يتطلَّع اليَوْم لأمثلة حيَّة لأُناس أحرار في المسيح مملوئين بالبهجة؟ فلنُصَلِّ أنْ يجدوا فينا هؤلاء النَّاس المحرَّرين المبتهجين، نحن الذين تَمَّت دعوتنا ورسامتنا كهنة من قِبَل المسيح في كهنوت المؤمنين الملوكي، نحن المدعوِّين لنكون نورًا وملحًا وخميرة في هذا العالم.

الاختيار الأسمى في الحياة

كلمة الله في الكتاب المقدَّس تدعونا باستمرار لاستخدام إرادتنا الحرَّة من أجل أنْ نقوم بالاختيار الأسمى في الحياة، الاختيار الذي هو أعلى من كلِّ اختيارٍ آخر، الاختيار الذي يعتمد عليه خلاص وأبديَّة كلِّ واحد منَّا، الاختيار الذي لأجله أعطانا الله الإرادة الحرَّة في المقام الأوَّل، أي: «**قد جعلتُ قدَّامك الحياة والمَوْت... فاختر الحياة**» (تث٣٠: ١٩). «**لا يقدر أحد أنْ يخدم سيِّدَيْن**» (مت٦: ٢٤). «**تُحبَّ الربَّ إلهك من كلِّ قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، وتُحبَّ قريبك كنفسك**» (متى٢٢: ٣٧، ٣٩). في هذا الاختيار سنجد الحياة — الحريَّة والبهجة.

طالِب بالعطايا

في المعموديَّة ننال العديد مِن العطايا والمواهب وثمار الرُّوح القُدُس (غل٥: ٢٢)، ولكن مُعظمنا يترك هذه الهدايا دونَ أنْ يفتحها، بل يتركها مغلَّفَة فَوْق الرَّف. الله الذي خَلقنا يعرفنا أكثر مِن أيِّ شخصٍ آخر، ويحترمنا أكثر مِن أيِّ شخصٍ آخر، هو يُعَلِّم أنَّ أعظم ما يُمَيِّزنا هو إرادتنا الحرَّة، لأنَّ فيها تكمُن القُدرة على تلقِّي عطاياه.

يكتب القدِّيس يوحنا ذهبي الفم:

[الفردوس على عتبة بابك. افتح الباب دعه يغمر حياتك بعطايا الروح القدس الجميلة. الاختيار لك!]

مسؤوليَّتنا

ما هو نَوْع المسؤوليَّة التي نأخذها على عاتقنا عندما ننال المعموديَّة في الكنيسة، ونصير أناسًا أحرارًا في المسيح يسوع؟ يقدِّم لنا رئيس الأساقفة أناستسيوس يانولاتوس مِن ألبانيا Archbishop Anastasios Yannoulatos of Albania الجواب، فيقول:

"مهمَّتنا هي أنْ نَخلق مجتمعًا من الأشخاص الأحرار المملوئين بمحبَّة المسيح. كلُّ شخص، كلُّ فرد، كلُّ شعب؛ هم أحرارٌ أنْ يَقْبَلوا أو يرفضوا إنجيل المسيح، إلاَّ أنَّهم يستحقُّون أنْ

يكونوا على عِلم به بأسلوب يتَّصف بالمسؤوليَّة، ليس في صورة أجزاء مِن هنا ومِن هناك، ولا مِن مصادر مشكوك فيها، بل مِن الكنيسة الرسوليَّة، أيْ منَّا نحن، نحن كأعضاء في الكنيسة الأرثوذكسيَّة، مدعوِّين لنكون شعبًا رسوليًّا، ولنكون نورًا وملحًا وخميرة في العالم، مقدِّمين شهادة حيَّة لا تنتهي لله الحي، بينما نحن نُقَدِّم الإنجيل لأُناس أحرار في كلِّ مكان في محيط محبَّة المسيح".

لإلهنا المجد والكرامة إلى الأبد. آمين.

﴿ صلاة ﴾

يا ربنا يسوع، أعطنا أن نعيش حرية مجد أولاد الله، حرية من قيود الشر والرذيلة.

يارب، فك نفوسنا من كل قيودها ووحِّدها بك، فأنت هو المُحرِّر العظيم القادر أن تعطي حياة جديدة، فيها تجديد كلي للميول والرغبات والانفعالات.

يارب، أطلق نفوسنا من حبسها لترى جمالك، وعذوبة الحياة معك.

ولك كل المجد، آمين.

عندما تكون حُرًّا مِن الله، ومِن نصائحه ووصاياه؛ ففي الوقت نفسه تكون عبدًا لإبليس وتعاليمه. وإنْ كنتَ تَظُن أنَّك تعيش في النُّور، فأنتَ في الوقت نفسه تحت سُلطان الظُّلمة وضلالها.

ورغم أنَّ الإنسان خُلِق على صورة الله ومِثاله، فعندما رَفَض هذه الصُّورة، وعندما أحبَّ العالَم والسَّيْر في الخطيَّة، أصبح عبدًا للعالَم والخطيَّة والشَّهوة التي نهايتها الهلاك، رغْم أنَّ الله خَلَقَنا على صورته كمثاله في البِر والتَّقوى، إلاَّ أنَّ إرادة الإنسان أوصلته إلى العبوديَّة المُهلِكَة.

فنحن مخلوقون بالمسيح يسوع، أي أنَّنا نلنا روح المسيح، روح القداسة الذي به نصير أناسًا روحيِّين لإحياء صورة البِر والقداسة التي يجب أنْ نعيش فيها. هذه الحريَّة الحقيقيَّة التي حرَّرنا بها المسيح لنسلك فيها.

شُكرًا للربِّ يسوع الذي أعطانا الحريَّة الحقيقيَّة فيه.

بنعمة الله
الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

المؤلِّف

هو الأب أنتوني م. كونيارس كاهن يخدم في كنيسة القديسة مريم الأرثوذكسية اليونانية في مينيابوليس، وهو يتميز بغيرة رسولية حارة. كان مسئولاً عن العمل الأرثوذكسي الطلابي بجامعة مينيسوتا حيث كان يخدم في المجمع الاستشاري الديني. وقد نجح من خلال كتاباته في جعل الأرثوذكسية للشباب رسالة ذات تقليد حي، تتقبل كل ما هو حقيقي وجميل، وترفض كل ما هو زائف وفاسد.